مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
« قدس الله روحه »

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم « رحمه الله »
وساعده ابنه محمد « وفقه الله »

المجلد الثاني عشر

طبع بأمر
خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود
أجزل الله مثوبته

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

تحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيميه ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه .

٦٢٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

x-٣٢-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٢)

١ - الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٤ ١٥/٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

x-٣٢-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٢)

كتابُ

القرآن

كلامُ اللهِ حقيقةً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال الشيخ الإمام أبو العباس

أحمد بن تيمية رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله نحمـده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمـداً عبـده ورسوله ؛ أرسله بالهـدى ودين الحق (لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا) صلى الله عليه وسلم تسليما .

قاعدة في القرآن وكلام الله

فإن الأمة اضطربت فى هــذا اضطراباً عظيما ، وتفرقوا واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضي القرون الثلاثة ، لمــا حدثت فيهم الجهميــة المشتقة من الصــــابئة ، وقد قال الله تعالى : (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) ، وقال تعــالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ)

والاختلاف « نوعان » : اختلاف فى تنزيله واختلاف فى تأويله .

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون فى الحق ، بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء ، أو بالعكس . فإن الواجب الإيمان بجميع الحق المنزل . فأما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين كما قال تعالى : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) إلى قوله :

(وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ) والاختلاف فى تنزيله أعظم ، وهو الذي قصدنا هنا ، فنقول :

« الاختلاف فى تنزيله » هو بين المؤمنين والكافرين ، فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل ، والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فسوف يعلمون ، فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك ، والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك .

وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم ، فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ، ومن كذب بالرسل كذب بذلك . فالإيمان بكلام الله داخل فى الإيمان برسالة الله إلى عباده ، والكفر بذلك هو الكفر بهذا ، فتدبر هذا الأصل ، فإنه فرقان هذا الاشتباه ؛ ولهذا كان من يكفر بالرسل : تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر ، كما أنه قد يكفر برب العالمين : مثل فرعون وقومه ، قال الله تعالى : (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ) الآية ، وقال تعالى عن نوح وهود : (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ) وقال (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) إلى آخر الكلام

فإن فى هذه الآيات تقرير قواعد ، وقال عن الوحيد : (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) .

ولهذا كان أصل « الإيمان » الإيمان بما أنزله . قال تعالى : (الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ) إلى قوله : (وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) وفى وسط السورة : (قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ) الآية . وفى آخرها : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ) الآيتين . وفى السورة التى تليها : (الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ) . وذكر فى أثناء السورة الإيمان بما أنزل ، وكذلك فى آخرها : (رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا) إلى قوله : (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ) الآية .

ولهذا عظم تقرير هذا الأصل فى القرآن . فتارة يفتتح به السورة إما إخباراً كقوله : (ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ) وقوله . (الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ) وقوله : (الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ) الآية . وكذلك ال « طسٓ » و ال « حمٓ » . فعامة ال « المٓ » و ال « الٓر » ، و ال « طسٓ » ، وال « حمٓ » كذلك .

وإما ثناء بإنزاله كقوله : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا) (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ) الآية .

وأما فى أثناء السور فكثير جداً ، وثنى قصة موسى مع فرعون ؛ لأنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل ، فإن فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة ، وموسى فى غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه ، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار ، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن أيضاً للرسل من التكليم ما لموسى ؛ فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر ؛ ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر قال هذا فرعون هذه الأمة ، وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ؛ ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله ، كما أخبر الله عنه بقوله : (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ) وإن كان عالما بما جاء به موسى مستيقنا له ، لكنه كان جاحداً مثبوراً ، كما أخبر الله بذلك فى قوله : (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) الآية . وقال تعالى :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى قوله : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ الآية .

والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد ، وثمود وقوم لوط ، وشعيب وقوم إبراهيم ، وموسى ومشركي العرب ، والهند والروم والبربر ، والترك واليونان والكشدانيين ، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم وأهواءهم ، ويعرضون عن ذكر الله ، الذي آتاهم من عنده ، كما قال لهم لما أهبط آدم من الجنة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي موضع آخر : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الآية . وفي أخرى ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ .

ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس : يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ، ويدعون الجدل والكلام ، والقوة والسلطان والمال ، ويصفون أتباع المرسلين بأنهم سفهاء ، وأراذل وضلال ، ويسخرون منهم ، قال الله تعالى :

(فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ) وقال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ) إلى قوله (وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ) وقال تعالى عن قوم نوح : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ) وقالوا : (وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ) وقال : (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) وقال : (وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ) بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضلال وغير ذلك ، كما قالوا عن نوح : (مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ) وقالوا : (إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) ولهود : (إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ) .

فصـــــل

و « الإيمان بالرسل » يجب أن يكون جامعاً عاما ، مؤتلفاً لا تفريق فيه ، ولا تبعيض ولا اختلاف ؛ بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل إليهم . فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض ، أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر ، وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين ؛ فإن

هؤلاء فى أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً ؛ فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ونحوه فى المائدة .

ومنهم من فرق فآمن ببعض وكفر ببعض ، كما قال تعالى عن اليهود : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ) الآيات وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا) الآية . وقال تعالى : (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ) الآيتين وقال عن المؤمنين (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ) وقال : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ) .

وذم الذين تفرقوا واختلفوا فى الكتب ، وهم الذين يؤمنون ببعض دون بعض ، فيكون مع هؤلاء بعض ومع هؤلاء بعض ، كقوله :

(وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) وقوله : (وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ) وقوله : (وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ) وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ) .

فصـــــل

التفريق والتبعيض قد يكون فى القدر تارة ، وقد يكون فى الوصف : إما فى الكم وإما فى الكيف ، كما قد يكون فى التنزيل تارة ، وفى التأويل أخرى ؛ فإن الموجود له حقيقة موصوفة ، وله مقدار محدود . فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض فى قدره ، وقد يقع في وصفه .

فالأول مثل قول اليهود : نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد . وهكذا النصارى فى إيمانهم بالمسيح دون محمد . فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا ؛ فإنه لم يؤمن بجميع المنزل ، وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن

ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض ؛ فإن البدع مشتقة من الكفر .

وأما « الوصف » فمثل اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح : هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق ؛ لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه ، وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته ؛ ولكن قالوا هو الله . فاختلف الطائفتان فى وصفه وصفته ، كل طائفة بحق وباطل .

ومثل « الصابئة الفلاسفة » الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف ، بعضه حق وبعضه باطل ؛ مثل أن يقولوا : إن الرسل تجب طاعتهم ، ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله ؛ لكنه إنما أنزل على قلوبهم من الروح الذي هو العقل الفعال فى السماء الدنيا لا من عند الله ، وهكذا ما ينزل على قلوب غيرهم هو أيضاً كذلك ، وليس بكلام الله فى الحقيقة ، وإنما هذا فى الحقيقة كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنه سمى كلام الله مجازاً . فهؤلاء أيضاً مبعضين مفرقين ؛ حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض ، وربما كان ما كفروا به من الصفات أكثر مما آمنوا به ، كما أن ما كفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به ؛ لكن هؤلاء أكفر من اليهود من وجه ، وإن كان اليهود أكفر منهم من وجه آخر .

فإن من كان من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً فهو كافر من الجهتين ، ومن كان منهم لا يوجب اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضاً كافر من الجهتين ، فقد يكون أحدهم أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن ، وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ لكنهم في الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى ، فإن أولئك مقرون فى الأصل بكمال الرسالة والنبوة ، وهؤلاء ليسوا مقرين بكمال الرسالة والنبوة . كما أن من كان قديماً مؤمناً من اليهود والنصارى صالحاً فهو أفضل ممن كان منهم مؤمناً صالحاً ، وكذلك من كان من المنتسبين إلى الإسلام مؤمناً ببعض صفات القرآن ، وكلام الله وتنزيله على رسله ، وصفات رسله دون بعض ، فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى .

ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة ، حيث هي من الإيمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض ، وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض ، وكلاهما إما فى التنزيل وإما فى التأويل .

فصـــــل

والسبب الذي أوقع هـؤلاء فى الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين فى الكفر بجميع ما أنزل الله فى كثير من المواضع ، فإن من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين فى الكفر بما أنزل الله على محمد صـلى الله عليه وسلم هي مـن جنس شبه المشركـين والمجوس ، ومن معهم مـن الصابئين فى الـكفر بجنس الـكتاب ، وبمـا أنزل الله على رسله فى كثير مـن المواضع ؛ فإنهـم يعترضون على آياته ، وعلى الـكتاب الذي أنزل معـه ، وعلى الشريعة التى بعث بها وعلى سيرته بنحو مما اعترض به على سائر الرسل : مثل موسى وعيسى ، كما قال الله تعـالى فى جميعهم : (مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ)

إلى قوله : (كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)

وفى الآية الأخرى : (إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ) إلى قوله : (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ) .

هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات ، وأنواع القُدَر الباهرات ، أعظم مما أيد به غيره ، ونبوته هي التي طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها ، وبه ثبتت نبوات من تقدمه ، وتبين الحق من الباطل ، وإلا فلولا رسالته لكان الناس في ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمر مريج ، يؤفك عنه من أفك : الكتابيون منهم والأميون ؛ ولهذا لما كان ما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله : أمره الله سبحانه باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به .

وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾
وقوله : ﴿ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾
وقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾
وفي الآية الأخرى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾
الآية . ومثل قوله : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾ .

وجماع شبه هؤلاء الكفار : أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه ، وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسله ، فأتوا من

جهة القياس الفاسد ، ولا بد في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به : مثل جنس الوحي والتنزيل ؛ فإن الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾ .

وقال تعالى : فى ال « طس » وقد افتتح كلامهن بقصة موسى وتكليم الله إياه ، وإرساله إلى فرعون ، فإنها أعظم القصص كما قدمناه ، فقال فى سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد ، وهي « سبع » : قصة موسى وإبراهيم ، ونوح وهود ، وصالح ولوط وشعيب، ثم قال عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم ، وبين الشعراء ؛ لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسجوع ، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس ، فإن قرين الشيطان مادته من الشيطان ، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره . والشاعر مادته من نفسه ، وربما أعانه الشيطان .

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها وهو : الكاذب في قوله ، الفاجر فى عمله ؛ بخلاف الصادق البر ، وأن الشعراء إنما يحركون

النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاوون ، وهم الذين يتبعون الأهواء ، وشهوات الغي ، فنفى كلا منهما بانتفاء لازمه ، وبين ما يجتمع فيه شياطين الإنس والجن .

فصل

إذا تبين هذا الأصل ظهر به اشتقاق البدع من الكفر ، فنقول : كما أن الذين أثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين ، لم يبدلوا ما أنزل الله ، ولا كفروا بشيء مما أنزل الله ، وكان اليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد ، فكذلك الصابئة صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد ، وإن كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودي والنصراني. وهؤلاء هم المستأخرون من اليهود، والنصارى والصابئين .

وذلك أن متأخري الصابئين لم يؤمنوا أن لله كلاماً أو يتكلم ، ويقول ، أو أنه ينزل من عنده كلاماً وذكراً على أحد من البشر ، أو أنه يكلم أحداً من البشر ؛ بل عندهم لا يوصف الله بصفة ثبوتية لا يقولون : إن له علماً ، ولا محبة ولا رحمة ، وينكرون أن يكون

الله اتخذ إبراهيم خليلاً ، أو كلم موسى تكليماً ، وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي ، مثل قولهم ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، أو بإضافة ، مثل كونه مبدأ للعالم أو [العلة] الأولى ، أو بصفة مركبة من السلب والإضافة ؛ مثل كونه عاقلا ومعقولا وعقلا .

وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره ، ولا يخص محمداً بإرسال دون غيره ، فإنهم لا يثبتون له علماً مفصلا للمعلومات فضلا عن إرادة تفصيلية ؛ بل يثبتون — إذا أثبتوا — له علماً جملياً كلياً ، وغاية جملية كلية ، ومن أثبت النبوة منهم قال : إنها فيض تفيض على نفس النبي من جنس ما يفيض على سائر النفوس ؛ لكن استعداد النبي صلى الله عليه وسلم أكمل ، بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره ، ويسمع ما لا يسمع غيره ، ويبصر ما لا يبصر غيره ، وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره .

والكلام الذي تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم ، وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) فإن « الوحيد » الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم ؛ كان من المشركين الذين هم صابئون أيضاً ، فإن الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين ، وتارة يجعلهم الله قسيما لهم ، كما قال تعالى : (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ) (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) .

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ) الآية وقال تعالى (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)الآية وهذا بعد قوله : (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ) إلى قوله : (وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ) وقال : (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى ، وذلك بعد تبديلهم ، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل ، وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك ، فالشرك مبتدع عندهم ؛ فينبغي التفطن لهذه المعاني .

وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب ، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم .

ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله : (إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ)

ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبيــاء حيارى متهوكون ؛ فإنــه بهرهم نور النبوة ، ولم تقع على أصولهم الفاسدة ، فصاروا على « أنحاء » : منهم من لا يؤمن بكثير مما تقوله الأنبيــاء والمرسلون ؛ بل يعرض عنــه أو يشك فيــه أو يكذب به ، ومنهم من يقول : يجوز الكذب لمصلحــة راجحة ، والأنبياء فعلوا ذلك ، ومنهم من يقول : يجوز هذا لصالح العــامة دون الخاصــة ، وأمثلهم من يقول : بل هــذه تخيلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقــائق إلى قلوب العامة ، وهــذه طريقة الفارابى وابن سينا ؛ لكن ابن سينا أقرب إلى الإيمان من بعض الوجوه ، وإن لم يكن مؤمناً .

فمن أدركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرته براهينها وأنوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة ، والأعمــال الصالحة ــــ حتى قال ابن سينا : اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس ــــ فلا بد أن يتأول نصوص الكتاب والسنــة على عادة إخوانه في تحريف الكلم عن مواضعــه ، فيحرفون ما أخبرت به الرسل عن كلام الله ؛ تحريفاً يصيرون به كفاراً ببعض تأويل الكتاب فى بعض صفات تنزيله .

فلما رأوا أن الرسل سمت هذا الكلام كلام الله ، وأخبرت أنــه نزلت بــه ملائكة الله ، مثل الروح الأمين جبريل ، أطلقت هــذه

العبارة فى الظاهر ، وكفرت بمعناهـا في الباطن ، وردوها إلى أصلهم أصل الصابئين ، وصاروا منافقين فى المسلمين وفى غيرهم من أهل الملل .

فيقولون : هذا القرآن كلام الله ، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله ، ولكن المعنى أنه فاض على نفس النبي صلى الله عليـه وسلم من العقل الفعال ، وربما قالوا إن العقل هو جبريل ، الذي ليس على الغيب بضنين أي بخيل ؛ لأنه فياض . ويقولون إن الله كلم موسى من سماء عقله ، وإن أهل الرياضة والصفا يصلون إلى أن يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى .

وقد ضل بكلامه كثير من المشهورين مثل « أبي حامـد الغزالي » ذكر هذا المعنى فى بعض كتبـه ، وصنفوا « رسائل إخوان الصفـا » وغيرها ، وجمعوا فيها على زعمهم بين مقالات الصابئة المتأخرين التى هي الفلسفة المبتدعة وبين ما جاءت به الرسل عن الله ، فأتوا بما زعموا أنه معقول ولا دليل على كثير منه ، وربما ذكروا أنه منقول . وفيـه من الكذب والتحريف أمر عظيم ، وإنما يضلون به كثيراً بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية ، التى لا تعلق لها بأمر النبوات والرسالة لا بنفي ولا بإثبات ، ولكن ينتفع بهـا فى مصالح الدنيا : كالصنـاعات من الحراثـة والحياكة ، والبناية والخياطة ونحو ذلك .

فإذا عرف أن حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة ، أن القرآن قول البشر كغيره ، لكنه أفضل من غيره ، كما أن بعض البشر أفضل من بعض ، وأنه فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها ، فاعلم أن هذا القول كثر في كثير من المتأخرين المظهرين للإسلام ، وهم منافقون وزنادقة ، وإن ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة ، والمتصوفة والمتفقهين ، حتى يقول أحدهم ــ كالتلمساني ــ كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة . وقد يقول بعضهم ــ كابن عربي ــ إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول كثير منهم إن القرآن للعامة وكلامنا للخاصة .

فهؤلاء جعلوا القرآن عضين ، وضربوا له الأمثال : مثل ما فعل المشركون قبلهم ، كما فعلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم . فإن هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه ، أو بعض الفلاسفة : ــ مثل نفسه أو شيخه أو متبوعه ــ على النبي صلى الله عليه وسلم . وربما قالوا هو أفضل من وجه والنبي أفضل من وجه ، فلهم من الإلحاد والافتراء في رسل الله نظير مالهم من الإلحاد والافتراء في رسالات الله ، فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم ، ويقيسون رسل الله بأنفسهم . وقد بين الله حال هؤلاء في مثل قوله : (وَمَاقَدَرُواْٱللَّهَ

حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) إلى أن قال :
(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) فذكر الله إنزال الكتابين ،
الذين لم ينزل من عند الله كتاب أهدى منهما ـ التوراة والقرآن ـ كما جمع بينهما فى قوله : (قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

وكذلك الجن لما استمعت القرآن (قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ) الآية . وقال تعالى : (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ) ولهذا قال النجاشي لما سمع القرآن : إن هـذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمتنبىء . فقال : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ)
فجمع فى هذا بين من أضاف ما يفتريه إلى الله ، وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه ، فإن الذي يدعى الوحي لا يخرج عن هذين القسمين .

ويدخل في « القسم الثانى » من يُرِى عينيه فى المنام مالا تريا ،

ومن يقول : ألقى فى قلبي وألهمت ونحو ذلك إذا كان كاذباً .

ويدخل في « القسم الأول » من يقول : قال الله لي أو أمرنى الله أو وافقنى أو قال لي ونحو ذلك ؛ بخيالات أو إلهامات يجدها فى نفسه ولا يعلم أنها من عند الله ، بل قد يعلم أنها من الشيطان ، مثل مسيلمة الكذاب ونحوه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فهذه حال من زعم أن البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله ، أو أن هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه ، فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتى بمثله . وهذا يعم من قال إنه يمكن معارضة القرآن ، كابن أبى سرح في حال ردته ، وطائفة متفرقين من الناس ، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين ؛ ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله ، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله فى دعوى الرسل ؛ لأن القائل سأنزل مثل ما أنزل الله قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً ؛ وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئا .

فصل

ولهذا كان أول من أظهر إنكار التكليم والمخالة « الجعد بن درهم » فى أوائل المائة الثانية ، وأمر علماء الإسلام ــ كالحسن البصري وغيره ــ

بقتله ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق بواسط . فقال أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ! تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً . ثم نزل فذبحه . وأخذ ذلك عنه « الجهم بن صفوان » فأنكر أن يكون الله يتكلم ، ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الكلام ، وقال : كلامه يخلق في محل كالهواء وورق الشجر .

ودخل بعض أهل الكلام والجدل من المنتسبين إلى الإسلام من المعتزلة ونحوهم إلى بعض مقالة الصابئة والمشركين ، متابعة للجعد والجهم . وكان مبدأ ذلك أن الصابئة فى « الخلق » على قولين : منهم من يقول إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن ، كما أخبرت بذلك الرسل ، وكتب الله تعالى ، ومنهم من ابتدع فقال : بل هي قديمة أزلية ، لم تزل موجودة بوجود الأول ، واجب الوجود بنفسه ، ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية ، ولهم مقالات كثيرة الاضطراب فى الخلق والبعث ، والمبدأ والمعاد ؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعالى فيجمعهم ، والظنون لا تجمع الناس فى مثل هذه الأمور التى تعجز الآراء عن إدراك حقائقها إلا بوحي من الله تعالى .

وهم إنما يناظر بعضهم بعضاً بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية ، وقوى الطبائع الموجودة فى التراب والماء ، والهواء

والحيوان ، والمعدن والنبات ، ويريدون بهذه المقدمات السفلية أن ينالوا معرفة الله وعلم مافوق السموات ، وأول الأمر وآخره ؛ وهذا غلط بين اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن ، وأنهم لاسبيل لهم إلى إدراك اليقين ، وأنهم إن يتبعون إلا الظن .

فلما كان هذا حال هذه الصابئة المبتدعة الضالة ، ومن أضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهد بهدى الله ، الذي بعث به رسله ، من أهل الكلام والجدل ، صاروا يريدون أن يأخذوا مأخذهم ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع » قالوا يا رسول الله ! فارس والروم ؟ ! قال : « ومن الناس إلا فارس والروم ؟ ! » فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصابئة ، وهو الكلام فى الأجسام والأعراض ، بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها ، ثم يقال : مالا يسبق الحوادث فهو حادث ، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في إثبات حدوث العالم ، فلما رأوا أن الأعراض — التي هي الصفات — تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله ؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم — الذي اعتقدوا أن لا دليل سواه ، بل ربما اعتقدوا أنه لا يصح إيمان أحد إلا به — معلوم بالاضطرار من دين الإسلام .

وهؤلاء يخالفون « الصابئة الفلاسفة » الذين يقولون بقدم العالم ، وبأن النبوة كمال تفيض على نفس النبي ؛ لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقا ، وأتبع للأدلة العقلية والسمعية لما تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن ، وإن كانوا قد ضلوا فى كثير مما جاءت به الرسل ؛ لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها [أهل السنة] فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم ، كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات ، ورأوا أن إثباته متكلما يقتضي أن يكون جسما ، والجسم حادث ؛ لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف، بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره ؛ بل الله يفتقر من الخارج إلى مالا يفتقر إليه غيره ؛ ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس فى غيره ؛ ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم والقرآن مملوء بإثبات ذلك صاروا تارة يقولون متكلم مجازاً لا حقيقة ، وهذا قولهم الأول لما كانوا فى بدعتهم على الفطرة ، قبل أن يدخلوا فى المعاندة والجحود .

ثم إنهم رأوا أن هذا شنيعاً ، فقالوا بل هو متكلم حقيقة ، وربما حكى بعض متكلميهم الإجماع وليس عندهم كذلك ، بل حقيقة قولهم وأصله عند من عرفه وابتدعه أن الله ليس بمتكلم ، وقالوا المتكلم من فعل الكلام ولو فى محل منفصل عنه ؛ ففسروا المتكلم فى اللغة

بمعنى لا يعرف فى لغة العرب ولا غيرهم ؛ لا حقيقة ولا مجازاً ؛ وهذا قول من يقول إن القرآن مخلوق ، وهو أحد قولي الصابئة الذين يوافقون الرسل فى حدوث العالم ، وهو وإن كان كفراً بما جاءت به الرسل فليس هو فى الكفر مثل القول الأول ؛ لأن هؤلاء لا يقولون إن الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً ، وأن ينزل عليه هذا الكلام الذي خلقه ، وأنكروا أن يكون متكلما على الوجه الذي دلت عليه الكتب الإلهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة .

ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة وبين المؤمنين أتباع الرسل الخلاف ، فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم ، واختلفوا في كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

واتبع المؤمنون ما أنزل إليهم من ربهم من أن الله تكلم بالقرآن ، وأنه كلم موسى تكليما ، وأنه يتكلم ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون ؛ بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الإيمان الذي علموا به مراد الرسل من إخبارهم برسالة الله وكلامه ، واتبعوا هذا القرآن والحديث وإجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر أتباع الأنبياء ، وعلموا أن قول هؤلاء أخبث من قول اليهود والنصارى ، حتى كان ابن المبارك — إمام المسلمين — يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية .

وكان قد كثر ظهور هؤلاء الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين ، ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوائل المائة الثانية ، وأوائل الثالثة فى إمارة أبى العباس الملقب « بالمأمون » ، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين ؛ الذين كانوا قبل النصارى ، ومن أشبههم من فارس والهند ، وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم .

وقد تقدم أن أهل الكلام المبتدع فى الإسلام هم من فروع الصابئين ، كما يقال : المعتزلة مخانيث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام ، وفى أهل السيف والإمارة ، وصار فى أهلها من الخلفاء والأمراء ، والوزراء والقضاة ، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الذين اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ، ولم يبدلوا ولم يبتدعوا ، وذلك لقصور وتفريط من أكثرهم فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول وأتباعه ، وإلا فلو كان ذلك كثيراً فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الإسلام من التمكن منهم .

فصل

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية الذين نصروا أن الله له علم وقدرة وبصر وحياة ، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية ، وفرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها أعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها أعراضاً ؛ لأن العرض مالا يدوم ولا يبقى ، أو ما يقوم بمتحيز أو

جسم . فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام .

وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة فى كثير من أمورهم ، وأثبتوا الصفات التى قد يستدل بالقياس العقلي عليها ، كالصفات السبع وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . ولهم نزاع فى السمع والبصر والكلام ، هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية ، ولهم اختلاف فى البقاء والقدم ، وفى الإدراك الذي هو إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات ، ولهم أيضا اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخبرية كالوجه واليد ، فأكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها وكثير من متأخريهم لا يثبتها ، وأما ما لا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعارضها من القياس العقلي عنده ، ومنهم من يفوض معناها — وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات .

وإنما المقصود القول في « رسالة الله ، وكلامه » الذي بلغته رسله فكان هؤلاء بينهم وبين أهل الوراثة النبوية قدر مشترك بما سلكوه من الطرق الصابئة فى أمر الخالق ، وأسمائه وصفاته ؛ فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثتين ، لبسوا حق ورثة الأنبياء بباطل ورثة أتباع الصابئة ، كما كان فى مذهب أهل الكلام المحض المبتدع كالمعتزلة تركيب ، وليس بين الأثارة النبوية وبين الأثارة الصابئة ؛

لكن أولئك أشد اتباعا للأثارة النبوية ، وأقرب إلى مذهب أهل السنــة من المعتزلة ، ونحوهم من وجوه كثيرة .

ولهذا وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه ، والحديث والتصوف ؛ لوجوه :

« أحدهــا » كثرة الحــق الذي يقولونــه ، وظهور الأثــارة النبوية عندهم .

« الثاني » لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة ، وبعضها مما ابتدع فى الإسلام ، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم ، وظنهم أنه لم يمكن التمسك بالأثــارة النبوية من أهل العقل والعلم ، إلا على هذا الوجه .

« الثالث » ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات ، والموضحة لسبيل الهدى عندهم .

« الرابع » العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث : تارة يروون ما لا يعلمــون صحتــه ، وتارة يــكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور .

فلما كان هذا « منهاجهم » وقالوا : إن القرآن غير مخلوق لما دل على ذلك من النصوص وإجماع السلف ، ولما رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرروه في الصفات ، ورأوا أن التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلي لا يستقيم إلا أن يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى — كسائر الصفات ، كما جعله الأولون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديماً كسائر الصفات — ورأوا أنه ليس إلا مخلوقا أو قديما ، فإن إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضي حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ومبطل لدلالة حدوث العالم .

ثم رأوا أنه لا يجوز أن يكون معاني كثيرة ؛ بل إما معنى واحد عند طائفة ، أو معان أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام ؛ بل دالة عليه فتسمى باسمه ؛ إما مجازا عند طائفة ، أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة ، وإما مجازا في كلام الله حقيقة في غيره عند طائفة .

وخالفهم الأولون وبعض من يتسنن أيضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والأصوات ، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه ، أو الإرادة ونوعها ، فصار النزاع بين الطائفتين .

وأورد على هؤلاء أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام إضافية ليست أنواعاً له وأقساماً ، وأن كلام الله معنى واحد : إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن ، وبالعبرية فهو توراة ، وبالسريانية فهو إنجيل . وقال لهم أكثر الناس هذا معلوم الفساد بالضرورة ، كما قال الأولون إنه خلق الكلام فى الهواء فصار متكلماً به ، وإن المتكلم من أحدث الكلام ولو فى ذات غير ذاته ؛ وقال لهم أكثر الناس : إن هذا معلوم الفساد بالضرورة .

وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً ، كما أن الإنسان المتكلم اسم للروح والجسم جميعاً ، وأنه إذا أطلق على أحدهما فبقرينة ، وأن معانى الكلام متنوعة ليست منحصرة فى العلم والإرادة ، كتنوع ألفاظه . وإن كانت المعانى أقرب إلى الاتحاد والاجتماع ، والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرق .

والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة ، وإن لم يكن عندهم الذي هو كلام الله مخلوقاً ، وفرقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق ، وكلام الله هو معناها غير مخلوق . وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذي قال الأولون إنه مخلوق ، واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت في الهواء ؟ أو فى نفس جبرائيل ؟ أو أن جبرائيل هو الذي أحدثها أو محمد ؟

وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل، وما جاء عنهم من الكتب والأثارة من العلم، وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً، لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين، وهو أن القرآن كلام الله، لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، والقرآن هو القرآن — الذي يعلم المسلمون أنه القرآن — حروفه ومعانيه، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً.

ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف: الحنفية والمالكية، والشافعية والحنبلية — إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة، والفقهاء — إذا تكلموا فى الأمر والنهي ذكروا ذلك، وخالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد، ويعلم أهل الأثارة النبوية — أهل السنة والحديث، عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة — أن قوله تعالى: (الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ) ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره، وكلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه فى غيره، ولم يتكلم به.

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه(١)

عن رجلين تجادلا فى « الأحرف التى أنزلها الله على آدم » فقال أحدهما إنها قديمة ليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث . فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها ، والقديم هو الله ، وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، منزل غير مخلوق ، ولكنه كُتِبَ بها . وسألا أيهما أصوب قولاً وأصح اعتقاداً ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أصل هذه المسألة هو معرفة « كلام الله تعالى » . ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك

---

(١) تسمى : « مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم » .

مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، فكلامه قائم بذاته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، ولا قال أحد منهم إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً ، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرتـه ، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء .

وكلمات الله لا نهاية لها ، كما قال تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا) ، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربى ، وبالتوراة العبريـة .

فالقرآن العربى كلام الله ، كما قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) إلى قوله : (لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل — وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك فى موضع آخر — من الله بالحق ، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال : (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ) كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي ، فقال تعالى : (لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ) أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي (وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) .

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التى هي لسان عربى مبين ، نزلها روح القدس من الله بالحق ، كما قال فى الآيــة الأخرى : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ) والكتـاب الذي أنزل مفصلا هــو القرآن العربى باتفاق النـاس ، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، والعـلم لا يكون إلا حقاً فقال : (يَعْلَمُونَ) ولم يقل يقولون ، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهد به .

وقد فرق سبحـانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى فى قوله تعالى : (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ) إلى قوله : (حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) فرق سبحـانه بين تكليمه لموسى وبــين إيحائه لغيره ، ووكد تكليمه لموسى بالمصــدر ، وقال تعـالى : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) إلى قوله : (رُوحِ ٱلْقُدُسِ) وقال تعـالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا) إلى آخر السورة . فقد بين سبحـانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة : إما وحياً ، وإما مــن وراء حجــاب ، وإما أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ؛ فجعل الوحي غير التكليم ، والتكليم من وراء حجــاب كان لموسى .

وقد أخبر فى غير موضع أنه ناداه كما قال : (وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ) الآية . وقال : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ) الآية . و « النداء » باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعا ، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم . وأهل الكتاب يقولون : إن موسى ناداه ربه نداء سمعه بأذنه ، وناداه بصوت سمعه موسى ، والصوت لا يكون إلا كلاما ، والكلام لا يكون إلا حروفا منظومة ، وقد قال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ) وقال : (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) وقال : (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ) فقد بين فى غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل من الله .

وهذا معنى قول السلف : منه بدأ ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله : منه بدأ أي هو المتكلم به ، فإن الذين قالوا إنه مخلوق قالوا خلقه فى غيره فبدا من ذلك المخلوق ، فقال السلف : منه بدأ ، أي هو المتكلم به لم يخلقه فى غيره فيكون كلاما لذلك المحل الذي خلقه فيه ، فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات فى محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين ، فإذا خلق طعما أو لوناً فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به ، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً فى محل كان ذلك المحل هو المريد ،

القادر ، العالم ، المتكلم بذلك الكلام ، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق فى ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات ، لا بما يخلقه فى غيره من المخلوقات ، فهو الحي ، العليم ، القدير ، السميع ، البصير ، الرحيم ، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه فى غيره من هذه المعانى .

ومن جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ) وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا ؛ بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين .

وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل : إن فلاناً يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال إن الحروف مخلوقة ؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقا لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقا ، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة ، مخالف للأدلة العقلية والسمعية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والناس قد تنازعوا فى كلام الله نزاعا كثيراً ؛ والطوائف الكبـار نحو ست فرق ، فأبعدهـا عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفـة والصابئة إن كلام الله إنمـا هو ما يفيض على النفوس : إما من العقل الفعال ، وإما من غيره ، وهؤلاء يقولون : إنما كلم الله موسى من سماء عقله أي بكلام حدث فى نفسه لم يسمعه من خارج .

وأصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزليـة ، وأن الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته فى ستة أيام كما أخبرت به الأنبيـاء ، بل يقولون : إن الله لا يعلم الجزئيات ، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويـلات يحرفون فيهـا الكلم عـن مواضعه ، ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة ، فقـالوا مثل ذلك . وهؤلاء أكفر من اليهود والنصـارى ، وهم كثيروا التنـاقض ، كقولهم إن الصفة هي الموصوف ، وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون : هو عقـل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشـق ومعشوق وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بأنه حي عالم معلوم ، محـب محبوب ، ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة . ونفس العلم هو نفس العالم ، ونفس المحبة هي نفس المحبوب .

ويقولون إنه علة تامة في الأزل ؛ فيجب أن يقارنها معلولها فى

الأزل فى الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلة لا بالزمان . ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان فى الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة ، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها فى الزمان . ثم يعترفون بأن حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ؛ بل حقيقة قولهم إن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم .

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، والحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً عنه ، كما قال تعالى : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه فى الزمان ، ولا متراخياً عن تكوينه ، كما يكون الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع ، ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخياً عنه ولا مقارناً له فى الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى ، فلزمهم أن

الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته ، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته . فافترقوا بعد ذلك ، منهم من قال : كلامه لا يكون إلا حادثاً ؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مراداً ، وما كان كذلك لا يكون إلا حادثاً ، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه ؛ لامتناع قيام الحوادث به ، وتسلسلها فى ظنهم .

ومنهم من قال : بل كلامه لا يكون إلا قائماً به ، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته ، بل لا يكون إلا قديم العين ؛ لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

ومنهم من قال : بل هو متكلم بمشيئته وقدرته ، لكنه يمتنع أن يكون متكلماً فى الأزل ، أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته ؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها ، وذلك ممتنع .

قالت « هذه الطوائف » : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم ؛ فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلو من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء من ظن أن هذه

قضية ضرورية ولم يتفطن لإجمالها . ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء . أما الأول فهو حادث بالضرورة ؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين ، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث .

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس ، فقيل إن ذلك ممتنع فى الماضي والمستقبل ، كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بفناء حركات أهلها وقيل : بل هو جائز فى المستقبل دون الماضي ؛ لأن الماضي دخل فى الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النظار . وقيل : بل هو جائز فى الماضي والمستقبل . وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن كلمات الله لا نهاية لها وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته . وهو أيضاً قول أئمة الفلاسفة .

لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك فى حركات الفلك ، ويقولون إنه قديم أزلي . وخالفوا فى ذلك جمهور الفلاسفة ، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ؛ بل هو خالق كل شيء ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وأن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات

الـكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فإنما عبد ذاته المتصفة بصفات الـكمال التى تستحقها ، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

ثم لما تكلم فى « النبوات » من اتبع أرسطو — كابن سينا وأمثاله — ورأوا ما جاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم ، وأنه كلم موسى تكليماً ، وأنه خالق كل شيء ، أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتي وزماني ، ونحن نقول إن الفلك محدث الحدوث الزماني ؛ بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله ، وقالوا إنه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والقديم الأزلي لا يكون فى أيام .

وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء ، وأنه خلق كذا إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق ، وأحدثه بعد أن لم يكن ، كما قال : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) والعقول الصريحة توافق ذلك ، وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل فى الزمان ولا يكون إلا بعده ، وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول .

وقالوا لهؤلاء قولكم : « إنه مؤثر تام في الأزل » لفظ مجمل يراد به التأثير العام فى كل شيء ، ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ويراد به التأثير فى شيء معين دون غيره ؛ فإن أردتم « الأول » لزم أن لا يحدث فى العالم حادث ، وهذا خلاف المشاهدة ، وإن أردتم « الثاني » لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقا حادثاً كائناً بعد أن لم يكن ، وكان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعالاً لما يشاء ، وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح . فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الأنبياء ، وإن أردتم « الثالث » فسد قولكم ؛ لأنه يستلزم أنه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الإحداث ، وهذا يناقض قولكم . فإن صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء ، وإن لم يصح هذا بطل ، فقولكم باطل على التقديرين .

وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره ، ولا يكون الأثر إلا مع المؤثر التام فى الزمن ؛ وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء ، ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر ، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر ، وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه .

وأيضاً فكونه فاعلا لمفعول معين مقارن له أزلا وأبداً باطل فى صريح العقل ، وأيضا فأنتم وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن الذي لا يكون [إلا] ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب ، والضروري الممتنع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى ، وأن القديم الأزلي لايكون إلا ضروريا واجباً يمتنع عدمه . وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا ، وذكره فى كتبه المشهورة « كالشفا » وغيره . ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وزعم أن الواجب بغيره القديم الأزلي الذي يمتنع عدمه يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وزعم أن له ماهية غير وجوده . وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه فى غير هذا الموضع .

و « القول الثاني » للناس فى كلام الله تعالى قول من يقول : إن الله لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا إرادة ولا رحمة ، ولا غضب ولا غير ذلك ، بل خلق كلاماً فى غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول أيضاً مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم ؛ وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ؛ بل لهم شبه عقلية فاسدة ، قد بينا فسادها فى غير هذا

الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج ، وهم لا للإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا .

و « القول الثالث » قول من يقول : إنه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وأبداً ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم فى أصل قولهم ، لكن قالوا الرب تقوم به الصفات ، ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية .

وأول من اشتهر عنه أنه قال هذا القول فى الإسلام « عبد الله ابن سعيد بن كلاب » ثم افترق موافقوه ، فمنهم من قال : ذلك الكلام معنى واحد هو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل محظور ، والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة . وقالوا معنى القرآن والتوراة والإنجيل واحد ، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالوا : الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواع له . ومن محققيهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر ، والخبر يعود إلى العلم .

وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة . وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس إلا خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقيل لهم : أفهم كل الكلام أم بعضه ؟ إن كان فهمه كله

فقد علم علم الله ، وإن كان فهم بعضه فقد تبعض ، وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد .

وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره . وعلى أصلكم لا فرق .

وقيل لهم : قد كفر الله من جعل القرآن العربى قول البشر ، وقد جعله تارة قول رسول من البشر ، وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال فى موضع: (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى الآية الأخرى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) فهذا جبريل ، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي ، وتارة إلى الرسول البشري . والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس .

وكان بعض هؤلاء ادعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد فقيل لهم : لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر . وهو سبحانه أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي فدل ذلك على أنه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه ، بل قد كفر من قال إنه قول البشر .

والطائفة الأخرى التي وافقت ابن كلاب على أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف ، أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، ولا يتكلم بها شيئاً بعد شيء . ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام ، وبين عين حروف قديمة أزلية ، وهذا أيضاً مما يقول جمهور العقلاء أنه معلوم الفساد بالضرورة ؛ فإن الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون كل منها قديماً أزلياً ، وإن كان جنسها قديماً ؛ لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها ، وحروف متعاقبة لا نهاية لها ، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً ، فإن المسبوق بغيره لا يكون أزلياً .

وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب فى ماهيتها لا فى وجودها ، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فإن ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شيء ، والصوت لا يكون إلا شيئاً بعد شيء ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدماً عليها به ، مع أن الفرق بينها بين لو قدر الفرق بينهما . ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً .

ثم من هؤلاء من يزعم أن ذلك القديم هو ما يسمع من العباد من الأصوات بالقرآن والتوراة والإنجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر

فساداً مما قبله ، فإنه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

و « طائفة خامسة » قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره ؛ لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته فى الأزل لامتناع حوادث لا أول لها ، وهؤلاء جعلوا الرب فى الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ، ولا على الفعل كما فعله أولئك ثم جعلوا الفعل والكلام ممكنا مقدوراً من غير تجدد شيء أوجب القدرة والإمكان ، كما قال أولئك فى المفعولات المنفصلة .

وأما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلما إذا شاء ، وأن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة ، والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلما عالماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة . وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً ، فكيف إذا كان ممتنعاً ؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ؛ ومن أجلّها الكلام . فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن

العربي ، وما تكلم الله به فهو قائم بــه ليس مخلوقاً منفصلا عنــه ، فلا تـكون الحروف التى هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ، لأن الله تكلم بها .

فصــــــل

ثم تنازع بعض المتأخرين فى الحروف الموجودة فى كلام الآدميين . وسبب نزاعهم أمران :

« أحدهما » أنهم لم يفرقوا بين الـكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه ، وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلــغ ، فإن القرآن كلام الله ، تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ؛ فإذا قرأه القراء قرأوه بأصوات أنفسهم .فإذا قال القارىء: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ، فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارىء ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتــكم » وكان يقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبــلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا قــد منعونى أن أبلــغ كلام ربى » وكلا الحديثين ثابت ، فبين أن الكلام الذى يبلغه كلام ربــه ، وبــين أن القارىء

يقرؤه بصوت نفسه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت . قال أحمد ابن حنبل : يحسنه بصوته ، فبين أحمد أن القارىء يحسن القرآن بصوت نفسه .

و « السبب الثاني » أن السلف قالوا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء . فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل ، ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ، ولا قال أحد منهم القرآن قديم ؛ بل قالوا : إنه كلام الله منزل غير مخلوق ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزلا منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديما بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض .

فمن قال إن حروف المعجم كلها مخلوقة وإن كلام الله تعالى [مخلوق فقد قال قولا] مخالفاً للمعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، ومن قال نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئاً من ذلك قديم فقد خالف أيضا أقوال السلف ، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين ، ولا قالته طائفة كبيرة من

طوائف المسلمين ، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين ، فقد ابتدع قولا باطلا فى الشرع والعقل .

ومن قال : إن جنس الحروف التى تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة ، وإن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقا ، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

وإذا قال إن الله هدى عباده وعلمهم البيان ، فأنطقهم بها باللغات المختلفة ، وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التى هي مبانى كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب ، فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق، والعباد إذا قرؤوا كلامه فإن كلامه الذي يقرؤونه هو كلامه لا كلام غيره، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقا ، وكان ما يقرؤون به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقا ، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوبا فى المصاحف وكلامه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق .

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى:
(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)
وكلمات الله غير مخلوقة ، والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق ، والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق ، وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره ، قال تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)
وقال : (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ)
وقال تعالى : (يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)
وقال : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) .

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا فى « الأحرف التى أنزلها الله على آدم » فقال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله ، وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها ، وإن القديم هو الله ، وكلامه منه بدأ وإليه يعود منزل غير مخلوق ، ولكنه كتب بها . وسؤالهما أن نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً ، يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان مافى السؤال من الكلام المجمل ،

فإن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهــم لايتصورون مورد النزاع تصوراً بينا ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه فى قول آخر غير القولين الذين قالاهما ، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع .

فأول مافى هذا السؤال قولها : الأحرف التى أنزلها الله على آدم ، فإنه قد ذكر بعضهم أن الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقــة مكتوبة ، وهذا ذكره ابن قتيبة فى المعارف ، وهو ومثله يوجــد فى التواريــخ كتاريــخ ابن جرير الطبري ونحوه ، وهذا ونحوه منقول عمن ينقــل الأحاديث الإسرائيليــة ونحوهــا من أحاديث الأنبياء المتقدمــين ، مثل وهب بن منبــه وكعب الأحبــار ، ومالك بن دينــار ، ومحمــد بن إسحاق وغيرهم .

وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبيــاء المتقدمين لايجوز أن يجعل عمدة فى دين المسلمين إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ، أو أن يكون منقولا عن خاتم المرسلين ، وأيضا فهذا النقل قــد عارضه نقل آخر وهو : « إن أول من خط وخاط إدريس » . فهذا منقول عن بعض السلف وهو مثل ذلك وأقوى ، فقد ذكروا فيه أن إدريس أول من خاط الثياب وخط بالقلم : وعلى هذا فبنوا آدم من قبل إدريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤون كتباً .والذي فى حديث أبي ذر المعروف عن أبى ذر عن

النبي صلى الله عليه وسلم : « إن آدم كان نبياً مكلما كلمه الله قبلا » وليس فيه أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً ، فليس فيه أن الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتابا ، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب ، فهذا يدل على أن هذا لا أصل له ، ولو كان هذا معروفا عند أهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو فى القرآن ، ولا فى الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التى لا يجب الإيمان بها ؛ بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ؛ فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » .

والله سبحانه علم آدم الأسماء كلها ، وأنطقه بالكلام المنظوم . وأما تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدىء بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء ، ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض ، فيعلم أبجد هوز ، وليس هذا وحده كلاماً .

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ، ولم يدل عليه عقل ؛ بل الأظهر فى كليهما نفيه ، وهو من جنس ما يروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير ا ، ب ، ت ، ث ، وتفسير أبجد

هوز ، حطي ، ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب ، وهـذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه ، وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين فى هذا الباب ، كالشريف المزيدي ، والشيخ أبي الفرج ، وابنه عبد الوهاب وغيرهم . وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه فى شيء من الدين .

وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحرانى وغيره[1] فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وقد بين في تفسيره أن كل ما نقل فى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو باطل . فذكر فى آخر تفسيره اختلاف الناس فى تفسير أبجد ، هوز ، حطي ، وذكر حديثاً رواه من طريق محمد بن زياد الجزري ، عن فرات بن أبي الفرات ، عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا أباجاد وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد » قال : قالوا يارسول الله وما تفسيرها ؟ قال ؟ « أما الألف فآلاء الله وحرف من أسمائه . وأما الباء فبهاء الله ، وأما الجيم فجلال الله ، وأما الدال فدين

(١) فى هذا التركيب نظر . والمعنى : أن هذا إن كان النقاش والمزيدى وأبو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرح ببطلانه وهو أجل منهم .

الله ، وأما الهاء فالهاوية ، وأما الواو فويل لمن سها ، وأما الزاي فالزاوية وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار » وذكر تمام الحديث من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقـد حدثني الفرات ابن السائب عن ميمون بن مهران عـن ابن عباس قال : « ليس شيء إلا وله سبب ، وليس كل أحـد يفطن له ولا بلغـه ذلك ، أن لأبي جاد حديثاً عجيباً ، أما « أبو جاد » فأبى آدم الطاعة وجد فى أكل الشجرة ، وأما « هوز » فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما « حطي » فحطت عنه خطيئته ، وأما « كلمن » فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة » وساق تمام الحديث من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثالثا من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبى مليـكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عـن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « إن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الـكتاب ليعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله ، فقال له عيسى ، وما بسم الله ؟ فقال له المعلم وما أدري . فقال له عيسى البـاء بهاء الله ، والسين سناؤه ، والميم ملـكه ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة . أبو جاد : ألف آلاء الله ، وباء بهاء الله ، وجيم جمال الله ، ودال الله الدائم ، وهوز هاء الهاوية » وذكر حديثا

من هذا الجنس ، وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه . وروى أبو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تفسير : ا ، ب ، ت ، ث من هذا الجنس .

ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التى رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها إلى غيرها ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها ؛ وذلك أن محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله ، وإن عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه فى رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل ، وإن إسماعيل بن يحيى الذي حدث عن ابن أبى مليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره .

قلت : إسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب ، ورواية إسماعيل بن عياش فى غير الشاميين لا يحتج بها ، بل هو ضعيف فيما ينقله من أهل الحجاز وأهل العراق ، بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين ؛ فإنه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط فى حديث أولئك وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبد الرحمن بن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضاً

لا يحتج به فهو فرات بن أبى الفرات ، ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً .

وقد تنازع الناس فى أبجد ، هوز ، حطي ، فقال طائفة هي أسماء قوم ، قيل أسماء ملوك مدين ، أو أسماء قوم كانوا ملوكا جبابرة . وقيل : هي أسماء الستة الأيام التى خلق الله فيها الدنيا . والأول اختيار الطبري . وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبى عاد ، وهواز مثل رواد وجواب . وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسميات ، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها : أبجد ، هوز ، حطي ، ليس لفظها أبو جاد ، هواز . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ، فيجعلون الألف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، إلى الياء ثم يقولون الكاف عشرون ... وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل على صورة الشكل ، والقياس لا يختص بمادة دون مادة .

كما جعل أهل التصريف لفظ « فعل » تقابل الحروف الأصلية ،

والزائدة ينطقون بهـا . ويقولون : وزن استخرج « استفعل » ، وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك ؛ لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل ، والزائد ؛ ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن نكتل فقال نفعل ، وضحك منه أهل التصريف . ووزنه عندهم نفتل فإن أصله نكتال ، وأصل نكتال : نكتيل . تحركت اليـاء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك فى نعتد ونقتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده . ونحو ذلك فى نقتيل ، فلما حذفوا الألف التى تسمى لام الـكلمة صار وزنها .

وجعلت « ثمانية » تكون متحركة : وهي الهمزة ، وتكون ساكنة وهي حرفان على الاصطلاح الأول ، وحرف واحد على الثاني ، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ، ولهذا ذكرت فى آخر حروف المعجم ، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء ، فجعلوا اللام قبلها فقالوا : « لا » والتى فى الأول هي الهمزة المتحركة ، فإن الهمزة فى أولها . وبعض الناس ينطق بها « لام ألف » والصواب أن ينطق بها « لا » وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق . وأما النقول الضعيفة لا سيما المـكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة ، والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتج بها .

(الثاني) أن يقال : هذه الحروف الموجودة فى القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف ، مثل قوله : (الٓمٓ وقوله الٓمٓصٓ وقوله الٓمٓ - طسٓ — حمٓ — كٓهيعٓصٓ — حمٓ عٓسٓقٓ — نٓ — قٓ) فهذا كله كلام الله غير مخلوق .

(الثالث) أن هذه الحروف إذا وجدت فى كلام العباد ، وكذلك الأسماء الموجودة في القرآن إذا وجدت فى كلام العباد مثل آدم ، ونوح ، ومحمد ، وابراهيم وغير ذلك ، فيقال : هذه الأسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها ؛ لكن لم يتكلم بها مفردة . فإن الاسم وحده ليس بكلام ؛ ولكن تكلم بها فى كلامه الذي أنزله فى مثل قوله (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) وقوله : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا) إلى قوله : (رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى) وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)
ونحو ذلك ، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الأسماء ، فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة ، كما قال أحمد بن حنبل لرجل : ألست مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : فالله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق .

فقد نص أحمد وغيره على أن كلام العباد مخلوق ، وهم إنما

يتكلمون بالأسماء والحروف التى يوجد نظيرها فى كلام الله تعالى ، لكن الله تعالى تكلم بهـا بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد ؛ فإن الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله ، والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذي سمعه منه موسى ليس كأصوات شيء من المخلوقات ، والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفـات المخلوقين ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عبـاده ، فان الله لا يماثل المخلوقين فى شيء من الصفات ، وهو سبحانه قـد علم العباد من علمه ما شاء ، كما قال تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) وهم إذا علمهم الله ما علمهم من علمه ، فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقا ، ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة ، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً ، فلا يقال : إن ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به ، وإن كان ما يتصف به العبد مخلوقا .

وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به ، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ؛ مثل الحيـاة والعلم والقـدرة ، والسمع والبصر والـكلام ، فإن الله له حيـاة وعلم وقدرة ، وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حيـاة وعلم وقـدرة ، وسمع وبصر وكلام ،

وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه .

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب . وتارة تعتبر مضافة إلى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد . فإذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك ، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، وإذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد ، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . وإذا قال العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق ، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق ، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق ، فالصفة تتبع الموصوف . فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة ، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة .

ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن فى نفسه كلام الله غير مخلوق ، وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة . ولو قال الجنب : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا ، ولو قاله ينوى به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئاً وجاز له ذلك .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الكلام بعد

القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه مسلم فى صحيحه . فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من القرآن ، فهي من القرآن باعتبار ، وليست من القرآن باعتبار ، ولو قال القائل : (يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ) ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء ، وإن قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا ؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص ، وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مراداً به ما أراده الله بقوله : (يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ) والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه .

وقد تنازع الناس فى مسمى « الكلام » فى الأصل ، فقيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى ، وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل : لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي ، وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الإطلاق ، وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب .

وهذا كما تنازع الناس فى مسمى « الإنسان » هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعاً ، وإن

كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة ، فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم فى مسمى الناطق . فمن سمى شخصاً محمداً وإبراهيم ، وقال : جاء محمد وجاء إبراهيم لم يكن هذا محمدا وإبراهيم المذكورين فى القرآن . ولو قال : محمــد رسول الله ، وإبراهيم خليل الله . يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لـكان قــد تكلم بمحمد وإبراهيم اللذين فى القرآن ، لكن قد تكلم بالاسم وألفه كلاما فهو كلامــه لم يتكلم به فى القرآن العربى الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك أن الفقهاء قالوا فى « آداب الخلاء » أنه لا يستصحب ما فيــه ذكر الله ، واحتجوا بالحديث الذي فى السنن « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه . وكان خاتمه مكتوبا عليه « محمد رسول الله » محمد سطر ، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء أن يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيــه أهل الديوان الحســاب ، ومثل الأوراق التى يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك .

وفى السيرة « أن النبي صلى الله عليــه وسلم لما صالح غطفــان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : أهذا شيء أمر الله به فسمعا وطاعة ، أم شيء تفعله لمصلحتنــا ؟ فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال : لقد كنا فى الجاهلية

وما كانوا يأكلون منها تمرة إلا بقرى أو بشراء ، فلما أعزنا الله بالإسلام يريدون أن يأكلوا تمرنا لا يأكلون تمرة واحدة ، وبصق سعد فى الصحيفة وقطعها » فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز إهانتها والبصاق فيها . وأيضاً فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو مافيه كلام الآدميين .

وأما قول القائل : إن الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة فإن أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعين فقد أخطأ ، فإن له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبوق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً .

وأيضا فلفظ الحروف مجمل ، يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التى هي مبانى الكلام ، ويراد بها الحروف المكتوبة ، ويراد بها الحروف المتخيلة فى النفس ، والصوت لا يكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع ، وقد يراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يراد بالحروف المداد ، وقد يراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التى تكلم الله بها غير مخلوقة ، وإذا كتبت فى المصحف قيل كلام الله المكتوب فى المصحف غير مخلوق ، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق ، فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله

الحروف التى تـكلم الله بها ، فإذا كتبت بالمـــداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المـكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الأمم .

والخط العربي قد قيل إن مبدأه كان من الأنبار ، ومنهـا انتقل إلى مكة وغيرها ، والخط العربي تختلف صورته : العربى القديم فيـــه تكوف ، وقد اصطلح المتأخرون على تغيير بعض صوره ، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى فى نقط الحروف وترتيبها ، وكلام الله المـكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربى هو فى نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التى يكتب بها .

فإن قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه فى كلام الخالق أو كلام المخلوق ؟ فإن قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق فى كلام العباد ، وإن قلتم مخلوق لزم أن يكون مخلوقا فى كلام الله ؟ قيل : قول القائـل الحرف من حيث هو هو كقوله الـــكلام من حيث هو هو ، والعلم من حيث هو هو ، والقـدرة من حيث هي هي ، والوجـود من حيث هو هو ، ونحو ذلك .

والجواب عن ذلك أن هـذه الأمور وغيرها إذا أخـذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة فى الخارج عن الأذهان

إلا شيء معين ، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق ، ووجود كل مخلوق مختص به وإن كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله ، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك ، وليس فى الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به ، واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف وليس فى الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ . وليس فى الخارج إلا الحروف التى تكلم الله بها الموجودة فى كلام الخالق ، والحروف الموجودة فى كلام المخلوقين . فإذا قيل : إن علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب ، وإذا قيل إن الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله : (الٓمٓ ــ وحمٓ ــ وطسٓمٓ ــ وطسٓ ــ ويسٓ ــ وقٓ ــ ونٓ) ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق ، وإذا كتب فى المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وإن كان المداد وشكله مخلوقا .

و « أيضا » فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون

كلام الله ؛ فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً أمراً يأمر به ، أو خبراً يخبره ، ليس هو كلام المبلغ له عن غيره ؛ إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين . وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشار إلى نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد يشار إليهما ، فالمشار إليه الأول غير مخلوق . والمشار إليه الثاني مخلوق ، والمشار إليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق . وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً .

وإذا قال القائل القاف فى قوله (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ) كالقاف فى قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قيل : ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين ، ولكن إذا بلغنا كلام الله فإنما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة ، والمخلوق يماثل المخلوق .

وفى هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة ، فإن الجهمية المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة

أشباه النصارى دخلوا فى هذا وهذا ، أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التى تختص بالمخلوق : كالفقر والبخل ، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التى لا تصلح إلا لله ، والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال ، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال ، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ؛ فإن المعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنماً ، والله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

ومما ينبغي أن يعرف أن كلام المتكلم فى نفسه واحد ، وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به ، فإذا أنشد المنشد قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك من روى حديث النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » كان هذا الكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ،

وإن كان صوت المبلـغ ليس هـو صوت الرسول ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القراء فإنما يقرؤونه بأصواتهم .

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون : من قال اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفي بعض الروايات عنه : مـن قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي ؛ لأن اللفظ يراد به مصـدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخـلوق ، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ ، وذلك كلام الله لا كلام القارىء ، فمن قال إنه مخلوق فقد قال إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله ، ومعلوم أن هـذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخـلوق ، وقد صرح أحمد وغـيره بأن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل أحمد قط : من قال إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، وإنما قال من قال لفظي بالقرآن ، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح ، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير ، ونفس اللفظ والتـلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات

العباد ، وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرؤه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه ، منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات ، الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق .

وقال أحمد : نقول القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف : أي حيث تلي وكتب وقرىء مما هو فى نفس الأمر كلام الله ، فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التى يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ، ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار ، فإنه معلوم أن القرآن واحد ويقرؤه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر فى نفسه بكثرة قراءة القراء ، وإنما يكثر ما يقرؤون به القرآن ، فما يكثر ويحدث فى العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به ، وسمعه جبريل من الله ، وسمعه محمد من جبريل ، وبلغه محمد إلى الناس ، وأنذر به الأمم ؛ لقوله تعالى : (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق .

وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان ، كالإنسانية الموجودة في زيد وعمرو ، ولا من باب ما يقول الإنسان مثل قول غيره كما قال تعالى : (كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ) فإن

القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، كما قال تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على أن يقرأه ويبلغه .

فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن ، وأما الحروف الموجودة فى القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره ، وإذا تكلم الله باسم من الأسماء : كآدم ونوح وإبراهيم ، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التى تكلم الله بها ، فإذا قرئت فى كلامه فقد بلغ كلامه ، فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاماً لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال : إن هذه الأسماء والحروف الموجودة فى كلام العباد غير مخلوقة ؛ فإن بعض من قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة فى كلام العباد ادعى أن المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات ، وقائل هذا يلزمه أن يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره فى القرآن كقوله : (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ) وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتاباً بحضرته .

(فإن قيل) يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القرآن ، وإن كان اللفظ نظير اللفظ ، (قيل) كذلك

سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها فى كلام العباد لا فى كلام الله . وقولنا يوجد نظيرها فى كلام الله تقريب أي يوجد فيما نقرؤه ونتلوه، فإن الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم فى القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك فى غير القرآن ، وكلا الصوتين مخلوق . وأما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين ، وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين . فإذا قلنا :(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم ، وأما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن نقصد قراءة كلام الله فإنما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا ، وننطق بلفظه بألسنتنا ، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وإن كان نظيره فى القرآن .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » فجعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن ، فجعل درجتها دون درجة القرآن ، وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن . ثم قال : « هي من القرآن » وكلا قوليه حق وصواب ؛ ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق .

وقال : لا إله إلا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يقال : إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ، ولا يقال فى التوراة والإنجيل إنهما مخلوقان ، ولا يقال فى الأحاديث الإلهية التى يرويها عن ربه إنها مخلوقة كقوله : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لا يكون قرآناً ، والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق .

فإذا فهم هذا فى مثل هذا فليفهم فى نظائره ، وإن ما يوجد من الحروف والأسماء فى كلام الله ويوجد فى غير كلام الله يجوز أن يقال: إنه من كلام الله باعتبار ، ويقال ليس من كلام الله باعتبار ، كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق ، وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو إثبات القدم بشيء من صفات العباد وأعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والإيمان به ، شاركهم فى هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد . مثال ذلك : أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا

هو المسمى بكلام الله ، أو يوجد نظيره فى المسمى بكلام الله ، فيكون كلام الله مخلوقا .

وقال الحلولي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق الذي نسمعه من القراء هو كلام الله ، وإنما نسمع أصوات العباد فأصوات العباد بالقرآن كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق فأصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة ، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ، ثم قالوا : الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه أو مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة ، كما زعم بعضهم أن الأعمال من الإيمان وهو غير مخلوق والأعمال غير مخلوقة . وزاد بعضهم أعمال الخير والشر ، وقال : هي القدر والشرع المشروع ، وقال عمر : ما مرادنا بالأعمال الحركات بل الثواب الذي يأتى يوم القيامة ، كما ورد فى الحديث الصحيح : « أنه تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان من طير صواف » فيقال له : وهذا الثواب مخلوق . وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق ، وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له : الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لانفس القرآن وثواب القرآن مخلوق ، إلى أمثال هذه الأقوال التى ابتدعها طوائف ، والبدع تنشأ شيئا فشيئاً ، وقد بسط الكلام فى هذا الباب فى مواضع أخر .

وقد بينا أن الصواب فى هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ، وهو ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الإسلام ومن وافق هؤلاء ، فإن قول الإمام أحمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ، ودل عليه الكتاب والسنة ، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية ، وطلب منهم تعطيل الصفات ، وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يرى فى الآخرة ونحو ذلك ، ثبت الله الإمام أحمد فى تلك المحنة ؛ فدفع حجج المعارضين النفاة ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة ، وإن السلف كانوا على الإثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ماصار به إماما للمتقين كما قال تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

ولهذا قيل فيه رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام فى بيانها ، وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره ، فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه .

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة فى هذه الأبواب فى غير هذا الموضع ، وبينا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول ، وأن العقل الصريح لايخالف

النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما فى هـذا وإما فى هذا ، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية ، وليس فى المعقول ما يخالف المنقول ؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل ، قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي « معرفته » بالتمييز بين صحيحه وسقيمه . « والفقه فيه » معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعية أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال علي بن المدينى وغيره من العلماء ، فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول [أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على مالم يدل عليه فإنما أتي من نفسه .

وكذلك « العقليات الصريحة » إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً ، لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول ، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده ، وصفاته وصدق رسله ، وبها يعرف إمكان المعاد . فى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله في كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتى به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها ، قال تعالى : (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) وقال : (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) وقال : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وأما الحجج الداحضة التى يحتج بها الملاحدة ، وحجج الجهمية معطلة الصفات ، وحجج الدهرية وأمثالها ، كما يوجد مثل ذلك فى كلام المتأخرين الذين يصنفون فى الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد ، مالا يحصيه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع أخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول ، وما كان عليه السلف ، ومعرفة المعقول الصريح ؛ فإن هذا هو الكتاب ، وهذا هو الميزان ، وقد قال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ)

وهذه المسألة لاتحتمل البسط على هذه الأمور ؛ إذ كان المقصود هنا التنبيه على أن هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ، فقال هؤلاء: صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة . ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله ، فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد : خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن ، ولا بشيء من الكتب الإلهية : لا التوراة ولا الإنجيل ولا غيرها ، وأنه لم

يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وأن ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائما بهم حالا فيهم بل يكون ظاهراً عنهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا فى « حروف المعجم » صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين ، فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم ، فأنكر ذلك عليهم الأكثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل ، فإن حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفاً خالف به شيخه القاضي أبا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي أن يعلم أن ما سطرته فى هذه المسألة أن ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وإمامنا القاضي أبي يعلى بن الفراء ، وإن كان قد نصر خلاف ماذكرته فى هذا الباب ، فهو العالم المقتدى به فى علمه ودينه ، فإنى ما رأيت أحسن سمتا منه ، ولا أكثر اجتهاداً منه ، ولا تشاغلا بالعلم ، مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم ، والقناعة في الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الأخلاق شيئا من نفر من الدنيا .

وذكر القاضي يعقوب فى مصنفه أن ما قاله قول أبي بكر أحمد بن المسيب الطبري ، وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان ، وأنه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبه قاضي حران يقول : هو مذهب العلوي الحراني ، وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا : كأبي محمد الكشفل وإسماعيل الكاوذرى [١] فى خلق من أتباعهم يقولون إنها قديمة ، قال القاضي أبو يعلى : وكذلك حكي لي عن طائفة بالشام أنها تذهب إلى ذلك منهم النابلسي وغيره ، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع فى آخر عمره إلى هذا . وذكروه عن الشريف أبي علي بن أبي موسى ، وتبعهم فى ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر أتباعه ، وأبو الحسن بن الزاغونى وأمثاله . وذكر القاضي يعقوب أن كلام أحمد يحتمل القولين .

وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له إن سريا السقطي قال : لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر . فقال أحمد هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله : كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق ، وبقوله لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . وبقول أحمد

---

(١) نسخة الكلوذاى.

لأحمد بن الحسن الترمذي : ألست مخلوقا ؟ قال بلى ، قال أليس كل شيء منك مخلوقا ؟ قال بلى ، قال فكلامك منك وهو مخلوق .

(قلت) الذي قاله أحمد فى هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا وليس فى كلامه تناقض ، وهو أنكره على من قال : إن الله خلق الحروف ؛ فإن من قال إن الحروف مخلوقة كان مضمون قوله : إن الله لم يتكلم بقرآن عربى ، وإن القرآن العربى مخلوق ، ونص أحمد أيضاً على أن كلام الآدميين مخلوق ، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق ، وكل هذا صحيح ، والسري رحمه الله إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد ، فكان مقصودهما بذلك أن الذي لا يعبد الله إلا بأمره ، هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله ، واستشهدا على ذلك بما بلغهما « أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر » وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجة فى شيء ، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة فى الخط ليست هي مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر .

وأحمد أنكر قول القائل إن الله لما خلق الحروف ، وروي عنه أنه قال : من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي ، لأنه سلك طريقا إلى البدعة ، ومن قال إن ذلك مخلوق فقد قال إن القرآن مخلوق . وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة أن الله لم يزل متكلما إذا

شاء ، وصرح أن الله يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الإسماع ؛ لأنه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته .

وصرح أحمد وغيره من السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولم يقل أحد من السلف إن الله تكلم بغير مشيئته وقدرته ، ولا قال أحد منهم إن نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين أنه قديم أزلي لم يزل ولا يزال ، وإن الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، فإن هذا لم يقله ولا دل عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح فى نقيض هذا ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء ، مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق ، وإنه منه بدأ ؛ ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة فى الكتب الثابتة عنهم ، مثل ما صنف أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة » وغيره ، وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه : كابنيه صالح وعبد الله ، وحنبل ، وأبي داود السجستاني صاحب « السنن » والأثرم ، والمروذي ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، والبخاري صاحب الصحيح ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وإبراهيم الحربي ، وعبد الوهاب الوراق ،

وعباس بن عبد العظيم العنبري ، وحرب بن إسماعيل الكرماني ، ومن لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين ، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخباره : كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر الخلال ، وأبي الحسن البناني الأصبهاني ، وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتم به وبأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع : كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع ، وأبي عبد الرحمن النسائي وأمثالهما ، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله ، وبسط هذا له موضع آخر .

وقد ذكرنا في « المسائل الطبرستانية » و « الكيلانية » بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل .

والمقصود هنا أن كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة ، فمنهم من يعظمهم ويقول إنه متبع لهم ، مع أنه مخالف لهم من حيث لا يشعر ، ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية ، وذلك لجهله بعلمهم ؛ بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ؛ فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون فى أصل فاسد ، ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها ، كما صرحوا فى تكلم الله تعالى بالقرآن العربى ، وبالتوراة العبرية ، وما فيها من حروف الهجاء مؤلفاً أو مفرداً لما رأوا أن ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين ، فلم يهتدوا لموضع

الجمع والفرق ، فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق .

وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق ، كما ذكر ابن عقيل في « كتاب الإرشاد » عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق ، فقال : شبهة اعترض بها عليّ بعض أئمتهم فقال : أقل مافي القرآن من أمارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا ، والقديم لا يشبه المحدث ومعلوم أنه لا يمكن دفع ذلك ؛ لأن قول القائل لغلامه يحيى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، يضاهي قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، وإذا اشتبها إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع أنه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهداً للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والأخبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن وأنتم إلى نفي التشبيه خوفا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا ، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه ، حتى إن بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما إن الكلام واحد والحروف غير مخلوقة ، فكيف يجوز أن يقال فى الشيء الواحد إنه قديم محدث .

قلت : وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الأصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره في مصنفه فقال : (دليل عاشر) وهو أن هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التى في كتاب الله تعالى وفى أسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم ؛ وكذلك هاهنا . قال : فإن قيل : لا نسلم أن تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها ، قيل : لا نسلم بل لها حرمة .

فإن قيل : لو كان لها حرمة لوجب أن تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها ، قيل : قد لا تمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لا تمنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة ، وإنما لم تمنع من قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها ، كما يقال فى الصبي يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه .

فإن قيل : فيجب إذا حلف بها حالف أن تنعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث ، قيل له : كما فى حروف القرآن مثله نقول هنا .

فإن قيل : أليس إذا وافقها فى هذه المعانى دل على أنها هي ، ألا ترى أنه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق صفتها صفة ما فى كتاب الله تعالى ، مثل قوله ، يا داود ! يا نوح ! يا يحيى ! وغير ذلك ؛ فإنه موافق لهذه الأسماء التى فى كتاب الله ، وإن

كانت فى كتاب الله قديمة وفى خطاب الآدمي محدثة ؟ .

قيل : كل ما كان موافقاً لكتاب الله من الكلام فى لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وإن قصد به خطاب آدمي .

فإن قيل : فيجب إذا أراد بهذه الأسماء آدمياً وهو فى الصلاة أن لا تبطل صلاته .

قيل له : كذلك نقول وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره ؛ إذ ناداه رجل من الخوارج : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) قال : فأجابه علي وهو فى الصلاة : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) . وعن ابن مسعود أنه استأذن عليه بعض أصحابه فقال : (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) .

قال : فإن قيل : أليس إذا قال : (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقا ؟ وإن نوى به القرآن يكون قديما ، قيل له : فى كلا الحالين يكون قديماً ؛ لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل ، والمحدث عبارة عما حدث بعد أن لم يكن ، والنية لا تجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً ، قال : ومن قال هذا فقد بالغ فى الجهل والخطأ .

وقال أيضاً : كل شيء يشبه بشيء ما فإنما يشبهه فى بعض الأشياء دون بعض ، ولا يشبهه من جميع أحواله ؛ لأنه إذا كان مثله فى جميع أحواله كان هو لا غيره ، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها اه .

(قلت) : هذا كلام القاضي يعقوب وأمثاله ، مع أنه أجل من تكلم فى هذه المسألة ، ولما كان جوابه مشتملا على ما يخالف النص والإجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به .

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا ، بأن قال : الاشتراك فى الحقيقة لا يدل على الاشتراك فى الحدوث ، كما أن كونه عالما هو تبينه للشيء على أصلكم ، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يتبينه الواحد منا ، وليس مماثلا لنا فى كوننا عالمين . وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى ، وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها ، فليس الاشتراك فى الحقيقة حاصلا ، والافتراق فى القدم والحدوث حاصل .

قال : « وجواب آخر » ، لا نقول إن الله يتكلم بكلامه على

الوجه الذي يتكلم به زيد ، بمعنى أنه يقول : يا يحيى ! فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة ، وترتب فى الوجود كذلك ، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يا يحيى خذ الكتاب يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث ، فأما أنه يشابه الكلام القائم بذاته فلا .

قال ابن عقيل : قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم ؛ فإن عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء . قيل : ليس معنى قولنا هي المتلو أنها هذه الأصوات المقطعة ، وإنما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة فى الأصوات المحدثة ، وظهورها فى المحدث لا بد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الأنفاس ، وإدارة اللهوات ؛ لأن الآلة التى تظهر عليها لاتحمل الكلام إلا على وجه التقطيع ، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع ، والابتداء ، والانتهاء ، والتكرار ، والبعدية ، والقبلية .

ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الأعراض وتقطع القديم ، وتقطع القديم عرض لايقوم بقديم ، ومن اعتقد أن كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالى من القطع والوصل ، والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه . ولهذا روي فى الخبر « أن موسى سأله بنو إسرائيل كيف سمعت كلام ربك ؟ قال كالرعد الذي لا يترجع » يعني ينقطع لعدم قطع الأنفاس وعدم الأنفاس ، والآلات والشفاه

واللهوات ، ومن قال غير ذلك وتوهم أن الله تكلم على لسان التالي ، أو الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل ، والتقريب والتبعيد : فقد حكم به محدثا ؛ لأن الدلالة على حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق ؛ ولأن هذه من صفات الأدوات اهـ .

(قلت) فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزيني ، فإن ذلك مخالف للنص والإجماع والعقل مخالفة ظاهرة ، فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أن من تكلم فى الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالما بالتحريم بطلت صلاته بالإجماع ، خلاف ماذكره القاضي يعقوب ، ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالإجماع ، وإن قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع ، وظاهر مذهب أحمد لاتبطل كمذهب الشافعي وغيره وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره .

وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم ؛ فإن قول علي بن أبي طالب : (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) هو كلام الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي : ولا يستخفنك الخوارج ؛ وإنما قصد أن يسمعه الآية ، وأنه عامل بها صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون ، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : (ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) . ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة . وابن مسعود إنما كان بالكوفة ؛ فعلم أنه قصد تلاوة الآية ، وقصد مع

ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول ؛ فإنهم سمعوا قوله ادخلوا . فعلموا أنه أذن لهم فى الدخول ، وإن كان هو تلا الآية فهذا هذا .

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما ، وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري وغيره ، وهو أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأنه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته ؛ لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم ؛ لأنها حادثة والله لا يقوم به حادث عندهم ؛ ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل ، كقوله تعالى : (وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) فإن هذا يقتضي أنه سيرى الأعمال فى المستقبل ، وكذلك قوله : (ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) وقوله : (وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ) وكذلك قوله : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) فإن هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول . وكذلك قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ) فإن هذا يقتضي أنه قال لهم بعد خلق آدم ، وكذلك قوله تعالى : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ) يقتضي أنه نودي لما أتاها ، لم يناد قبل ذلك ، وكذلك قوله : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) ومثل هذا فى القرآن كثير .

وهذا الأصل هو مما أنكره الإمام أحمد على ابن كلاب وأصحابه، حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية، وقال: احذروا من حارث، الآفة كلها من حارث، فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الإمام أحمد عنه، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل، وقد قيل إن الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتكلم بصوت، كما حكى عنه ذلك صاحب «التعرف لمذهب التصوف» أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي.

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل، كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع أخر.

واختلف كلام ابن عقيل فى هذا الأصل، فتارة يقول بقول ابن كلاب، وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث أن الله تقوم به الأمور الاختيارية، ويقول إنه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولاً أنه سيوجد، كما دل على ذلك عدة آيات فى القرآن، كقوله تعالى: (لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ) وغير ذلك. وكلامه فى هذا الأصل وغيره يختلف، تارة يقول بهذا، وتارة يقول بهذا، فإن هذه المواضع مواضع

مشكلة كثر فيها غلط الناس ؛ لما فيها من الاشتباه والالتباس .

والجواب الحق : أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين ، كما لا يماثل فى شيء من صفاته صفات المخلوقين ، وقول القائل : إن الاشتراك فى الحقيقة لا يدل على الاشتراك فى الحدوث لفظ مجمل ، فإنا إذا قلنا : لله علم ولنا علم ، أو له قدرة ولنا قدرة ، أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت ، وقلنا صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا فى الحقيقة ، — فان أريد بذلك أن حقيقتها واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وإن أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه فى الحقيقة ، وإنما اختلفتا فى الصفات العرضية ، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام — وقد بين فساد ذلك فى الكلام على « الأربعين » للرازي وغير ذلك — فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين .

وإن أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح ، كما أنه إذا قيل : إنه موجود أو إن له ذاتا فقد اشتركا فى مسمى الوجود والذات ، لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الأعيان ، فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الأجزاء فى الكل ، فإنه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته ، كقسمة الحيوان إلى

ناطق وغير ناطق ، وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر ، وقسمة الاسم إلى معرب ومبني ، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ففي الأول إنما اشتركت الأقسام فى أمر كلي فضلا عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين فى شيء موجود فى الخارج ، وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة ؛ لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق وإذا كان المخلوق مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة . فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ، ولقدرته حقيقة القدرة ، ولكلامه حقيقة الكلام ، كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ، ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه .

فهذا هو المراد بقولنا : علمه يشارك علم المخلوق فى الحقيقة ، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلا لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا فى نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به ، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه ، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من أصوات العباد .

ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التى لاتماثل صوت الرب ، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغا عنه لا مسموعا منه ، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا ، الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارىء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل ، قال الله تعالى :
(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال الإمام أحمد فى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال ، يزينه ويحسنه بصوته ، كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم »

فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة أنا نقرأ القرآن بأصواتنا والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسمعه محمد منه ، وبلغه محمد إلى الخلق ، والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض ، ومعلوم أنهم إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فبلغوه عنه ، كما قال : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التى تكلم بها ، وبلغوا لفظه بأصوات أنفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفظ ، واللفظ المبلغ هو لفظ الرسول وهو كلام الرسول ؛ فإن كان صوت

المبلــغ ليس صوت الرسول ، وليس ما قام بالرسول مــن الصفــات والأعراض فارقته وما قامت بغيره ؛ بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . وإذا كان هذا معقولا فى صفات المخلوقــين فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال ، وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذي بـين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بــين صفة مخــلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته فى المخــلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قــد بسطت في مواضع أخر .

هذا مع أن احتجاج الجهمية والمعتزلة بأن كلام المخــلوق بقوله : (يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ) مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ، فإن الذين يقولون هو مخلوق يقولون إنه خلقه فى بعض الأجسام ، أما الهواء أو غيره ، كما يقولون : إنــه خلق الـكلام فى نفس الشجرة فسمعه موسى .

ومعلوم أن تلك الحروف والأصوات التى خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد ، وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم ؛ كما أن أهل السنة يقولون الذي تــكلم هو الله بمشيئتــه ، وليس ذلك مماثــلاً لصوت العبد .

وأما القائلون بقدم الكلام المعين سواء كان معنى أو حروفا أو أصواتا ، فيقولون : خلق لموسى إدرا كا أدرك به ذلك القديم ، وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه [غير ما قام بنفس المتكلم المنشئ] فكيف [لا] يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ .

فيجب على الإنسان فى « مسألة الكلام » أن يتحرى أصلين : (أحدهما) تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه فى غيره ؟ (والثانى) تبليغ ذلك الكلام عن الله ، وأنه ليس مما يتصف به الثانى ، وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر .

وأيضا فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما : إنها قديمة ، وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث ، وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها ، قد يفهم من هذا أنهما أرادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة ، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس فى شكلها ونقطها ، فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لأنهم إنما كانوا يعتمدون فى القرآن على حفظه فى صدورهم لا على المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ فى الصدور ، ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة ، فإن المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التى تقبل التغير ، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه فى قلبه ، لم ينزله مكتوبا كالتوراة ،

وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب ، كما قال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً) الآية، وقال تعالى : (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ) الآية ، وقال تعالى : (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ) الآية ، وقال تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ) الآية .

وفى الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ) قال جمعه فى صدرك ثم تقرؤه : (فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ) قال : فاستمع له وأنصت (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) أي نبينه بلسانك . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ فلهذا لم تكن الصحابة ينقطون المصاحف ويشكلونها ، وأيضا كانوا عربا لا يلحنون ؛ فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط ، وكان فى اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : يعملون وتعملون . فلم يقيدوه بأحدهما ليمنعوه من الأخرى .

ثم إنه فى زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها ، وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ، ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء

أمامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك «شد» ، ويعملون المدة بقولك «مد» ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين ؛ لأن الهمزة أخت العين ، ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين ، وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان ألفاظ العدد وغير ذلك ، وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا ، فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل «أنا» وعلى شكل «ثنا» .

وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها ؟ على قولين معروفين وهما روايتان عن الإمام أحمد ، لكن لا نزاع بينهم أن المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط ، كما يجب احترام الحرف ، ولا تنازع بينهم أن مداد النقطة والشكل مخلوق ، كما أن مداد الحرف مخلوق ، ولا نزاع بينهم أن الشكل يدل على الإعراب ، والنقط يدل على الحروف ، وأن الإعراب من تمام الكلام العربي ،

ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب أن النقطة والشكلة بمجردها لا حكم لها ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما ، ولا ريب أن إعراب القرآن العربى من تمامه ، ويجب الاعتناء بإعرابه ، والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبين الشكل المكتوب للإعراب المنطوق .

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاما ظهر لهم الصواب ، وقلت الأهواء والعصبيات ، وعرفوا موارد النزاع ، فمن تبين له الحق فى شيء من ذلك اتبعه ، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله ، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وقول القائل الآخر كلامه كتب بها : يقتضي أنه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الٓمٓ حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بالحرف نفس المداد وشكل المداد ، وإنما أراد الحرف المنطوق. وفى مراده بالحرف قولان : قيل هذا اللفظ المفرد . وقيل أراد صلى الله عليه وسلم بالحرف الاسم ، كما قال : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف .

ولفظ « الحرف والكلمة » له فى لغة العرب التى كان النبي صلى

الله عليه وسلم يتكلم بها معنى ، وله فى اصطلاح النحاة معنى . فالكلمة فى لغتهم هي الجملة التامة ، الجملة الاسمية أو الفعلية ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة » وقال لأم المؤمنين « لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » ومنه قوله تعالى : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) وقوله : (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) وقوله تعالى : (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ) وقوله : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله : (وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » ونظائره كثيرة .

ولا يوجد قط فى الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا

والمراد به الجملة التامة . فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك ؛ بل يظنون أن اصطلاحهم فى مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب ، والفاضل منهم يقول :

وكلمة بها كلام قد يؤم

ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة فى الجملة التامة وتستعملها فى المفرد ، وهذا غلط لا يوجد قط فى كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة .

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على أن القديم هو مالا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم : وقد يستعمل القديم فى المتقدم على غيره ، سواء كان أزلياً أو لم يكن ، كما قال تعالى : (حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ) وقال : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) وقوله تعالى : (قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ) وقال : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ) وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحي ، ولا ريب أنه أولى بالقدم فى لغة العرب ؛ ولهذا كان لفظ المحدث فى لغة العرب بإزاء القديم ، قال تعالى : (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ) وهذا يقتضي أن الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم . وهذا موافق للغة العرب التى نزل بها القرآن ،

ونظير هذا لفظ « القضاء » فإنه فى كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك فى وقتها ، كما قال تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) وقوله : (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ) ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ « القضاء » مختصاً بفعلها في غير وقتها ، ولفظ « الأداء » مختصاً بما يفعل في الوقت ، وهذا التفريق لا يعرف قط فى كلام الرسول ، ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء فى الأداء ، فيجعلون اللغة التى نزل القرآن بها من النادر .

ولهذا يتنازعون فى مراد النبي صلى الله عليه وسلم : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا » وفى لفظ : « فأتموا » فيظنون أن بين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك ؛ بل قوله : « فاقضوا » كقوله : « فأتموا » لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت ؛ بل لا يوجد فى كلام الشارع أمر بالعبادة فى غير وقتها ، لكن الوقت وقتان : وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار : كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فإنما صليا فى الوقت الذي أمر الله به ، فإن هذا ليس وقتا فى حق غيرهما .

ومن أعظم أسباب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله أن ينشأ الرجل

على اصطلاح حادث ، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التى اعتادها .

وما ذكر فى مسمى « الكلام » ما ذكره سيبويه فى كتابه عن العرب ، فقال : واعلم « أن » فى كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما قولا ؛ وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة فى كلام العرب ، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعانى واسم حروف الهجاء ؛ ولهذا سأل الخليل أصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد ؟ فقالوا : زاى ، فقال نطقتم بالاسم ، وإنما الحرف ز ؛ فبين الخليل أن هذه التى تسمى حروف الهجاء هي أسماء .

وكثيراً ما يوجد فى كلام المتقدمين هذا « حرف من الغريب » يعبرون بذلك عن الاسم التام ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « فله بكل حرف » مثله بقوله : « ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . وعلى نهج ذلك : وذلك حرف ، والكتاب حرف ، ونحو ذلك . وقد قيل : إن ذلك أحرف والكتاب أحرف ، وروي ذلك مفسراً فى بعض الطرق .

والنحاة اصطلحوا اصطلاحا خاصاً ، فجعلوا لفظ « الكلمة » يراد

به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعانى ؛ لأن سيبويه قال فى أول كتابه : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . فجعل هذا حرفا خاصاً ، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب وقد عرف أنهم يسمون الاسم أو الفعل حرفا ، فقيد كلامه بأن قال : وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى أجزائه لا قسمة الكلي إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بأن القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة ، فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء ، كذلك الكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم إليها ، وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه ، كما يقال : الاسم ينقسم إلى معرب ومبنى .

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة فى هذا ولم يفهموا كلامهم ، فقالوا : كل جنس قسم إلى أنواعه أو أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص وإلا فليست أقساماً له ، وأرادوا بذلك الاعتراض على قول الزجاج : الكلام اسم وفعل وحرف . والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة ، وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة ، وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار والمال ، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات ــ التى لا توجد كليات

إلا فى الذهن ـــ كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم ، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني . فإن المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كلياً إلا فى الذهن .

فصــــل

ولفظ « الحرف » يراد به حروف المعانى التى هي قسيمة الأسماء والأفعال : مثل حروف الجر والجزم ، وحرفي التنفيس ، والحروف المشبهة للأفعال مثل « إنَّ وأخواتها » وهذه الحروف لها أقسام معروفة فى كتب العربية ، كما يقسمونها بحسب الإعراب إلى ما يختص بالأسماء وإلى ما يختص بالأفعال ، ويقولون : ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر وإن وأخواتها فى الأسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم فى الأفعال ؛ بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس : كالسين وسوف فإنهما لا يعملان لأنهما كالجزء من الكلمة ، ويقولون : كان القياس فى « ما » أنها لا تعمل لأنها تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله : (مَاهَٰذَابَشَرًا) (مَّاهُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ) .

ويقسمون « الحروف » باعتبار معانيهـا إلى حروف استفهـام ، وحروف نفي ، وحروف تحضيض وغير ذلك ، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائى ، وثلاثى ورباعى وخماسي. فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحـاة بالتخصيص ، والا فلفظ الحرف فى اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعـال ، وحروف الهجاء تسمى حروفاً وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور ، لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة .

وتقسم تقسيماً آخر إلى حروف حلقية وشفهيـة ، والمذكورة فى أوائل السور فى القرآن هي نصف الحروف ، واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه : على نصف الحلقية ، والشفهية ، والمطبقة ؛ والمصمتة ، وغير ذلك من أجناس الحروف .

فإن لفظ « الحرف » أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال : حروف الرغيف وحرف الجبل . قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ، ومنه قوله تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ) إلى قوله : (وَٱلْآخِرَةَ) فإن طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقراً ؛ فلهذا كان مـن عبد الله على السراء دون الضراء عابداً له عـلى حرف : تارة يظهره وتارة ينقلب

على وجهه ، كالواقف على حرف الجبل ، فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه ، إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ، ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ؛ ولهذا قال تعالى : (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ) فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حروفاً ، فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التى يكتبون بها كلامهم ، ويراد به المادة ، ويراد به مجموعها ، وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت بأسمائها ؛ إذ كان الإنسان يكتب اللفظ بقلمه ؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) إلى قوله : (مَا لَمْ يَعْلَمْ) فبين سبحانه في أول ما أنزله أنه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما قال موسى : (رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ) فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال : (خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ) . ثم ذكر أنه علم ؛ فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له « ثلاث مراتب » علم بالجنان ، وعبارة باللسان ، وخط

بالبنان ؛ ولهذا قيل : إن لـكل شيء أربع وجودات : وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي . وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، واللسان ، والبنان ؛ لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء ، وأما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي فى القلوب ، والعبارة عن ذلك هو اللسانى ، وكتابة ذلك هو الرسمي البنانى ، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ ، وذلك يستلزم تعليم العـلم فقال : (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، وأطلق التعليم ، ثم خص ، فقال : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

وقد تنازع الناس فى وجود كل شيء ، هل هو عين ماهيته أم لا ؟ وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هـذا الموضع ، وبين أن الصواب من ذلك أنه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان ، وبالماهية مايتصور فى الأذهان ، فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت في الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان ؛ لكن الله خلق الموجود الثابت فى الأعيان وعلم الماهيات المتصورة فى الأذهان ، كما أنزل بيان ذلك فى أول سورة أنزلها من القرآن ، وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما : ما هو متحقق فى الأعيان ، وما هو متحقق فى الأذهان ، فإذا أريد بهـذا وهذا ما هو متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان ، فليس هما في الأعيان اثنان ؛ بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة

هى المثـال الذي تصورها ، وذلك هو وجودهـا الذهني الذي تتصوره الأذهان ؛ فهذا فصل الخطاب في هذا الباب .

ومن تدبر هـذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختـلاف العقـلاء من جهة اشتراك الأسمـاء (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ) .

وقد بسط الـكلام على أصول هذه المسائل وتفاصيلها في مواضع أخرى ؛ فإن الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيـل : « مسألة الـكلام » حيرت عقول الأنام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فإنهما سألا بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه ، فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الألفاظ المجملة والمعانى المشتبهة ، تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والإثبات من غير تفصيل ، فلا بد له أن يقابله آخر بمثل إطلاقه .

ومن الأصول الـكلية أن يعلم أن الألفـاظ « نوعان » : نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمـن أن يقر بموجب ذلك ، فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذي أثبته الله ، أو نفـاه حق ؛ فإن الله يقول الحق وهـو يهـدي السبيل ، والألفاظ

الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني ، فإنه يجب علينـا أن نصدقـه فى كل ما أخبر، ونطيعه فى كل ما أوجب وأمر ، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان . وقد قال تعالى : (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ) .

وأما الألفاظ التى ليست فى الكتاب والسنة ولا اتفق السلف عـلى نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاهـا أوأثبتهـا حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عـبر بغيرها أو بين مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ؛ فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ، ومعان مشتبهـة ، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيهـا ، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون فى قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه ، وقد يكون الصواب في قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنفة فى « أصول علوم الدين » وغيرها تجد الرجل المصنف فيها فى « المسألة العظيمة » كمسألة القرآن والرؤية، والصفات والمعاد، وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس فى تلك الكتب ؛ بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به . وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة ، وهو مما نهيت الأمة عنه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ . قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتنازعون فى القدر ، وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه » . ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ، ويؤمنوا بمتشابهه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد كتبت فى أصول هـذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة ، ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز فى قعدة واحدة ، والله تعالى يهدينا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه . والحمد لله رب العالمين .

وقال رحمه الله

فصل

فى بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، قال الله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) .

فأمره أن يقول : (نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) فإن الضمير فى قوله (قُلْ نَزَّلَهُۥ) عائد على ما فى قوله : (بِمَا يُنَزِّلُ) والمراد به القرآن ، كما يدل عليه سياق الكلام وقوله : (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا يُنَزِّلُ) فيه إخبار الله بأنه أنزله ؛ لكن ليس فى هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به ، ولا أنه منزل منه .

ولفظ « الإنزال » فى القرآن قد يرد مقيداً بالإنزال منه : كنزول القرآن ، وقد يرد مقيداً بالإنزال من السماء ويراد به العلو ؛ فيتناول نزول المطر من السحاب ، ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك ، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الإنزال ؛ بل ربما يتناول الإنزال من رؤوس الجبال ، كقوله : (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل الماء وغير ذلك . فقوله : (نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ) بيان لنزول جبريل به من الله ، فإن روح القدس هنا هو جبريل ؛ بدليل قوله : (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو الروح الأمين كما في قوله : (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) وفي قوله (الْأَمِينُ) دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص منه ، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة ، كما قال فى صفته في الآية الأخرى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) .

وفى قوله : (مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ) دلالة على أمور :

« منها » بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم

من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ؛ فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال إن القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة جهمياً ؛ فإن « جهما » أول من ظهرت عنه بدعة نفى الأسماء والصفات ، وبالغ في نفي ذلك ، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه ، وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك .

فإن الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الإسلام ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر . وقال : يا أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه ؛ ولكن المعتزلة وإن وافقوا جهما في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك : كمسائل القدر والإيمان ، وبعض مسائل الصفات أيضاً ، ولا يبالغون في النفي مبالغته .

وجهم يقول : إن الله تعالى لا يتكلم . أو يقول : إنه يتكلم بطريق المجاز ، وأما « المعتزلة » فيقولون إنه يتكلم حقيقة ؛ لكن قولهم في المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفي الأسماء أيضاً ، كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء .

و (المقصود) أن قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ؛ ولهذا قال السلف : منه بدأ ، أي : هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره ، كما قالت الخلقية .

و « منها » أن قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال أو غيره ، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أعظم كفراً وضلالا من الذي قبله .

و « منها » أن هذه الآية ـــ أيضاً ـــ تبطل قول من يقول إن القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق : إما فى جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون إن القرآن العربى ليس هو كلام الله ، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم إما أن يكون خلق فى بعض الأجسام : الهواء أو غيره ، أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو ألهمه محمدا فعبر عنه بالقرآن العربى ، أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره : فهذه الأقوال التى تقدمت هي تفريع على هذا القول ، فإن هذا القرآن العربى لا بد له من متكلم تكلم به أولا قبل أن يصل إلينا .

وهـذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى إثبات خلق القرآن العربى ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين .

« أحدهما » أن أولئك يقولون إن المخلوق كلام الله ، وهؤلاء يقولون إنـه ليس كلام الله ؛ لكن يسمى كلام الله مجـازاً وهـذا قول أئمتهم وجمهورهم . وقالت طائفة من متأخريهم ؛ بل لفظ الـكلام يقـال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي ، لكن هذا ينقض أصلهم فى إبطال قيـام الـكلام بغير المتكلم به ، وهم مع هذا لا يقولون إن المخلوق كلام الله حقيقة ، كما تقوله المعتزلة مع قولهم إنه كلامه حقيقـة ، بل يجعلون القرآن العربى كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهـذا شر من قول المعتزلة ، وهذا حقيقة قول الجهمية ، ومن هذا الوجه : فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة . لـكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء ، وإنما ينازعونهم فى اللفظ .

« الثانى » أن هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون . لا يقوم بذاته كلام . ومن هذا الوجه فالـكلابية خير من الخلقية فى الظاهر ؛ لـكن جمهور الناس يقولون : إن أصحاب هذا القول عنـــد التحقيق لم يثبتوا له كلاما حقيقة غير المخـلوق ؛ فإنهم يقولون : إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر : فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية

كان إنجيلا . ومنهم من قال : هو خمس معان .

وجمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام ، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق ؛ كما فى الأخبار المتواترة . وأما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدا ، وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة ، ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ولمحبته لنصر ذلك القول كما انفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة .

وقال جمهور العقلاء : نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن ؛ بل معاني هذا ليست معاني هذا ، ومعانى هذا ليست معانى هذا . وكذلك معنى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ليس هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالو : إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة . فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي .

ثم منهم من قال : الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد، وإما ناف لها ؛ وأما إثباتها واتحادها فخلاف الإجماع . وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما . ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب ، كأبي الحسن الآمدي وغيره .

« والمقصود هنا » أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول، كما تبين بطلان غيره فإن قوله : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) يقتضي نزول القرآن من ربه ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ) وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة . وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله : (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس ، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله من الله ، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ، ولا نزله من نفسه .

وأيضاً فإنه قال عقيب هذه الآية : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) وهم كانوا يقولون : إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر ، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط ؛ بدليل قوله : (لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن

لسان الذي ألحدوا إليه ، بأن أضافوا إليه هـذا القرآن ، فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي ، والقرآن لسان عربي مبين ، وعبر عن هذا المعنى بلفظ (يُلْحِدُونَ) لما تضمن مـن معنى ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه هـذا القرآن ، فإن لفظ « الإلحاد » يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء بباطل ، فلو كان الـكفار قالوا يعلمـه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم ؛ فإن الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ، ويعبر عنه هو بعبارته .

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الـكفار كانوا يقولون : هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي . قيـل : إنه كان مولى لابن الحضرمي ، وإذا كان الـكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل بـه روح القدس بشراً ، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين : علم أن روح القدس نزل باللسان العربي المبين ، وأن محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم أنه سمعـه منه ولم يؤلفه هو ، وهذا بيـان من الله أن القـرآن الذي هو اللسان العربي المبـين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه .

ونظير هذه الآية قوله تعـالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ) إلى قوله : (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) وكذلك قوله : (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ

أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ)

و« الكتاب » اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق ، فإن الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله ، فيقول : كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربى ، وهو مخلوق .

و « القرآن » يراد به هذا تارة وهذا تارة ، والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتابا وكلاما ، فقال تعالى (الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ) وقال : (طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) وقال: (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) إلى قوله تعالى : (قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) فبين أن الذي سموه هو القرآن وهو الكتاب . وقال : (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ) وقال : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ) وقال : (يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) وقال : (وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) وقال : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) . ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى: (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ) وقال : (وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا) .

و « المقصود هنـا » أن قوله (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ) يتناول نزول القرآن العربى على كل قول . وقد أخبر : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ) إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم . وقال إنهم يعلمون ذلك ولم يقل إنهم يظنونـه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقــاً للمعلوم ، بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل ؛ فعلم أن القرآن العربى منزل من الله لا من الهواء ، ولا من اللوح ، ولا من جسم آخر ، ولا من جبريـل ، ولا من محمد ولا غيرهما ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الـكتاب المقرون بذلك خـيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله : (إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ) أنه أنزله إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث ، ولا ينافى أنـه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى : (بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِى لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ) وقال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِى كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ) . وقال تعالى : (كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِى سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ) وقال تعالى : (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) فإن كونه

مكتوباً في اللوح المحفوظ . و في صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله ، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك ، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله .

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون ومالا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق ، وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها ، كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها ؛ فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه ، فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف — وهو حق — فإذا كان ما يخلقه بائنا عنه قد كتبه قبل أن يخلقه ، فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به .

ومن قال إن جبريل أخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه :

« منها » أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده ، فبنو إسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه ، فإن كان محمد أخذه عن جبريل ، وجبريل عن الكتاب

كان بنو إسرائيل أعلى من محمد بدرجة .

وكذلك من قال إنه ألقى إلى جبريل المعانى وإن جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاماً ، وهذا الإلهام يكون لآحاد المؤمنين . كما قال تعالى : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي) وقال : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل ؛ لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ؛ ولهذا زعم ابن عربى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وقال : لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول . فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد ، وادعى أن أخذه عن الله أعلى من أخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر ، وأن هذا القول من جنسه .

وأيضاً فالله تعالى يقول : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) إلى قوله : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أوحى إليهم ، وهذا يدل على أمور : على أن الله يكلم عبده تكليما زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فإن

لفـظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، فالتكليم هو المقسوم فى قوله : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسما منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص ، كما فى قوله لموسى : (فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ) وقـد يكون قسيم التكليم الخاص ، كما فى سورة الشورى ، وهذا يبطل قول من يقول الـكلام معنى واحـد قائم بالذات ، فإنه حينئذ لا فرق بين التـكليم الذي خص به موسى والوحي العـام الذي يكون لآحاد العباد .

ومثل هذا قوله فى الآية الأخرى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فإنه فرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء الحجاب ، وبين إرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء ، فدل على أن التكليم من وراء حجاب — كما كلم موسى — أمر غير الايحاء .

وأيضاً فقوله : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وقوله : (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ) وقوله : (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره . وكذلك قوله (بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) فإنه يدل على إثبـات أن ما أنزل إليه من ربه ، وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك .

وأيضاً فهم يقولون : إنه معنى واحد فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ، وإن سمع بعضه فقد تبعض ، وكلاهما ينقض قولهم ؛ فإنهم يقولون : إنه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، فإن كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله ، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره ، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئاً من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره ، وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وإن كان الواحد من هؤلاء إنما يسمع بعضه ، فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وأيضا فقوله : (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا) وقوله : (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ) وقوله : (وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا) وقوله : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ) الآيات .
دليل على تكليم سمعه موسى . والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ، ومن قال إنه يسمع فهو مكابر ، ودليل على أنه ناداه ، والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعا ، ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع ، لا حقيقة ولا مجازاً .

وأيضا فقد قال تعالى : (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) وقوله : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ

فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) وقال : (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى) وقال : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ) وفى هذا دليل على أنه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ؛ ولما فيها من معنى الظرف ، كما فى قوله : (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) ومثل هذا قوله : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

فإنه وقت النداء بظرف محدود ، فدل على أن النداء يقع فى ذلك الحين دون غيره من الظروف ، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه .

ومثل هذا قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) وقوله : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ) وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين ، فإن الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ؛ بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته .

ثم من هؤلاء من قال إنه معنى واحد ؛ لأن الحروف والأصوات متعاقبة ، يمتنع أن تكون قديمة . ومنهم من قال : بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان ، وأنها مترتبة فى ذاتها متقاربة فى وجودها ، لم تزل ولا

تزال قائمة بذاته ، والنداء الذي سمعه موسى قـديم أزلى ، لم يزل ولا يزال . ومنهم من قال : بل الحروف قديمة الأعيان ، بخلاف الأصوات ، وكل هؤلاء يقولون : إن التكليم والنـداء ليس إلا مجرد خلق إدراك المخلوق ، بحيث يسمع مالم يزل ولا يزال لا أنـه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ولا تكليم ؛ بل تكليمه عنـدهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه ، بمـنزلة جعل الأعمى بصـيراً لمـا كان موجوداً قبل رؤيتـه من غير إحداث شـيء منفصل عن الأعمى . فعندهم لمـا جاء موسى لميقات ربـه سمع النداء القديم لا أنـه حينئذ نودي .

ولهذا يقولون : إنه يسمع كلامه لخلقه يدل عن قول الناس إنـه يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ، ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف ، الذين قالوا : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وليس قولهـم قول السلف ؛ لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه ، وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه .

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاما قائمـا بنفس الله ، وهذا قول السلف ؛ بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه فى غيره ، فإن قول هؤلاء مخالف لقول السلف . وأما كون قول

الخلقية أقرب فلأنهم يقولون إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته وهـذا قول السلف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه ، وليس كلامه بمشيئته واختياره ، بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون : الـكلام عندنا صفة ذات لا صفـة فعل . والخلقيـة يقولون صفـة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف أنه صفة ذات وصفة فعل معاً ، فكل منهـما موافق للسلف من وجه دون وجه .

واختلافهم فى كلام الله تعالى شبيه اختلافهم فى أفعاله تعالى ورضاه وغضبه ، وإرادته وكراهته ، وحبه وبغضه ، وفرحه وسخطه ونحو ذلك . فإن هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجـع إلى الثواب والعقاب . والآخرون يقولون بل هذه كلهـا أمور قديمة الأعيان قائمـة بذاته . ثم منهم من يجعلها كلهـا تعود إلى إرادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات . ومنهم من يقول : بـل هي صفات متعددة الأعيان ، لكن يقول : كل واحدة واحدة العين ، قديمـة قبل وجود مقتضياتها ، كما قالوا مثل ذلك فى الكلام ، والله تعالى يقول : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) فأخبر أن أفعالهم أسخطته ، قال تعالى : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) أي أغضبونا . وقال تعـالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) إلى أمثال ذلك مما يبـين أنه سخط على الـكفار لما كفروا ، ورضي عن المؤمنين لما آمنوا .

ونظير هذا اختلافهم في أفعاله تعالى ومسائل القدر ؛ فإن المعتزلة يقولون : إنه يفعل لحكمة مقصودة ، وإرادة الإحسان إلى العباد ؛ لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه . وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً . فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا قصداً يتصف به ، والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يعود إليه .

وكذلك في « الكلام » : أولئك أثبتوا كلاما هو فعله لا يقوم به . وهؤلاء يقولون مالا يقوم به لا يعود حكمه إليه . والفريقان يمنعون أن يقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده وقول أولئك أقرب إلى قول السلف والفقهاء إذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في أحكامه وأفعاله وأثبتوا كلاما يتكلم به بقدرته ومشيئته ، وقول هؤلاء أقرب إلى قول السلف إذ أثبتوا الصفات ، وقالوا : لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به أصلاً ، ولا يعود إليه حكم من شيء لم يقم به ، فلا يكون متكلما بكلام لم يقم به ، ولا يكون حكيما كريما ورحيما بحكمة ورحمة لم تقم به ، كما لا يكون عليما بعلم لم يقم به ، وقديرا بقدرة لم تقم به ، ولا يكون محباً راضياً غضبان بحب ورضى وغضب لم يقم به .

فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله ؛ بل

وسائر صفاته وافقوا السلف والأئمة من وجه ، وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر ؛ لكن الأشعرية فى جنس مسائل الصفات ، بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة .

فإن قيل : فقد قال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي . قيل : هذا باطل ؛ وذلك لأن الله ذكر هذا فى القرآن فى موضعين ؛ والرسول فى أحد الموضعين محمد ، والرسول فى الآية الأخرى جبريل . قال تعالى فى سورة الحاقة : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فى سورة التكوير : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) فالرسول هنا جبريل . فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين ، فإنه إن كان أحدهما هو الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها .

وأيضاً فإنه قال : (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ولم يقل : لقول ملك ولا نبي ، ولفظ « الرسول » يستلزم مرسلا له ، فدل ذلك على أن

الرسول مبلــغ له عن مرسله ؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه . وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول ؛ لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتدأه .

وأيضاً فإن الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله : (إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) ومحمد بشر ، فمن قال : إنه قول محمد فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول : هو قول بشر أو جني أو ملك ، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر ؛ ومع هــذا فقد قال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول إنه قول البشر ، فعــلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغــه عن مرسله ، لا أنه قول له مــن تلقاء نفسه ، وهو كلام الله الذي أرســله ، كما قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) فالذى بلغــه الرسول هــو كلام الله لا كلام الرسول .

ولهذا كان النبي صــلى الله عليــه وسلم يعرض نفسه على النــاس بالمواسم ويقول: « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلــغ كلام ربي فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » رواه أبو داود وغيره . والـكلام كلام من

قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض ، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة ، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة . كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) .

ففرق بين التكليم من وراء حجاب — كما كلم موسى — وبين التكليم بواسطة الرسول — كما كلم الأنبياء بارسال رسول إليهم — والناس يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه : لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام الرسول ، لكن بصوت نفسه ، واذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك .

ولهذا قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي

الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله ، فإن الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فليس علمه مثل علم المخلوقين ، ولا قدرته مثل قدرتهم ، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم .

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال . ومن قال : إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال ؛ بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت فى المصاحف ، وهو كلام الله مبلغاً عنه مسموعا من القراء ، ليس هو مسموعا منه ، والإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ، ويراها فى ماء أو مرآة ، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة ، وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة ، وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه فى الموضعين ، كما أن المقصود بالرؤية هو المرئى في الموضعين .

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق ، والاختلاف والاتفاق ، زالت عنه الشبهة التى تصيب كثيراً من الناس فى هذا الباب ، فإن طائفة قالت : هذا المسموع كلام الله ، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق ؛ فكلام الله مخلوق . وهذا جهل ، فإنه مسموع من

المبلغ ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً .

وقالت « طائفة » : هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، فلا يكون هذا المسموع كلام الله ، وهذا جهل ؛ فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه .

و « طائفة » قالت : هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل ؛ فإنه إذا قيل : هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو هو ، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه ، وإذا قيل للمسموع إنه كلام الله فهو كلام الله مسموعا من المبلغ عنه لا مسموعا منه ، فهو مسموع بواسطة صوت العبد ، وصوت العبد مخلوق . وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف . وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع .

فصل

فإن قيل : ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف ؟

قيل : منشأه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل : فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيه ما يخالف العقل والسمع ، فيأخذ هؤلاء جانب النفى المشتمل على نفي الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل ، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع ، وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ثم إن المستدلين بذلك على حدوث الأجسام ، قالوا : إن الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى . فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن

الاجتماع والافتراق وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وهي حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على أن الأجسام لا تخلو عن بعض أنواع الأعراض .

وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه . ويقولون : القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ويقولون : إن الأعراض يمتنع بقاؤها لأن العرض لا يبقى زمانين ، وهذه الطريقة هي التي اختارها الآمدي ، وزيف ما سواها ، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة : كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالى الجويني ، وأبي الوليد الباجي وأمثالهم .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف الذين يقولون بحدوث كل جسم ، ويقولون : إن القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل ، فإنهم يقولون إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة ، فإنها لا تخلو عن الحوادث .

والناس متنازعون في « السكون » هل هو أمر وجودي أو عدمي ؟

فمن قال إنه وجودي قال إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي ، وهـذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ، ومـن قال إنه عدمي : لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي ، فمن قال إنه تقوم به الحركة أو الحوادث بعد أن لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم ـ يقولون : إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي ؛ بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم أنه يفعل بعد أن لم يكن فاعلا ، ولا يقولون : إن عدم الفعل أمر وجودي ـ كذلك الحركة عند هؤلاء ، وكان كثير من أهل الكلام يقولون : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة ، فإن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده ، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث .

وهذا الكلام مجمل فإنه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحادث المعين أو مالا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ، ولا نزاع فيه ، وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ما له أول أو ما كان بعد العدم ونحو ذلك ، وأما إذا أريد بالحوادث الأمور التى تكون شيئاً بعد شيء لا إلى أول . وقيل : إنه ما لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بينا

بل هذا المقام حار فيه كثير من الأفهام ، وكثر فيه النزاع والخصام ؛ ولهذا صار المستدلون بقولهم : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا إذا أثبتوا امتناع حوادث لا أول لها ، فذكروا في ذلك طرقا قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على « ثلاثة أقوال » .

فقيل : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً ، وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية ، ومن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم .

وقيل : بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجب أن يكون حادثا ؛ بل يجوز أن يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه أو بغيره ، وربما عبر عنه بالعلة والمعلول ، والفاعل والمفعول ونحو ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك ، كأرسطو وأتباعه مثل ثامسطيوس ، والإسكندر الأفريدوسي وبرقلس ، والفارابي ، وابن سينا وأمثالهم .

وأما جمهور الفلاسفة المتقدمين على أرسطو فلم يكونوا يقولون

بقدم الأفلاك . ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون فى قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قولين معروفين لهم ، وإثبات ذلك قول كثير من الأساطين القدماء ، وبعض المتأخرين ، كأبى البركات صاحب المعتبر وغيره ، كما بسطت أقوالهم فى غير هذا الموضع .

وقيل : بل إن كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه ، وأنه هو الذي يسمى مفعولا ومعلولا ، ومربوبا ونحو ذلك من العبارات وجب أن يكون حادثا . وإن كان واجباً بنفسه لم يجز أن يكون حادثا ، وهذا قول أئمة أهل الملل وأساطين الفلاسفة ، وهو قول جماهير أهل الحديث . وصاحب هذا القول يقول مالا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث أو مالا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول أو مبتدع أو مصنوع فهو حادث ؛ لأنه إذا كان مفعولا مستلزما للحوادث امتنع أن يكون قديما ؛ فإن القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله ، بحيث يكون معه أزلياً لا يتأخر عنه ، وهذا ممتنع .

فإن كونه مفعولا ينافى كونه قديماً ، بل قدمه ينافى كونه ممكناً ، فلا يكون ممكناً إلا ما كان محدثا عند جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ، وهذا قول الفلاسفة القدماء قاطبة كأرسطو وأتباعه ، وإنما أثبت ممكناً قديماً بعض متأخريهم كابن سينا وأتباعه خالفوا فى

ذلك الفلاسفة القدماء قاطبة ، كما خالفوا فى ذلك جماهير العقلاء من سائر الطوائف ؛ ولهذا تناقضوا فى أحكام الممكن ، وورد عليهم فيه من الأسئلة [مالا جواب لهم عنه كما ذكرت ذلك] فى [الرد على] الأربعين وغير ذلك من المواضع .

وما يدعى من أن المعلول قد يقارن علته إنما يعقل فيما كان شرطاً لا فاعلا ، كقولهم : حركت يدى فتحرك الخاتم ؛ فإن حركة اليد شرط فى تحريك الخاتم ، والشرط والمشروط قد يتلازمان [و] ليست فاعلة مبدعة لها ، وكذلك الشعاع مع النار والشمس ونحو ذلك ، وأما ما يكون فاعلا فلا يتصور أن يقارنه مفعوله فى الزمان ، سواء كان فاعلا بالإرادة أو قدر أنه فاعل بغير إرادة ، وسواء سمي فاعلا بالذات أو بالطبع ، أو ما قدر ، لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً لفاعله فى الزمان ، كما اعترف بذلك جماهير العقلاء من الأولين والآخرين .

وأرسطو وأتباعه لم يقولوا إن الفلك مفعول للرب ، ولا إنه معلول لعلة فاعلية أبدعت ذاته ؛ بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه ، وأن له علة غائية يتشبه بها ، نحو حركة المعشوق يجب أن يقتدى به ، والفلك عندهم يتحرك للتشبه بتلك العلة ، ولهذا قالوا : « الفلسفة » هي التشبه بالإله بحسب الطاقة ، وقولهم — وإن كان فيه من الكفر والجهل بالله أعظم مما فى قول ابن سينا وأتباعه ، وفيهم من التناقض فى الإلهيات

ما ليس هــذا موضع بسطه ـــ فلم يتناقضوا فى إثبات ممكن قديم كتناقض متأخريهم .

ولهذا لما كانت هذه القضية مستقرة فى فطر العقــلاء وكان مجرد العلم والخبر بأن السموات مخلوقة أو مصنوعة أو مفعولة موجبــاً للعـلم بأنها حادثة ، لا يخطر بالفطر السليمة إمكان كونها مفعولة لفاعل فعلها مع كونها قديمة لم تزل معه ، ولهذا لم يدع هذا إلا هـــذه الشرذمة القليلة من المتفلسفة .

و « أيضاً » فإن ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجبــاً بذاته يستلزم معلوله فى الأزل : فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء ، لا يكون مجموعها فى الأزل ، ولا يكون شيء منها أزلياً ، بل الأزلي هو دوامها واحداً بعد واحد ، والموجب بذاته المستلزم لمعلوله فى الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء ، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة ، فإن ما كان واحدا بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعــد شيء ، فيمتنع أن يكون معلولا مقارناً لعلته فى الأزل بخلاف ما إذا قيل إن المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء ، فإنه على هـــذا التقدير لا يكون فى الأزل موجباً بذاته ، ولا علة سابقة تامة لشيء من العـالم ، فلا يكون معه فى الأزل مــن المخلوقات شيء لكن فاعليتــه للمفعولات تــكون شيئاً بعد شيء ، وكل مفعول يوجد عنده وجود كمال فاعليتــه ،

إذ المؤثر التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره ؛ إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً ، فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر ، فليس في الأزل مؤثر تام ، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه ، والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً ؛ بل كل ما يقدره العقل من الغاية التى ينتهي إليها فالأزل قبل ذلك ، كما هو قبل ماقدره ، فالأزل لا أول له ، كما أن الأبد لا آخر له .

وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان كان يقول : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء » فلو قيل إنه مؤثر تام فى الأزل لشيء من الأشياء لزم أن يكون مقارنا له دائماً ، وذلك ينافى كونه مفعولا له ، وإنما يصح مثل هذا فى الصفة اللازمة للموصوف . فإنه إذا قيل : الذات مقتض تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة ، ليس المراد بذلك أن الذات مبدعة للصفة ، فإنه إذا تصور معنى المبدع امتنع فى المقارن بصريح المعقول ، سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك ، وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث ؛ لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وإن كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك ؛ لكن لا بد من كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر

وإلا لزم الترجيح بلا مرجح ، وتخلف المعلول عن العلة التامة ، ووجود الممكن بدون المرجح التام . وكل هذا ممتنع ، فامتنع أن يكون مؤثراً لشيء من الحوادث في الأزل ، وامتنع أن يكون مؤثراً فى الأزل فيما يستلزم الحوادث ، لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال فامتنع أن يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً .

واذا قيل ذاته مقتضية للحادث الثانى بشرط انقضاء الأول . قيل: فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً ، فلا يكون معه قديم من مفعولاته . وقيل ايضاً : هذا إنما يكون إذا كانت لذاته أحوال متعاقبة تختلف المفعولات لأجلها ، فأما إذا قدر أن لا يقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة ؛ بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله ، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة البائنة أعظم من امتناع فعله لحادث معين ، فإذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالامتناع ، ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم ، وامتنع أيضاً قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فاعل والفعل الحادث لا يكون مفعوله إلا حادثاً . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فصــــل

وإذا عرف الأصل الذى منه تفرع نزاع الناس فى « مسألة كلام الله » فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنازعوا فى كلام الله تعالى . فقال كثير من هولاء : الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته ، فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب لا تقوم به الحوادث ، فيكون الكلام مخلوقاً فى غيره ، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ، ولم يفرقوا بين قال وفعل . وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق ، فلا يتصف بما يخلقه فى غيره من الألوان والأصوات ، والروائح والحركة ، والعلم والقدرة ، والسمع والبصر ، فكيف يتصف بما يخلقه فى غيره من الكلام ، ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من إنطاق الجمادات كلامه ، ومن علم أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه أن يقول كل كلام في الوجود فهو كلامه ، كما قال بعض الاتحادية :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم ، فإن هؤلاء

يقولون : إنه خالق أفعال العباد وكلامهم ، مع قولهم إن كلامه مخلوق فيلزمهم هذا .

وأما « المعتزلة » فلا يقولون إن الله خالق أفعال العباد ، لكن الحجة توجب القول بذلك .

وقالت طائفة : بل الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم ، ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقاً فى غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثاً بعد أن لم يكن ؛ لامتناع حوادث لا أول لها . وهذا قول الكرامية وغيرهم . ثم من هؤلاء من يقول : كلامه كله حادث لا محدث . ومنهم من يقول هو حادث ومحدث . وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً : الكلام لازم لذات الرب ، كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة ؛ إذ لو قلنا إنه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثاً ، وحينئذ فيلزم أن يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب ، فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه أو عن ضده . قالوا : وتسلسل الحوادث ممتنع ؛ إذ التفريع على هذا الأصل .

ثم إن هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه فقالت طائفة :

القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ؛ لأن الصوت يستحيل بقاؤه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأحرى ، فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة ، كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ؛ لأن تلك لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره . فلو كانت الميم من (بسم الله) قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره ، وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح ، وإن كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها فى آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ، وهو معنى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهي مترتبة فى ذاتها لا في وجودها ، كالحروف الموجودة فى المصحف وليس بأصوات قديمة .

ومنهم من قال : بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التى لا توجد إلا متعاقبة ، وبين الحروف المكتوبة التى توجد في آن واحد ، كما يفرق بين الأصوات والمداد ؛ فإن الأصوات لا تبقى بخلاف المداد فإنه جسم يبقى ، وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع

أن يكون الصوت المعين قديماً ؛ لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه ، والحروف المكتوبة قد يراد بهـا نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد : كالشكل المصنوع فى حجر وورق ، فازالة بعض أجزائه تدل على حدوثه ، وقد يراد بالحروف نفس المداد .

وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها ، كما يراد بالحرف فى الجسم حده ومنتهاه . فيقال : حرف الرغيف وحرف الجبل ونحو ذلك . ومنه قوله تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ) وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية الباطنة ، وهي ما يتشكل فى باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به .

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات فى الحي الناطق ؟ على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف ، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لابد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ؟

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا فى المسموع من القارىء . هل يسمع منه الصوت القديم ؟ فقيـل : المسموع هو الصوت القديم وقيل بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم ، والآخـر المحدث ، فما لا بد منه فى وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث .

وقيل : بل الصوت القديم غير المسموع من العبد .

وتنازعوا في « القرآن » هل يقال إنه حال فى المصحف والصدور أم لا يقال ذلك ؟ على قولين . فقيل : هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه . وقيل : بل القرآن حال فى الصدور والمصاحف . فهؤلاء الخلقية والحادثية ، والاتحادية والاقترانية أصل قولهم أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً . ومن قال بهذا الأصل فإنه يلزمه بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك ، فإن من الناس من يجعله حادثاً ، يريد أنه كائن بعد أن لم يكن ، ويجعل الحادثات إرادات وتصورات لا حروف وأصوات . والداربي وغيره يميلون إلى هذا القول ؛ فإنه إما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً ، وإذا كان حادثاً فإما أن يكون حادثاً فى غيره وإما أن يكون حادثاً فى ذاته ، وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط ، أو اللفظ فقط ، أو كلاهما ، فإذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام الله تعالى ثم الكلام فى ذلك المعنى قد عرف .

وأما قدم اللفظ فقط ، فهذا لم يقل به أحد ؛ لكن من الناس من يقول إن الكلام القديم هو اللفظ . وأما معناه فليس هو داخلا في مسمى الكلام ، بل هو العلم والإرادة وهما قديمان ، لكن ليس ذلك داخلا فى مسمى الكلام ، فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ

فقـط إما الحروف المؤلفة وإما الحروف والأصوات ؛ لكنه يقول إن معناه قديم .

وأما « الفريق الثاني » الذين قالوا بجـواز حوادث لا أول لها مطلقاً ، وأن القـديم الواجب بنفسه يجوز أن تتعقب عليـه الحوادث مطلقاً ، وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه ، فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم الأفلاك ، وأنها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية ، لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته ، وأما أرسطو وأتباعـه فإنهم قالوا : إن لهـا علة غائية تتحرك للتشبه بهـا فى تحركها ، كما يحرك المعشوق عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعا موجباً ولا موجباً قائماً بذاته ، ولا قالوا إن الفلك ممكن بنفسه واجب بغيره ، بل الفلك عنـدهم واجب بنفسـه ، لـكن قالوا ، مع ذلك : إن له علة غائية يتحرك للتشبه بها لاقوام له إلا بها ، فجعلوا الواجب بنفسه الذي لا فاعل له مفتقرا إلى علة غائية منفصلة عنه ، هـذه حقيقة قول أرسطو وأتباعه ؛ ولهـذا لم يثبتوا الأول عالماً بغيره ؛ إذ لم يكن الأول عندهم مبدعا للفلك ؛ فانه إذا كان مبـدعا يجب أن يكون عالما بمفعوله ، كما قال : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

ولهذا كانت أقوالهم فى الإلهيات من أعظم الأقوال فساداً ، بخلاف أقوالهم فى الطبيعيات ؛ ولهذا كان قولهم أشد فساداً فى العقل والدين

من قول ابن سينا وأتباعه ، ولم يثبت أرسطو وأتباعه « العلة الأولى » بطريقة الوجود ، ولا قسموا الوجود القديم إلى واجب وممكن ، بل الممكن عندهم لا يكون إلا حادثا ، ولا أثبتوا الموجود الواجب الخصائص المميزة للرب عن الأفلاك ، بل هذا من تصرف متأخريهم الذين خلطوا فلسفتهم بكلام المعتزلة ونحوهم ، وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأتباعه .

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلا ، أما على قول من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر ، فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلا لها . فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية فى حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم . فإن هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره ؛ لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل ، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد .

فيقال لهم : فقولوا هكذا فى حركة الفلك بقدرته وداعيه ، فإنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره ، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء ، وإن كان ذلك بواسطة العقل ، وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه ، وهو باطل أيضاً ؛ لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه

حادث بواسطة أو بلا واسطة ، فإن صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته .

وإذا قالوا الحركة بتوسطه أي [بتوسط] حركة الفلك ، قيل لهم : فالكلام إنما هو فى حدوث الحركة الفلكية ، فإن الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة تامة أزلية ، مستلزمة لمعلولها ، فإن ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتا بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة ؛ بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتا موصوفة لا يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة ؛ فإن التجدد والتعدد الموجود فى المعلولات يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه ، فصار حقيقة قولهم أن الحوادث العلوية والسفلية لا محدث لها .

وهؤلاء يقولون كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية ، كما أن ملائكة الله عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية ، فلا يثبتون له كلاما خارجاً عما فى نفوس البشر ، ولا ملائكة خارجة عما فى نفوسهم غير « العقول العشرة » و «النفوس الفلكية التسعة» ، مع أن أكثرهم يقولون إنها أعراض ، وقد بين فى غير هذا الموضع أن ما يثبتونه من المجردات

العقلية التى هي العقول والنفوس والمواد والصور ، إنما وجودهـــا فى الأذهان لا فى الأعيان .

وأمــا « الصنف الثالث » الذين فرقوا بين الواجـب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والغنى الذي لا يفتقر إلى غيره ، والفقير الذي لاقوام له إلا بالغني ، فقالوا : كل ما قارن الحوادث من الممكنـات فهو محدث كائن بعد أن لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب ، وأنه يمتنــع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلا عن أن تقارنه حوادث لا أول لهــا ؛ ولهذا كانت حركات الفلك دليلا على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك .

وأما « الرب تعــالى » إذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء أو لم يزل فاعلا لما يشاء لم يكن دوام كونه متكلما بمشيئته وقدرتــه ، ودوام كونه فاعلا بمشيئته وقدرته ممتنعاً ؛ بل هذا هو الواجب ؛ لأن الـكلام صفة كمال لا نقص فيه ، فالرب أحق أن يتصف بالـكلام من كل موصوف بالـكلام ؛ إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخـالق أولى به ؛ لأن القديم الواجب الخـالق أحق بالـكمال المطلق من المحـدث الممكن المخلوق ؛ ولأن كل كمال ثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق ، وما جاز اتصافه به من الـكمال وجب له ، فإنه لو لم يجب له لـكان إما ممتنعـاً وهو محال بخلاف الفرض ، وإما ممكناً ، فيتوقف ثبوته له على غيره ، والرب

لا يحتاج في ثبوت كماله إلى غيره ، فإن معطى الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال ، وهذا ممتنع ؛ بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال ، فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلما ، وأن ذلك لم يزل ولا يزال ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل متكلما إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكناً له .

وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن قيل : إنه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين ، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين ، وإن كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم ان تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة ؛ لما علم من الفرق بين النوع والعين ، وهذا الفرق ثابت فى الإرادة والكلام ، والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات ، وبه تنحل الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها ، وقدمها وحدوثها ، وكذلك تزول به الإشكالات الواردة فى أفعال الرب ، وقدمها وحدوثها ، وحدوث العالم .

وإذا قيل : إن حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً ، بخلاف ما إذا قيل إن عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ،

فإن هذا مكابرة للحس . والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها . وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع أو التأليف المعين لذلك الصوت ؛ فيعلم أن عينه لم تكن موجودة قبله ، والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القول ؛ ولهذا أنكروا على من زعم أن حرفا من حروف المعجم مخلوق ، وأنكروا على من قال : « لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقالت لا أسجد حتى أومر » مع أن هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي . وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها إلا بيان أن العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع ؛ فإن كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم ، وإن لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ أن من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهداً لذلك ، مع أن هذه لا إسنادها ، ولا يثبت بها حكم ، ولكن الإسرائيليات إذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس ، وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة ؛ لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك . مع أن هذا أمر اصطلاحي وخط غير العربي لا يماثل خط العربي ، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التى هي مباني أسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة ، مخلوقة بائنة عن الله ؛

بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم ، والحروف المنطوقة لا يقال فيها إنها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون : إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية ، فقد قال عنهم مالم يقولوه .

وأما الإمام أحمد : فانه أنكر إطلاق هذا القول ، وما يفهم منه عند الإطلاق ، وهو أن نفس حروف المعجم مخلوقة ، كما نقل عنه أنه قال : ومن زعم أن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهذا جهمي يسلك طريقاً إلى البدعة ، فإنه إذا قال إن ذلك مخلوق . فقد قال : إن القرآن مخلوق - أو كما قال - ولا ريب أن من جعل نوع الحروف مخلوقا بائناً عن الله كائناً بعد أن لم يكن لزم عنده أن يكون كلام الله العربى والعبري ونحوهما مخلوقا ، وامتنع أن يكون الله متكلما بكلامه ، الذي أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون شيء من ذلك كلامه ، فطريقة الإمام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث ، الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول .

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي فى كتابه الذي سماه « الفصول فى الأصول » سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول : سمعت الشيخ أبا حامد الإسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي

وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ومن قال إنه مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل عليه السـلام مسموعا من الله ، والنبي صلى الله عليـه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابـة سمعوه من رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وهو الذي نتلوه نحن مقروء بألسنتنا ، وفيما بين الدفتـين ، وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا . ومحفوظاً ومقروءاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال إنه مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

والـكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع ، وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام فى سائر الصفات : كالعلم والقدرة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام فى تعدد الصفة واتحادها ، وقدمها وحدوثها ، أو قدم النوع دون الأعيان ، أو إثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان ، مع تجدد كل معين من الأعيان ، أو غير ذلك مما قيل فى هذا الباب ، فإن هذه مواضع مشكلة ، وهي من محارات العقول ؛ ولهـذا اضطرب فيهـا طوائف من أذكياء الناس ونظارهم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه[1]

عمن قال : اختلاف المسلمين فى كلام الله تعالى على « ثلاثة أنحاء » فقوم إلى أنه قديم الحرف والصوت وهم الحشوية ، وقوم إلى أنه حادث بالصوت والحرف وهم الجهمية ومن تابعهم ، وقوم إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف إلا معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية ؟

فأجاب – رضي الله عنه وأرضاه : –

الحمد لله رب العالمين . قول القائل : إن اختلاف المسلمين فى كلام الله على « ثلاثة أنحاء » إلخ هو كلام بحسب ما بلغه من ذلك ، وأكثر من تكلم فى هذه المسألة من المتأخرين إنما يذكر فيها بعض اختلاف الناس . فقوم يحكون أربعة أقوال ، كأبى المعالي ونحوه. وقوم يحكون خمسة أو ستة ، كالشهرستاني ونحوه .

---

(١) « المسألة المصرية في القرآن » .

والأقوال التى قالها المنتسبون إلى القبلة فى هذه المسألة تبلغ سبعة أو أ كثر .

[الأول] «قول المتفلسفة » ومن وافقهم من متصوف ، ومتكلم ، كابن سينا وابن عربى الطائى ، وابن سبعين ، وأمثالهم ممن يقول [بقول] الصابئة الذين يقولون إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد ؛ بل هو ما يفيض على النفوس من المعانى : إعلاما وطلبا : إما من العقل الفعال كما يقوله كثير من المتفلسفة ، وإما مطلقا كما يقوله بعض متصوفـــة الفلاسفة . وهذا قول الصابئة ونحوهم . وهؤلاء يقولون : الـكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا فى نفسه ، وصاحب « مشكاة الأنوار » وأمثاله فى كلامه ما يضـــاهي كلام هؤلاء أحياناً . وان كان أحيـــاناً يكفرهم ، وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول : القرآن مخلوق .

و (القول الثانى) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، الذين يقولون : كلام الله مخلوق ، يخلقه فى بعض الأجسام ، فمن ذلك الجسم ابتدأ ، لا من الله ، ولا يقوم ــ عنــدهم ــ بالله كلام ولا إرادة ، وأول هؤلاء « الجعد بن درهم » الذي ضحى به خالد بن عبـــد الله القسري ــ لما خطب الناس يوم عيد النحر ــ وقال : ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليـــلا ، ولم

يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه .

وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوه من الخلفاء إلى مقالتهم ، حتى امتحن الناس فى القرآن بالمحنة المشهورة فى إمارة المأمون ، والمعتصم والواثق ، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة : كالإمام أحمد – رحمه الله – وموافقيه ، وكشفها الله عن الناس فى إمارة المتوكل وظهر في الأمة « مقالة السلف » : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . أى هو المتكلم به ، لم يبتدأ من بعض المخلوقات – كما قالت الجهمية – بل هو منه نزل ، كما قال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وقال : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال : (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) وقوله : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) .

ثم لما شاعت المحنة كثر اضطراب الناس وتنازعهم فى ذلك ، حتى صار أهل السنة والجماعة – المتفقون على أن كلام الله منزل غير مخلوق – يقول كل منهم قولا يخالف به صاحبه ، وقد لا يشعر أحدهم بخلاف الأدلة وصار أتباع الأئمة الأربعة – كأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، مع كون الظاهر المشهور عندهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق – بين كل طائفة منهم تنازع فى تحقيق ذلك ، كما سننبه على ذلك .

و [القول الثالث] قول أبي محمد عبد الله بن سعيــد بن كلاب البصري ومن اتبعه : كالقلانسي وأبي الحسن الأشعري وغـــيرهم ، إن كلام الله معنى قائم بذات الله ، هو الأمر بكل مــأمور أمر الله به ، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا .

والأمر والنهي والخبر ليست أنواعا له ينقسم الـكلام إليها ، وإنما كلها صفات له إضافية ، كما يوصف الشخص الواحد بأنه ابن لزيد ، وعم لعمرو ، وخال لبكر ،

والقائلون بهذا القول منهم من يقول : إنه معنى واحد فى الأزل وانه فى الأزل أمر ونهى وخبر ، كما يقوله الأشعري .

ومنهم من قال : بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي .

ومنهم من يقول : هو عــدة معان ، الأمر والنهي ، والخبر ، والاستخبـار .

وقــد ألزم الناس أصحاب هــذا القول أن يجعلوا العلم والقـدرة والارادة والحياة شيئاً واحداً ، فاعترف محققوهم بصحة الإلزام .

وجمهور العقلاء ــــ من أهل السنة وأهل البدعــة ــــ يقولون إن فساد هذا القول معلوم بالضرورة ، كما يقولون : إن فساد قول من يقول : إن الأصوات المسموعة من العباد قديمة معلوم بالضرورة ، كما يقولون : إن فساد قول من يقول إن المتكلم يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ، وإن العالم يكون عالماً بعلم يقوم بغيره ، والقادر يكون قادرا بقدرة تقوم بغيره معلوم بالضرورة .

وكما يقول جمهور العقلاء : إن فساد قول من يقول : إن العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، وإن العلم هو العالم ، والقدرة هي القادر ، معلوم بالضرورة .

[القول الرابع] قول طوائف من أهــل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم يقولون : إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزليــة ، ولها مع ذلك معــان تقوم بذات المتكلم ، وهؤلاء يوافقــون الأشعرية والكلابية في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم ، ليس هو أمراً منفصلا عن المستمع .

ثم إن جمهور هؤلاء لا يقولون إن تلك الأصوات [هي] المسموعة من القارئين [بل] يفرقون بين هذا وهذا . ومنهم طائفة وهم أهل[1]

---

(١) بياض بالأصل .

يقولون : إن الصوت القديم يسمع من القارىء . ثم قد يقولون تارة : إن القديم نفس الصوت المسموع من القــارىء ، وتارة يقولون : إنــه يسمع من القــارىء صــوتان قديماً ومحدثا . وكثير منهم أو أكثرهم لا يقولون بحلول القديم فى المحدث ؛ بل يقولون ظهر فيــه كما يظهر الوجه فى المرآة .

ومنهم من يقول بحلول القديم فى المحدث ، وليس هــذا القول ولا الأقوال قبله قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، ولم يقل ذلك لا الإمام أحمد ، ولا أئمة أصحابه ، ولا غيره من الأئمة ؛ بل هم متفقون على الإنكار على من قال إن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فــكيف بمن قال صوتى غير مخلوق ؟ فكيف بمن قال صوتي قديم ؟!.

وأما القول بأن المداد الذي فى المصحف قديم : فهذا ما رأيناه في كتاب أحد من طوائف الإسلام . ولا نقله أحد عن رجل معروف من العلماء أنه سمعه منه ؛ ولكن طائفة يسكتون عن التكلم في المــداد بنفي أو إثبات ، ويقولون : لا نقول إنه قديم ؛ ولكن نسكت ســداً للذريعة . وقد حكاه طائفــة عمن سموهم الحشوية القول بقدم المــداد ، وقالوا : إنهم يقولون : إن المداد الذى فى المصحف قديم ، وإنه لما كان فى المحبرة كان محدثا ، فلما صار فى الورق صار قديما .

ورأينا طوائف يكذبون هؤلاء فى النقل ، وكأن حقيقة الأمر أن أولئك يقولون قول غيرهم بمجرد ما بلغهم من إطـلاق قولهم ، أو لما ظنوه لازما لهم ، أو لما سمعوه ممن يجازف فى النقل ولا يحرره، وربما سمعوه من بعض عوامهم إن كان ذلك قد وقع .

وهذا الباب وقع فيه غلط بهذا السبب ، حتى غلط الناس على من يعظمونه ؛ وبهذا السببِ غلط أبا طالب « الإمام أحمد » فيما نقله عنه فإنه قرأ عليه : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وسأله هذا مخلوق ؟ فقال له أحمد هذا ليس بمخلوق . فبلغه أن أبا طالب حكى عنه أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فغضب عليه أحمد ، وقال : أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : لا . ولكن قرأت عليك : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقلت لك : هذا غير مخلوق فقلت نعم . فقـال : فلم حكيت عنى أني قلت لك لفظى بالقرآن غـير مخلوق ؟ فقـال : لم أحكه عنك وإنما حكيته عن نفسى ، قال : فلا تقل هذا فإنى لم أسمع عالما يقول هذا ؛ ولكن قل : القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق .

ولهذا قال البخاري فى « كتاب خلق الأفعـال » إن « اللفظية » هؤلاء يذكرون قولهم عن أحمد وهم لا يفهمون دقـة قوله ، وموضع الشبهة أنه إذا قال هذا ، فالإشارة تكون إلى الكلام مـن حيث هو كلام ، مع قطع النظر عما بلغ به من حركات العبد وصوته ، كمـا أن

الرجل إذا كتب اسم الله — تبارك وتعالى — وسمع قائلا يذكر الله فقال هـــذا ربي كان صادقا ، ولو قيل له : أتعبد هذا ؟ لقال نعم . — لأن المشار إليه هو المسمى بذلك — ألا تعلم المكتوب ؟ والاسم يراد بــه من الكلام المؤلف المسمى ، فإذا قال : (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ) فالمراد أن المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله ؛ ليس المراد أن نفس اللفظ والخط هو رسول الله .

ومن هنا تنازع الناس فى « الاسم » هل هــو المسمى أو غيره ، وكان الصواب أن يمنع من كلا الإطلاقين ، ويقال كما قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) وكما قال صـــلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » . والذين أطلقوا أنه المسمى كان أصل مقصودهم أن المراد به هو المسمى ، وأنه إذا ذكر الاسم فالإشارة به إلى مسماه ، وإذا قال العبد حمدت الله ودعوت الله وعبدت الله فهو لا يريد إلا أنه عبد المسمى بهذا الاسم .

والذين نفوا ذلك رأوا أن نفس اللفظ أو الخط ليس هو الأعيان المسماة بذلك ، وآخرون فرقوا بين التسمية والاسم ، فجعلوا الألفاظ هي التسمية ، وجعلوا الاسم هو الأعيان المسماة بالألفاظ ، فخرجوا عن موجب اللغة المعروفة التى جاء بها الكتاب والسنة .

وأصل مقصود الطوائف كلها صحيح ؛ إلا من توسل منهم بقوله إلى قول باطل : مثل قول الجهمية إن الاسم غير المسمى ؛ فإنهم توسلوا بذلك إلى أن يقولوا : أسماء الله غيره . ثم قالوا : وما كان غير الله فهو مخلوق بائن عنه ، فلا يكون الله تعالى سمى نفسه باسم ، ولا تكلم باسم من أسمائه ، ولا يكون له كلام تكلم به ؛ بل لا يكون كلامه إلا ما كان مخلوقاً بائناً عنه .

فهؤلاء لما علم السلف أن مقصودهم باطل أنكروا إطلاقهم القول بأن كلام الله غير الله ، وأن علم الله غير الله وأمثال ذلك ؛ لأن لفظ « الغير » مجمل ، يحتمل الشيء البائن عن غيره ، ويحتمل الشيء الذي ليس هو إياه ولا هو بائن عنه . فمن قال : إنه غيره ليجعله بائناً عنه ، كان كلا المعنيين صحيحاً وإن كان فى العبارة تقصير .

وهكذا أنكر الأئمة قول من قال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق . وقالوا : من قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع . وكذلك قالوا فى « التلاوة ، والقراءة » لأن اللفظ والتلاوة والقراءة يراد بهما المصدر الذي هو فعل العبد ، وأفعال العباد مخلوقة ، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم وغير ذلك من صفاتهم غير مخلوق فهو مبتدع ، ويراد بـ « اللفظ » نفس الملفوظ ، كما يراد بالتلاوة والقراءة نفس الكلام ، وهو القرآن نفسه . ومن قال كلام

الله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وقرأه المسلمون مخلوق فهو جهمي .

ومن المعلوم أنه إذا سمع الناس كلام محدث يحدث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أو هذا كلامه بعينه ؛ لأنهم قد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بذلك الكلام لفظه ومعناه ، وتكلم بصوته ، ثم المبلغ له عنه بلغه بصوت نفسه ، فالكلام كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي تكلم بمعانيه وألف حروفه بصوته ، والمبلغ له بلغه بفعل نفسه وصوت نفسه .

فإذا قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم كانت إشارتهم إلى نفس الكلام الذي هو الكلام حروفه ونظمه ومعانيه ، لا إلى ما اختص به المبلغ من حركاته وأصواته ؛ بل يضيفون الصوت إلى المبلغ فيقولون صوت حسن ، وما كان فى الكلام من فصاحة حروفه ونظمه وبلاغة معانيه فإنما يضاف إلى المتكلم به ابتداء ، لا إلى المبلغ له ؛ ولكن يضاف إلى المبلغ حسن الأداء : كتجويد الحروف ، وتحسين الصوت ؛ ولهذا قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس ، فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « الله أشد أذنا إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » .

فبين الله ورسوله أن القرآن المسموع كلام الله لا كلام أحد من المخلوقين، والناس يقرؤونه بأصواتهم ، فمن قال : إن هذا القرآن المسموع ليس هو كلام الله ، أو هو كلام القارئين كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعا وعقلاً ، كما أن من قال : إن هذا الصوت المسموع ليس هو صوت العبد أو هو صوت الله كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعا وعقلا ؛ بل هذا هو كلام الله لا كلام غيره ، سمعه جبريل من الله وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل ، وسمعه المسلمون من نبيهم . ثم بلغه بعضهم إلى بعض ، وليس لأحد من الوسائط فيه إلا التبليغ بأفعاله وصوته ، لم يحدث منهم أحد شيئاً من حروفه ، ولا نظمه ، ولا معانيه ؛ بل جميع ذلك كلام الله تعالى .

[القول الخامس] قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم أن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام ؛ بل ما زال عندهم قادراً على الكلام ، وهو عندهم لم يزل متكلماً بمعنى أنه لم يزل قادراً على الكلام ، وإلا فوجود الكلام عندهم فى الأزل ممتنع ؛كوجود

الأفعال عندهم ، وعند من وافقهم من أهل الكلام ، كالمعتزلة وأتباعهم. وهم يقولون : إنه حروف وأصوات حادثة بذات الرب ، بقدرته ومشيئته. ولا يقولون : إن الأصوات المسموعة ، والمداد الذي في المصحف قديم ؛ بل يقولون : إن ذلك محدث .

[القول السادس] قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم : إن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت ، كما جاءت به الآثار ، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ليس ببائن عنه مخلوقاً . ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو هو حادث ؛ بل مازال متكلماً إذا شاء ، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته ، فكلامه لا ينفد ، كما قال تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا) .

ويقولون : ما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة ، ودلت عليه العقول الزكية الصريحة ، فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه وتعالى ؛ فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلم ، ولا تسمع ولا تبصر . فلا تكلم عابديها ، ولا تهديهم سبيلا ، ولا ترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً .

ومن جعل كلام الله لا يقوم إلا بغير الله كان المتصف به هو ذلك الغير ، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى(إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ)؛ ولهذا اشتد نكير السلف على من قال ذلك . وقالوا هذا نظير قول فرعون : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ) أي هذا كلام قائم بغير الله ؛ ولهذا صرح بحقيقة ذلك الاتحادية : كابن عربى ونحوه ، الذين يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه .

وأهل هذا القول — الموافقون للسلف والأئمة — لا يقولون إن الرب كان مسلوبا صفات الكمال في الأزل ، وإنه كان عاجزاً عن الكلام حتى حدث له قدرة عليه ، كالطفل . والذين يقولون : إن القرآن مخلوق يجعلون الكلام لغيره ، فيسلبونه صفات الكمال ، ويقولون : إنه لايقدر على الكلام فى الأزل ، لا على كلام مخلوق ولا غيره . وهم إن لم يصرحوا بالعجز عن الكلام فى الأزل فهو لازم لقولهم . والكرامية فروا من الأول ؛ وجعلوه متكلما بكلام يقوم به ؛ لكن لم يجعلوه متكلما فى الأزل ؛ بل ولا قادراً على الكلام فى الحقيقة في الأزل .

والكلابية ومن وافقهم من السالمية ونحوهم وصفوه بالكلام في الأزل ، وقالوا : إنه موصوف به أزلا وأبداً ، لكن لم يجعلوه قادراً على الكلام ، ولا متكلما بمشيئته واختياره ، ولا يقدر أن يحدث شيئاً

يكون به مكلما لغيره ؛ لكن يخلق لغيره إدراكا بما لم يزل ، كما يزيل العمى عن الأعمى الذى لا يرى الشمس التى كانت ظاهرة متجلية ، لا أن الشمس فى نفسها تجلت وظهرت ، وهذا يقول كثير من هؤلاء فى رؤيته إنها ليست إلا مجرد خلق الإدراك . ليس هناك حجب منفصلة عن الرائى ، فلا يكشف حجابا ، ولا يرفع حجابا .

والقرآن مع الحديث ومع العقل يرد على هؤلاء ؛ كقوله تعالى :
(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا)
ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية : لكان الوحي وإرسال الرسل من وراء حجاب . وقال تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) وفى الصحيح : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ؛ يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ، وينجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر » والآثار في ذلك كثيرة .

و « أيضاً » فقول الكلابية : إن الحقائق المتنوعة شيء واحد ، وقول الآخرين إن الأصوات المتضادة تجتمع فى آن واحد مما يقول أكثر العلماء العقلاء إنه معلوم الفساد بالضرورة ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » الجواب عن قول هـذا القائل : فقوم إلى أنـه قديم الصوت والحرف ، وهم الحشوية . إن أراد بذلك قول من يقول إن نفس الأصوات مجتمعة فى الأزل : فهذا قول من تقدم من السالمية ، وغيرهم من أهل الـكلام والحديث .

وأما قول القائل : « حشوية » فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا فى الشرع ، ولا في اللغة ، ولا فى العرف العـام ؛ ولكن يذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد . وقال : كان عبد الله بن عمر حشويا . وأصل ذلك : أن كل طائفة قالت قولا تخالف بـه الجمهور والعامة [ينسب] إلى أنه قول الحشوية ، أي الذين هم حشو فى الناس ليسوا من المتأهلين عندهم ؛ فالمعتزلة تسمي من أثبت القـدر حشوياً ، والجهميـة يسمون مثبتة الصفات حشوية ، والقرامطة — كأتباع الحاكم — يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويا .

وهذا كما أن الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور ، وكذلك الفلاسفة تسمي ذلك قول الجمهور ، فقول الجمهور وقول العامـة من جنس واحد .

فإن كان قائل ذلك يعتقد أن الخاصة لا تقوله ؛ وإنما تقوله العامة والجمهور ، فأضافه إليهم وسماهم حشوية . والطائفة تضاف تارة إلى الرجل الذي هو رأس مقالتها ، كما يقال : الجهمية ، والأباضية ، والأزارقة ، والـكلابية ، والأشعرية ، والكرامية ،

ويقال في أئمة المذاهب : مالكية ، وحنفية ، وشافعية ، وحنبلية . وتارة تضاف إلى قولها وعملها ، كما يقال : الروافض ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، ونحو ذلك . ولفظة الحشوية لا ينبني لا عن هذا ولا عن هذا .

وأما قوله : وقوم ذهبوا إلى أنه حادث بالصوت والحرف — وهم الجهمية — فهو كلام من لا يعرف مقالات الناس . فإن الجهمية يقولون : إن الله لا يتكلم ، وليس له كلام ، وإنما خلق شيئاً فعبر عنه ، ومنهم قال : إنه يتكلم بكلام يخلقه فى غيره ، وهو قول المعتزلة .

وأما الكرامية فتقول : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو متكلم به بحرف وصوت . ويقولون مع ذلك : إنه حادث قائم به وهم ليسوا من الجهمية ؛ بل يردون عليهم أعظم الرد ، وهم أعظم مباينة لهم من الأشعرية . ويقولون مع ذلك : إن القرآن حادث في ذات الله .

ثم من هؤلاء من يقول : إن كلام الله كله حادث ومنهم من لا يقول ذلك ، وهذا القول معروف عن أبى معاذ التومنى ، وزهير البابي ، وداود بن علي الأصبهانى ، بل والبخاري صاحب الصحيح وغيره ، وطوائف كثيرة يذكر عنهم هذا ، فليس كل من قال : إنه حادث كان من الجهمية ، ولا يقول إنه مخلوق .

وأما قوله : وقوم نحوا إلى أنـه قديم لا بصوت ولا حرف ، إلا معنى قائم بذات الله — وهم الأشعريـة — فهذا صحيح ؛ ولكن هـذا القول أول من قاله في الإسلام عبد الله بن كلاب ؛ فإن السلف والأئمة كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات ، والأفعال ، المتعلقة بمشيئتـه وقدرته . والجهمية تنكر هذا وهـذا ، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفـات القديمـة ، وأنكر أن يقوم بـه شيء يتعلق بمشيئته وقدرته .

وجاء أبو الحسن الأشعري بعده — وكان تلميذاً لأبى علي الجبائي المعتزلي ثم إنه رجـع عن مقالة المعتزلة ، وبين تناقضهم فى مواضع كثيرة ، وبالغ فى مخالفتهم فى مسائل القدر والإيمان ، والوعد والوعيد ، حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة ، والجبرية والواقفة — ، وسلك فى الصفات طريقة ابن كلاب . وهذا القول في القرآن هو قول ابن كلاب في الأصل ، وهو قول من اتبعه كالأشعري وغيره .

وقوله : فمن قال إن الحرف والصوت الملفوظ بهما عـين الكلام القديم فلأهل الحق فيـه رأيان : رأي بتكفيره ، ورأي بتبديعـه ، إلى قوله : وليعـلم أن الحرف اللسانى والحرف البنـانى كـلاهما مقيـد بزمام تصرفه .

فيقال : أما القول بأن المداد المكتوب قديم فما علمنا قائلاً معروفا قال به ، وما رأينا ذلك في كتاب أحد من المصنفين ، لامن أصحاب أبي حنيفة، ولا مالك ، ولا الشافعي ولا أحمد ؛ بل رأينا فى كتب طائفة من المصنفين من أصحاب مالك ، والشافعي، وأحمد ، إنكار القول بأن المداد قديم ، وتكذيب من نقل ذلك ، وفي كلام بعضهم ما يدل على أن فى المصحف حرفا قديما ليس هو المداد .

ثم منهم من يقول : هو ظاهر فيه ، ليس بحال ، ومنهم من يقول هو حال . وفى كلام بعضهم ما يقتضي أن يكون ذلك هو الشكل : شكل الحرف وصورته ؛ لا مادته التى هي مداده ، وهذا القول أيضا باطل ، كما أن القول بأن شيئاً من أصوات الآدميين قديم هو قول باطل ، وهو قول قاله طائفة من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجمهور هؤلاء ينكرون هذا القول . وكلام الإمام أحمد وجمهور أصحابه فى إنكار هذا القول كثير مشهور .

ولا ريب أن من قال إن أصوات العباد قديمة فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله ، كما أن من قال : إن هذا القرآن ليس هو كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله .

ومن قال : إن القرآن العربى ليس هو كلام الله ، بل بعضه كلام

الله وبعضه ليس كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله . ومن قال : إن معنى آيــة الكرسي ، وآية الدين ، و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) و (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) معـــنى واحـد فهو مفتر مبتـــدع ، له حكم أمثاله .

وأما « التكفير » : فالصواب أنه من اجتهد من أمـة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقصد الحق ، فأخطأ : لم يكفر ؛ بل يغفر له خطؤه. ومن تبين له ما جاء به الرسول ، فشاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، واتبع غير سبيل المؤمنين : فهو كافر . ومن اتبع هواه ، وقصر في طلب الحق ، وتكلم بلا علم : فهو عاص مذنب . ثم قد يكون فاسقاً ، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته .

فـ « التكفير » يختلف بحسب اختلاف حال الشخص ، فليس كل مخطئ ولا مبتـــدع ، ولا جاهـــل ولا ضال ، يكون كافراً ؛ بل ولا فاسقاً ، بل ولا عاصياً ، لا سيما في مثل « مسألة القرآن » وقــد غلط فيها خلق من أئمة الطوائف ، المعروفين عنـــد الناس بالعـــلم والدين . وغالبهم يقصد وجها من الحق فيتبعه ، ويعزب عنه وجه آخر لايحققه ، فيبقى عارفا ببعض الحق جاهلاً ببعضه ؛ بل منكراً له .

ومن ههنـــا نشأ نزاعهم ، فالذين قالوا إنـــه مخلوق : رأوا أن

الـكلام لا يكون إلا بقدرة المتكلم ومشيئته ، وإن كلاماً لازماً لذات المتكلم لا يعقل ؛ فإنه إن جعل معنى واحداً كان مكابرة للعقل ، وكذلك إن جعل أصواتاً أزليـة ، ثم ظنوا أن ما كان بقدرة الرب ومشيئته لا يكون إلا منفصلا عنه ، وما انفصل عنه فهو مخلوق . ولهذا أنكروا أن يجيء ، أو يأتي ، أو ينزل ، وغير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة .

وآخرون وافقوهم على هـذا الأصل الذي أحدثه أولئك ، وهو أنه لا يقوم به ما يتعـلق بمشيئته وقدرته ؛ لكن رأوا أن كلاماً لا يقوم بالمتكلم لا يكون كلاماً له . فقالوا : إن كلامه قائم به .

ثم رأى « فريق » أن قدم الأصوات ممتنع ، فجعلوا القديم هو المعنى ، ثم رأوا أن تعدد المعاني القديمة ممتنع ، وأنه يفضي إلى وجود معاني لا نهاية لها ، فقالوا هو معنى واحد .

ورأى « فريق آخر » أن كون المعانى المتنوعة معنى واحداً ممتنع ، وكون الرب لم يتكلم بحروف القرآن ، بل خلقها في غيره موافقة لمن جعل الـكلام لا يقوم بالمتكلم ؛ فإن تلك الحروف المنظومة ــ كالقرآن العربى ــ إن قالوا هو كلام الله لزم أن لا يكون كلامه قائماً به بل بغيره ؛ وإن قالوا ليس كلاماً لله لزم أن يكون كلاماً لمن خلقت فيه ، فلا يكون الـكلام العربى كلاماً لله ؛ بل كلاماً لمن خلق فيه . وهذا

هو الذي أنكروه على من قال القرآن مخلوق . والذي قال إنه مخلوق لم يقل إلا هذا ؛ فلزمهم أن يوافقوا فى الحقيقة قول من يقول : القرآن مخلوق ، وإن ضموا إلى ذلك قولاً لا حقيقة له يخالف العقل والنقل : وهو إثبات معنى واحد يكون هو جميع معانى التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ؛ لكنهم إنما قالوا ذلك فراراً من أقوال ظنوها باطلة ، فلم يقصدوا إلا الفرار عما رأوه باطلا ، فوقعوا فى أقوال لها لوازم تقتضي بطلانها أيضاً .

فلما رأى هذا « الفريق الثانى » ما أجاب به هؤلاء ، قالوا : إنه حروف وأصوات ، قديمة أزلية . فرد عليهم غيرهم . وقالوا : إن الأصوات متضادة فى نفسها ، والضدان لايجتمعان ، وأقل مافى الأمور القديمة أن تكون مجتمعة ، وقالوا لهم : الأصوات مستلزمة للحركات المستلزمة للقدرة والإرادة ، فلا تكون الأصوات إلا بقدرة وإرادة ، وما كان كذلك لم يكن قديم العين ؛ لكن النزاع فى كونه قديم النوع . وقالوا : الأصوات هي فى نفسها يمتنع بقاؤها ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدمه ، فامتنع قدم الأصوات .

وقال « آخرون » : إذا كان الأمر كذلك كان متكلماً بحروف ، وأصوات ، حادثة بمشيئته وقدرته ، قائمة بذاته ، لكن يمتنع قدم شيء من ذلك ؛ لأن الحوادث لا تكون أزلية ، ورأوا أن هذا القول ينجيهم من

سائر ما وقع فيه غيرهم ، وليس فيه ما ينكر أولئك عليهم ، إلا أن يقوم بذات الرب ما يتعلق بمشيئته وقدرته .

فإن المعتزلة نفت أن يقوم به شيء من المعانى ، وعبروا عن ذلك بأنه لا يقوم به شيء من الأعراض والحوادث ، فسموا ما يقوم به من العلم ، والقدرة ، والحياة ، أعراضاً . وما يقوم به من الخلق ، والإحسان والإتيان ، والمجيء ، والنزول حوادث . وقالوا — لسلف الأمة وأئمتها وجمهورها : — إن قلتم الكلام المعين لازم له فقد قلتم إنه تقوم به الأعراض ، وإن قلتم يتكلم باختياره وقدرته ، فقد قلتم تقوم به الحوادث .

فقال هؤلاء : كلام المعتزلة وقولهم لا تقوم به هذه الأمور : كلام باطل ، مخالف للكتاب والسنة ، ولإجماع سلف الأمة . وهو أيضاً مخالف لصريح العقل ؛ فإن إثبات عالم بلا علم ، وقادر بلا قدرة ، وحي بلا حياة ، ممتنع فى صريح العقل . وكذلك إثبات خالق وعادل بلا خلق ولا عدل ، وإثبات فاعل لا يقوم به فعل ، وإثبات رب لا يقدر على التصرف بنفسه ؛ بل يكون بمنزلة الجماد سلب لصفات الكمال عنه ، كما أن إثبات رب لا يعلم ولا يقدر سلب لصفات الكمال عنه .

قال هؤلاء : فاذا قلنا إنه تكلم بالـكلام ، حروفه ومعانيه ، بمشيئته وقدرته ، سلمنا من هذه المحاذير ، ولم يكن منا محذور شرعى ولا عقلي .

فقال لهم « الفريق السابع » : ولـكن جعلتموه عاجزاً عن الكلام فى الأزل ، مسلوباً للـكمال ، ولزمكم أن يقال : إذا كان من الأزل إلى الأبد لم يتـكلم ثم تكلم ، كان ذلك أمراً حادثاً ، فيحتاج إلى سبب حادث ، والقول فى ذلك الحادث كالقول فى الأول ؛ فيـلزم تسلسل الحوادث . فإن كان ذلك ممتنعاً بطل قولـكم ، وإن كان جائزاً فقولوا لم يزل متكلماً إذا شاء ، كما قاله أئمة السنة وجماهير أهل الحديث ، فإنـكم حينئذ تكونون قد وصفتم ربكم بصفات الـكمال أزلاً وأبداً .

قالوا : وهذا القول خير من سائر الأقوال ، مع موافقته المعقول وصحيح المنقول . فقال لهم أولئك : هذا يستلزم حوادث لا أول لها . وذلك ممتنع ، فقال لهم هؤلاء : هذا كلام مبتدع ، وإنما أخذتموه عن المعتزلة لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولا دل عليه العقل ؛ بل العقل يدل على نقيضه .

والذين قالوا هذا القول من المعتزلة ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية : ظنوا أنهم بهذا القول يثبتون حدوث العالم ؛ بناء على أن الأجسام لا تخلو من الأعراض المحدثة ، وما لا يخلو من الحوادث فهو

محدث ، وهـذا القول هو الذي سلط عليهـم « الفلاسفة الدهرية » القائلين بقدم العالم ؛ فإن هـذا القول الذي قالوه وجعـلوه مستلزماً لحدوث العالم هو مناقض لحدوث العالم ، بل هو مناقض لإثبات الصانع . فهم قصدوا نصر الإسلام بما ينافى دين الإسلام .

ولهذا كثر ذم السلف لمثل هـذا الـكلام ، وهـذا هو أصل « الـكلام المذموم » عند سلف الأمة وأئمتها ؛ وذلك لأن الشيء إذا كان يمكن وجوده ويمكن عدمه فلا يوجد إلا بمقتض يستلزم وجوده ، وإن جاز وجوده بدون ذلك أمكن أن تكون المخلوقات ـــ التى يمكن وجودها وعدمها ـــ وجدت بلا فاعل ، فلا بد للممكنات من وجود واجب يحصل به وجودها ، ولا تكون مع وجود المقتضى التام محتملة للوجود والعدم ؛ بل يكون وجودهـا لازماً حتماً . فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وإذا شاء الرب شيئاً لم يمكن أن لا يكون ؛ بل يجب كونه بمشيئة الرب تعالى المستلزمة لقدرته .

قالوا : وإذا كان كذلك : فالحادث الذي يمكن وجوده ويمكن عدمه إذا حـدث بدون سبب حادث مع استواء نسبته إلى جميع الأوقات ، واستواء نسبة جميع الحوادث والأوقات إلى مشيئة الرب وقـدرته لزم من ذلك أن يكون قـد تخصص بعض الحوادث بالحـدوث ، وبعض

الأزمنة بالحدوث ، من غير مخصص يقتضى ذلك ، ومـن غير سبب حادث يقتضى الحدوث .

وهذا مع أنه فاسد فى صريح العقول : فهو يبطل ما استـدلوا به على إثبات الصانع ، فلا بـد حينئذ أن يكون لحدوث الحوادث سبب حادث ؛ وحينئذ فما من حادث إلا وهو مسبوق بحادث . وحينئـذ : فهذا يقتضي أن الله إذا كان متكلما بمشيئته وقدرته ، أمكن أنه لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته ، ولم يجز أن يصير متكلما بعد أن لم يكن متكلما بحال ؛ لأن ذلك يقتضي حدوث الحادث بلا سبب حادث وهو ممتنع ، ويقتضي أنه تجدد له من صفـات الـكمال ما أمكن ثبوته فى الأزل ؛ وذلك ممتنع ؛ وذلك لأن صفات الـكمال التى يمكن اتصـاف الرب بهـا لا يجوز أن يتوقف ثبوتها له على غيره ؛ لأنـه يلزم أن يكون ذلك الغير هو المعطي له صفات الـكمال ، ومعطى غيره صفـات الـكمال أولى بأن يكون هو الرب تعالى ، ورب العـالمين ، الخالق ما سواه ، الذي يعطيه صفات الـكمال لا يكون غيره ربا له بوجه من الوجوه ، سبحـانه وتعالى عن ذلك .

وحينئذ فيجب اتصافه بالكلام إذا شاء أزلا وأبداً .

قال هؤلاء : وهـذا الأصل يبطل حجة الفلاسفة الدهرية ، التى

احتجوا بها على قدم العالم ، وعجزتم أنتم معاشر المعتزلة وأتباعكم ـ من المتكلمين القائلين بامتناع دوام الحوادث ـ عنها ، فإنهم ألزموكم على أصولكم ؛ إذ قدرتم ثبوت موجود لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يفعل شيئاً ، بل يمتنع منه فى الأزل كل شيء يكون منه : من كلام أو فعل . فقالوا : إذا قدرنا وجود هذا ، وأنه يبقى دائماً أبداً لا يتكلم ولا يفعل شيئاً ، ثم تكلم وفعل ؛ فلا بد من سبب أوجب حدوث هذا الكلام والفعل ، إما حدوث قدرة أو إرادة ، أو علم أو غير ذلك من الأسباب . فأما إذا قدر حاله فيما لايزال كحاله فيما لم يزل : امتنع أن يتجدد له كلام ، أو فعل ، أو غير فعل .

فهذه حجة الفلاسفة عليكم ؛ وأنتم لم تجيبوهم إلا بالمكابرة أو بالإلزام « فالمكابرة » دعواكم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب ؛ بل جعلتم نفس القدرة أو الإرادة القديمة : تخصص أحد المتماثلين عن المثل الآخر بلا سبب أصلا ، مع أن نسبتها إلى جميع المتماثلات نسبة واحدة . وهذا مع أنه معلوم البطلان بالضرورة : فهو يسد عليكم طريق « إثبات الصانع » فإنه مبنى على أن الحوادث لا بد لها من محدث ، والمخصص لا بد له من مخصص ، والترجيح لا بد له من مرجح ؛ إذا كان المخصص أو المرجح من الممكنات ، أو المحدثات .

وأما « الإلزام » فقولكم إن هذا الإشكال لازم للفلاسفة ، كما هو

لازم لنا . فإن الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علة تامة أزلية ــ وليس عندكم إلا العلة التامة الأزلية ــ لزم ألا يكون للحوادث محــدث . وأما نحن إذا سلــكنا طريق سلف الأمة وأئمتها ، فنقول لهؤلاء الفلاسفة : بل خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، كما أخبرت به الرسل ، فحدثت بأسباب حدثت قبل ذلك ، وإذا قلنا : إنه لم يزل متكلما إذا شاء ــــ و (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) ــــ كان ما يحدث حادثاً بما شاء أن يتكلم به من كلامه ؛ لا سيما إذا قيل بنظير ذلك فى إرادته ــــ سبحانه وتعالى ــــ وأمكننا أن نجيب الفلاسفة بجواب آخر ، مركب عنا وعنكم .

فنقول لهم : وجود حوادث لا أول لها ممكن أو ممتنع ؟ .

فإن قلتم ممتنع : لزمكم القول بحدوث العالم ، وأمكن حينئذ صحــة قول الكرامية ونحوهم .

وإن قلتم : هو ممكن . قيل : فممكن حينئذ أن يكون هذا العالم حدث بسبب حادث قبله . وكذلك السبب الآخر لا إلى غايــة ، والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة ، مشكلة ،

بسببها افترقت الأمة واختلفت . فإذا اجتهد الرجل فى متابعة الرسول، والتصديق بما جاء به ، وأخطأ فى المواضع الدقيقة التى تشتبه على أذكياء المؤمنين ، غفر الله له خطاياه ؛ تحقيقاً لقوله : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) وقد ثبت فى الصحيح أن الله قال : « قد فعلت »

وأما قول القائل : ومن قال : كلام الله منزه عن سمات الحدوث إذ الصوت والحرف لازمها الحدوث ، فكما لذاته التنزيه عن سمات الخلق كذلك لقوله الحق .

فيقال له : لا نزاع بين المسلمين ؛ بل وسائر أهل الملل وغيرهم من العقلاء ، أن الخالق منزه عن سمات الحدوث ، فإن قدمه ضروري ؛ فيمتنع أن يقوم دليل على حدوثه ، و « السمة » هي العلامة والدليل . ولكن منازعوك فى الصوت والحرف : جمهور الخلائق ؛ إذ لم يوافق الكلابية على قولهم أحد من الطوائف ، لا الجهمية ، ولا المعتزلة ، ولا الضرارية ، ولا النجارية ، ولا الكرامية ، ولا السالمية ، ولا جمهور المرجئة والشيعة ، ولا جمهور أهل الحديث والفقه والتصوف ، ولا الفلاسفة : لا الإلهيون ، ولا الطبائعيون على اختلاف أصنافهم .

وخصومهم منهم من يقول : الحروف محدثة مخلوقة فى محل منفصل عن الله ، كما يقولون هم ذلك ؛ لكن يقولون : هذا كلام الله ليس لله

كلام غيره ، كما أجمع المسلمون على أن هـذا كلام الله ، بل أجمعت الأمم على أن الكلام لا يعقل إلا كذلك .

فإن قلتم : هذا هو كلام الله . لزمكم أن يكون كلامه مخلوقا ، وإن قلتم : ليس ذلك كلام الله خالفتم المعلوم بالاضطرار من الشرع واللغة ، وإن قلتم نسمي هـذا كلام الله ، وهـذا كلام الله ، كلاهما حقيقة بطريق الاشتراك اللفظي . قيل لكم : فإذا ثبت أن الكلام المخلوق فى غيره هو كلام له حقيقة بطل أصل حجتكم ، التى إحتججتم بها ، حيث قلتم الكلام لا يكون كلاما إلا لمن قام به ، ولا يكون المتكلم متكلما بكلام يحل فى غيره .

وقالوا لكم أيضاً : إثبات المعنى الذي أثبتموه غير هذه الحروف ، والأصوات يحتاج إلى إثبات وجوده ، ثم إثبات قدمه ، ثم إثبات حدوثه ، وكل من هذه المقامات أنتم فيها منقطعون ، كما هو مبسوط فى موضعه ، وكما اعترف بذلك فضلاء هذه المقالة .

و « الفريق الثانى » يقول لكم : إنا نسلم لكم أن الحروف والأصوات محدثة ؛ لكن نقول هي كلام الله القائم بذاته ، فإن قلتم هذا يستلزم كونه محلا للحوادث ، قالوا لكم : ونفس هذا من كلام المعتزلة الذي تلقيتموه عنهم ، وليس لكم على ذلك حجة ، لا عقلية ولا شرعية ،

وقد اعترف فضلاؤكم بأن هذا القول يلزم جمهور الطوائف . وقال لكم منازعوكم : قد دل على هذا الأصل الأدلة الشرعية والعقلية .

و « الفريق الثالث » يقول لكم : هب أنها محدثة أهي محدثة الأعيان أم نوعها محدث ؟ فإن قلتم : إن كل فرد من أفرادها محدث لم ينفعكم . وإن قلتم بل النوع محدث لا متناع حوادث لا تتناهى . قيل لكم : هذا مما ينازعكم فيه جمهور أهل الحديث ، مع جمهور الفلاسفة ، وينازعكم فيه أئمة الملل وأئمة النحل ، وينازعكم فيه الأئمة من أهل التوراة والإنجيل ، والقرآن ، والأئمة ؛ من الصابئة ، والفلاسفة ، والمجوس وغيرهم ، وإنما ابتدع هذا القول فى الإسلام طائفة من أهل الكلام ، الذين ذمهم أئمة الدين ، وأعلام المسلمين ، وهذا القول ليس معلوماً بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا قاله أحد من السلف والأئمة ، وإنما هو قول مبتدع ، ومبتدعه يزعم أن العقل دل عليه . ويثبت به حدوث العالم ، والعلم بإثبات الصانع .

وهؤلاء يقولون له : العقل يدل على نقيضه ، وأنه مناف مضاد لحدوث العالم ، ولإثبات الصانع . وهذا مبسوط فى موضعه ؛ وإنما المقصود التنبيه على ما فى هذا الكلام من موارد النزاع ، ومواقع الإجماع .

وقول القائل : كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق ، فكذلك لقوله الحق . فهذا من جنس سجع الكهان ، الذي لا يقيم حقاً ولا يبطل باطلا ، فهل تقول إن كل ما وصف به الرب من الصفات يتصف به كل ما له من الكلمات ، أو غيرها من الصفات ؟ ، وإذا قيل : إن الرب تعالى إله قادر ، خالق معبود ، فهل يجب أن يكون شيء من كلماته وصفاته إلهاً قادراً ، خالقاً ، معبوداً ؟ وهذا القول يضاهي قول النصارى ، الذين قالوا : كما أن أقنوم الوجود إله ، فكذلك أقنوم الكلمة والروح ، فيثبتون للصفات الإلهية التى أثبتوها للذات .

والرب تعالى له كلام قائم بمحل لا يوجد بغيره ، إذ لا بد للكلام من محل لا يوجد الكلام بدونه ، فهل يجب أن يفتقر الرب إلى محل يقوم به ، كما يفتقر الكلام إلى ذلك ؟ ولكن يجب تنزيه كلامه عن كل نقص وعيب ؛ إذ هو المستحق للكمال فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . ويمتنع أن يخلو عن صفات الكمال من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك من صفات الكمال ، مع أنه يتصف بها بعض مخلوقاته ، فالموصوف الواجب الوجود القديم الأزلي أحق بصفات الكمال من المخلوقات ، وكل كمال ثبت لمخلوق فمن الخالق استفاده ، والخالق أوهبه إياه ، وأعطاه فواهب الكمال ، ومعطيه أحق به ، وأولى .

وهذا مما يعبر عنه كل قوم باصطلاحهم ، حتى تقول المتفلسفة :

كل كمال ثبت للمعلول فهو [من] كمال العلة . ومعلوم أن المخلوق الذي خلق من قبل ، ولم يك شيئاً ليس له من نفسه شيء أصلا ؛ بل كل ماله فمن خالقه سبحانه وتعالى .

وأما قوله : ولتعلم أن الحرف اللساني والحرف البناني : كلاهما مقيد بزمان ، يصرفه المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن أن تكتنفه الحدثان ، فقد عرف منازعة المنازعين له فى هذا ، ولم يذكر إلا مجرد الدعوى ، وقد علم أن تصور الدعوى معلوم الفساد بالضرورة عند أكثر العقلاء ، وأن الدليل عليها مقدمات ينازعه فيها جمهور العقلاء ، وآخرها ينتهي إلى مقدمات تلقوها عن شيوخهم المعتزلة ؛ فإن الكلابية والأشعرية إنما أخذوا مقدمات هذا الكلام ، ومادته منهم . وقد عرف حالهم فى ذلك .

وقوله المولى متكلم قبل الزمان ، إن أراد أنه سبحانه وتعالى قبل السموات والأرض ، والليل والنهار ، وقبل جميع المخلوقات ، فهذا حق ؛ لكن من أين له أن كل ما كلم به عباده ، ويكلمهم به يوم القيامة ، يجب أن يكون قبل جميع المخلوقات ؟ ومن أين له أنه قبل خلق العالم كان منادياً لموسى ، قائلا له : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ) ؟

وإن أراد أنه سبحانه وتعالى قبل ما يوصف بالقبل فهذا ممتنع، فإنه سبحانه موصوف بأنه الأول قبل كل شيء، وإن أراد بذلك أن الزمان مقدار الفعل والحركة، وأن ذلك ممتنع في الأزل، فقد عرف أن أئمة الملل والنحل ينازعونه فى هذا، مع اتفاق أهل الملل على أن الله خالق السموات والأرض فى ستة أيام، وقوله: إن الحرف والصوت أداتان يعبر بهما عن المعنى القائم بذات الله، كما يعبر الإنسان عما قام به من الطلب: تارة بالبنان، وتارة باللسان، وتارة بالرأس عند طلب الرواح، وعند طلب الإتيان، فهذا مذهب الحق، ومركب الصدق.

فيقال له: هذا عليه اعتراضات:

« أحدها » أن يقال: ما ذلك المعنى القائم بالذات؟ أهو واحد كما يقوله الأشعري، وهو عنده مدلول التوراة، والإنجيل، والقرآن ومدلول آية الكرسي والدين. ومدلول سورة الإخلاص وسورة الكوثر؟ أم هو معان متعددة؟ فإن قال بالأول: كان فساده معلوماً بالاضطرار ثم يقال: التصديق فرع التصور، ونحن لا نتصور هذا، فبين لنا معناه. ثم تكلم على إثباته. فإن قال: هو نظير المعانى الموجودة فينا كان هذا الكلام بعد النزول عما يحتمله من التشبيه والتمثيل باطلا؛ لأن الذي فينا معان متعددة متنوعة، وإما معنى واحد هو أمر بكل مأمور به، وخبر عن كل مخبر عنه، فهذا غير متصور.

« الثانى » أن يقال : هب أنه متصور . فما الدليل على ثبوته ؟ وما الدليل على قدمه ؟ .

« الثالث » أن يقال : قولك الصوت والحرف عبارة عنه . أتعنى به الأصوات المسموعة من القراء ، أو الحروف الموجودة في التلاوة والمصاحف ، وإما حروفاً وأصواتاً غير هذه . فإن قلت بالأول كان باطلا من وجوه :

« أحدها » : أنه كل من أجاد القراءة عبر عما فى نفس الله ، من غير أن يكون الله عبر عما فى نفسه ، فيكون المخلوق أقدر من الخالق .

« الثانى » أن كثيرا من القراء أو أكثرهم لا يفقهون أكثر معانى القرآن ، والتعبير عما فى نفس المعبر فرع على معرفته ، فمن لم يفهم جميع معانى القرآن — كلام الله — فكيف يعبر عن تلك المعانى ؟ !

« الثالث » أن الناس لا يفهمون معانى القرآن ، إلا بدلالة ألفاظ القرآن على معانيه ؛ فإذا سمعوا ألفاظه وتدبروه كان اللفظ لهم دليلا على المعانى ، والمستدل باللفظ على المعنى الذي أراده المتكلم يمتنع أن يكون هو المعبر باللفظ عن المعنى ، فإن المعبر باللفظ عن المعنى يعرف المعنى أولا ،

ثم يدل غيره عليه بالعبارة ، والناس فى القرآن على ضد هـذه الحال : فيمتنع أن يكونوا هم المعبرين به .

« الرابع » أن كل واحد منهم يعلم أنه تعـلم القرآن العربى من غيره ، وأنه ليس له فيه إلا الحفظ ، والتبليغ ، والأداء ؛ بل يعـلم أنه إذا حفظ خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، لم يـكن هو المعبر عما في أنفسهم بذلك الكلام ؛ بل يكون الـكلام كلامهم ، وهو قـد حفظه ، وأداه ، وبلغه . فكيف بكلام رب العالمين ؟!

« الخامس » أن كل واحد يعلم بالاضطرار أن نفس القرآن العربى كان موجوداً قبل وجود كل القراء ، وأن الناس إنمـا تلقوه عن محمد صلى الله عليه وسـلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

و « بالجملة » فالدلالة على فساد هذا القول أكثر من أن تحصر .

وإن قلت : بـل الحروف والأصوات المعبر بهـا عن المعانى التى أرادها الله من حروف وأصوات كانت موجودة قبـل وجود القراء : ولكن كل من القراء حفظ ذلك النظم العربى ، الذي كان موجوداً قبله قيل لك : فحينئذ قـد كان ثم حروف وأصوات غير هـذه الأصوات المسموعة من القراء ، وغير المداد المـكتوب فى المصاحف ، وهـذا هو

الحق الذي اتفق عليه جميع الخلق .

فقول القائل : إنه ما ثم إلا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والأصوات ليس بحق . ويقال له حينئذ : فتلك الحروف والأصوات أهي من كلام الله الذي تكلم به ؟ أم هي مخلوقة خلقها في غيره ؟ فإن قلت : هي من كلام الله تعالى لزمك ما فررت منه ، حيث أقررت أن لله كلاماً هو حروف وأصوات ، كما يقوله جمهور المسلمين . وإن قلت : ليست كلاماً لله فهذه أولى من أن تكون كلاماً لله . وحينئذ فلا يكون هذا القرآن كلام الله ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام .

وأما قوله : من قال لفظي عين كلام الله : فقد انسلخ عن ربقة العقل ، وغرق فى بحر العماية والجهل . فيقال : قول القائل : [لفظي] « عين كلام الله » كلام مجمل . فإن « اللفظ » فى الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، كما أن « التلاوة ، والقراءة » فى الأصل مصدر تلا يتلو ، وقرأ يقرأ ، ويعبر باللفظ والتلاوة ، والقراءة عن نفس الكلام الملفوظ به ، المتلو المقروء .

فإن الناس إذا قالوا : اللفظ يدل على المعنى . لم يريدوا باللفظ المصدر ؛ بل يريدون به الملفوظ به . وإذا قالوا لمن سمعوه يتكلم : هذه ألفاظ حسنة ، أرادوا به ما يلفظه ، كما قال تعالى : (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) يراد باللفظ نفس الفعل ، وقد يراد به نفس القول الذي لفظه اللافظ . وهذا كـ « القرآن » قـد يراد به المصدر ، وقد يراد به الكلام المقروء . وقال تعالى : (إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ) والقرآن هنـا مصدر ، كما فى الآيـة عن ابن عباس ، قال : علينا أن نجمعه فى صدرك ، ثم أن تقرأه بلسانك ، فإذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته . ثم إن علينا أن نبينه .

وقـد يراد بـ « القرآن » نفس الكلام المقروء ، كما قال : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ) وقوله : (إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ) وقال تعالى : (لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ) وقال تعـالى : (قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ)
ونظائره كثيرة .

وإذا كان كذلك : فقول القائل لفظي : هو عـين كلام الله . إن أراد به المصدر فقد أخطأ ، فإن نفس حركاتـه ليست هي كلام الله ، وهذا لا يقوله أحد يفهم ما يقول .

وإن أراد « الثاني » : كان المعنى أن هذا القرآن الذي أتـلوه هو عين كلام الله ، وهذا هو الذى يقصده الناس ، إذا قالوا : الذي يقرأ

القراء عين كلام الله ، وهـذا الذى نسمعه من القراء عـين كلام الله ، وهذا الذي يقرأ فى الصلاة عـين كلام الله ، لا يقصد أحـد أن يجعل حركات العباد نفس كلامه .

ثم إذا قال القائل هذا فقد وافق قول الله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) بل قـد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن هذا الذي يقرؤه المسلمون، ويكتبونه فى مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره . تارة يسمع منه كما سمعه موسى ابن عمران ، وتارة يسمع من المتلقين عنه كما سمعه الصحابة من الرسول ، فهذا الذي نسمعه هو كلام الله ، متلقى عنه مسموعا من المبـلغ عنه . قال تعالى : (وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ) وقال تعالى : (لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ) . والناس يعلمون أن الـكلام كلام من قاله آمراً بأمره ، مخبراً بخبره ، مبتدئاً به ، لا كلام من بلغه عن غيره وأداه .

فالناس يقرؤون القرآن ، وليس هو كلامهم ؛ ولكنه كلام يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم . وإذا كان كلام النبي صلى الله عليه وسـلم وكلام غيره إذا رواه الناس عنـه ، وبلغوه وقرؤوه ، فهو كلام النبي صـلى الله عليـه وسلم ، وغيره من المتكلمين بذلك الـكلام ، والنبي صـلى

الله عليه وسلم تكلم بلفظه ، ونظمه ، ومعناه ، وتكلم به بحروف وأصوات ، مع أن أصوات الرواة ليست صوت النبي صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن إذا قرأه الناس وبلغوه بأصواتهم وأفعالهم : كان أولى بان يكون كلام الله ، وإن كانوا لم يسمعوه من الله ؛ بل من الخلق .

ومما ينبغي أن يعلم : أن قول الله ورسوله والمؤمنين أن هذا كلام الله ؛ بل قول الناس لما بلغ من كلام المخلوقين أن هذا كلام فلان حق ، كما انفق على ذلك الناس ؛ لكن عرضت شبهة لكثير من المتنطعين ، فلم يفرقوا بين ما إذا سمع كلام المتكلم به . وبين ما إذا سمع من غيره ، فظنوا أنه إذا قال : (فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) كان بمنزلة سماع موسى كلام الله .

فقالت « طائفة » المسموع أصوات العباد ؛ وكلام الله ليس هو أصوات العباد ، فلا يكون المسموع كلام الله .

وقالت « طائفة » بل هذا كلام الله ، وهذا مخلوق ؛ فكلام الله مخلوق .

وقالت « طائفة » : بل هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فهذا غير مخلوق .

وهذا إذا أطلقوه « مجمـلاً » فهو حق ؛ لكن قال بعضهم : هـذا لفظي أو تلاوتي أو صوتى ؛ فلفظي أو تلاوتى أو صوتى غير مخلوق ؛ فضلوا كما ضل غيرهم ؛ ولو اهتدوا لعلموا أنـا إذا قلنا : هذا كلام الله فلم نشر إليه بما امتاز قارئ عن قارئ ، إذا كان من المعلوم أنه مـا يسمع مـن كل قارئ فهو كلام الله ، مع العلم بأن صوت هذا القارئ ليس هو صوت هذا القارئ فقد اتحد من جهة كونه كلام الله . واختلف من جهة أصوات القراء . وهو كلام الله باعتبار الحقيقة المتحدة ، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال القراء .

وهذا لأن الـكلام إنما يقصد به لفظه ومعناه ، ولفظه هو الحروف المقروءة المنظومة . وإن كانت الحروف أصواتاً مقطعة ، أو هي أطراف الأصوات المقطعة ، فهي من الكلام باعتبار صورتها الخاصة من التقطيـع والتأليف ، لا باعتبار المادة الصوتية التى يشترك فيهـا جميـع الصائتين ؛ ولهذا ما كان فى الكلام من بلاغـة وبيان ، وحسن تأليف ونظـم ، وكمال معان وغـير ذلك ، فهو للمتكلم بلفظه ومعناه ، ليس هو لمجرد صفات الذي بلغه وأداه .

وأما قول القائل : من قال إن مذهب جهم بن صفوان هو مذهب الأشعري أو قريب أو سواء معه فهو جاهل بمذهب الفريقين ؛ إذ الجهميـة

قائلون بخلق القرآن ، وبخلق جميع [1]

والأشعري يقول بقدم القرآن ، وإن كلام الإنسان مخلوق للرحمن
فوضح للبيب كل من المذاهب الثلاثة .

فيقـــال : لا ريب أن قول ابن كلاب والأشعري ، ونحوهما من المثبتة للصفات ليس هو قول الجهمية ، بل ولا المعتزلة ، بل هؤلاء لهم مصنفات فى الرد على الجهمية والمعتزلة ، وبيان تضليل من نفاهـا ، بل هم تارة يكفرون الجهمية والمعتزلة ، وتارة يضللونهم . لا سيما والجهم هو أعظم الناس نفيا للصفات ، بل وللأسماء الحسنى . قوله من جنس قول الباطنية القرامطة ، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئاً ، ولا غير ذلك من الأسماء التى يسمى بها المخلوق ؛ لأن ذلك بزعمه من التشبيه الممتنع . وهذا قول القرامطة الباطنية .

وحكى عنه أنه لا يسميه إلا « قادراً فاعلا » ؛ لأن العبد عنـــده ليس بقادر ولافاعل ، إذ كان هو رأس المجبرة . وقوله فى الإيمان شر من قول المرجئة ، فإنه لا يجعل الإيمـــان إلا مجرد تصديق القلب . و « ابن كلاب » إمام الأشعرية أكثر مخالفة لجهم ، وأقرب إلى السلف

---

(١) بياض بالاصل .

من الأشعري نفســه ، والأشعري أقرب إلى السلف من القــاضي أبي بكر الباقلاني . والقاضي أبو بكر وأمثــاله أقرب إلى السلــف من أبى المعالى وأتباعه ، فإن هؤلاء نفوا الصفات : كالاستواء ، والوجه ، واليدين .

ثم اختلفوا هل تتأول أو تفوض ؟ على قولين أو طريقين ، فأول قولي أبى المعالي هو تأويلهــا ، كما ذكر ذلك في « الإرشاد » وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في « الرسالة النظامية » واستدل بإجماع السلف على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب .

وأما « الأشعري » نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم فى إثبات الصفات الخبرية ، وفى الرد على من يتأولها ، كمن يقول : استوى بمعنى استولى . وهذا مذكور فى كتبه كلها ، كـ « الموجز الكبير » و « المقالات الصغيرة ، والكبيرة » و « الإبانة » وغير ذلــك . وهكذا نقل سائر الناس عنه ، حتى المتأخرون ، كالرازي والآمدي ينقلون عنــه إثبات الصفات الخبرية ، ولا يحكون عنه فى ذلك قولين .

فمن قال : إن « الأشعري » كان ينفيها ، وأن له فى تأويلها قولين : فقد افترى عليــه ؛ ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحــابه ، كأبي المعــالي ونحوه ؛ فإن هؤلاء أدخلوا فى مذهبــه أشياء مــن أصول المعتزلة .

و « الأشعري » ابتلى بطائفتين : طائفة تبغضه ، وطائفة تحبه ، كل منهما يكذب عليه ويقول : إنما صنف هذه الكتب تقية ، وإظهارا لموافقة أهل الحديث والسنة ، من الحنبلية وغيرهم . وهذا كذب على الرجل ، فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التى أظهرها ، ولا نقل أحد من خواص أصحابه ، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة فى مصنفاته ؛ فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعا وعقلا ؛ بل من تدبر كلامه فى هذا الباب — فى مواضع — تبين له قطعا أنه كان ينصر ما أظهره ؛ ولكن الذين يحبونه ويخالفونه فى إثبات الصفات الخبرية يقصدون نفى ذلك عنه ، لئلا يقال : إنهم خالفوه ، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة ، قد اقتدوا فيه بحجته التى على ذكرها يعولون ، وعليها يعتمدون .

و « الفريق الآخر » : دفعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول ، ولكونهم اتهموه بالتقية ، وليس كذلك ، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة ، التى خالفهم فيها المعتزلة ؛ كمسألة « الرؤية » و « الكلام » وإثبات « الصفات » ونحو ذلك ؛ لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة ، وخبرته بالسنة خبرة مجملة ؛ فلذلك وافق المعتزلة فى بعض أصولهم التى التزموا لأجلها خلاف السنة ، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول ، وبين الانتصار

للسنة ، كما فعل فى مسألة الرؤية والكلام ، والصفات الخبرية وغير ذلك .

والمخالفون له من أهل السنة والحديث ، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون : إنه متناقض ، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنة ، كما أن المعتزلة يتناقضون فيما نصروا فيه دين الإسلام ، فإنهم بنوا كثيراً من الحجج على أصول تناقض كثيراً من دين الإسلام ؛ بل جمهور المخالفين للأشعري من المثبتة والنفاة يقولون : إنما قاله فى مسألة الرؤية ، والكلام معلوم الفساد بضرورة العقل .

ولهذا يقول أتباعه : إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا فى « مسألة الرؤية ، والكلام » ؛ فلما كان فى كلامه شوب من هذا وشوب من هذا : صار يقول من يقول إن فيه نوعا من التجهم . وأما من قال : إن قوله قول جهم فقد قال الباطل . ومن قال : إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل ، والله يحب الكلام بعلم وعدل ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وتنزيل الناس منازلهم .

وقول جهم هو النفي المحض لصفات الله تعالى ، وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية ، ومنحرفي المتفلسفة : كالفارابي وابن سينا . وأما مقتصدة الفلاسفة كأبى البركات صاحب المعتبر ، وابن رشد الحفيد ــ ففي قولهم من الإثبات ما هو خير من قول جهم ؛ فإن المشهور عنهم إثبات الأسماء

الحسنى ، وإثبات أحكام الصفات ، ففي الجملة قولهم خير من قول جهم ، وقول ضرار بن عمرو الكوفي خير من قولهم .

وأما ابن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب ، بل هؤلاء معروفون بالصفاتية ، مشهورون بمذهب الإثبات ؛ لكن فى أقوالهم شيء من أصول الجهمية ، وما يقول الناس إنه يلزمهم بسببه التناقض ، وإنهم جمعوا بين الضدين ، وإنهم قالوا ما لا يعقل ، ويجعلونهم مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهذا وجه من يجعل فى قولهم شيئا من أقوال الجهمية ، كما أن الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يقولون : افترقت الجهمية على « ثلاث فرق » : فرقة يقولون : القرآن مخلوق . وفرقة تقف ولا تقول مخلوق ولا غير مخلوق . وفرقة تقول : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة .

ومن المعلوم أنهم إنما أرادوا بذلك افتراقهم فى « مسألة القرآن » خاصة ، وإلا فكثير من هؤلاء يثبت الصفات والرؤية ، والاستواء على العرش . وجعلوه من الجهمية فى بعض المسائل : أي أنه وافق الجهمية ، فيها : ليتبين ضعف قوله ، لا أنه مثل الجهمية ولا أن حكمه حكمهم ؛ فإن هذا لا يقوله من يعرف ما يقول .

ولهذا عامة كلام أحمد إنما هو يجهم اللفظية ، لا يكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية ، وقد نسب إلى هذا القول غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث : كالحسين الكرابيسي ، ونعيم

ابن حماد الخزاعي ، والبويطي ، والحارث المحاسبي ، ومن الناس من نسب إليه البخاري .

والقول بأن « اللفظ غير مخلوق » نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ؛ بل وبعض الناس ينسبه إلى أبي زرعة أيضاً ، ويقول إنه هو وأبو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي ، والقصة فى ذلك مشهورة .

وبعد موت « أحمد » وقع بين بعض أصحابه وبعضهم ، وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب ، وكان أهل الثغر مع محمد بن داود ، والمصيصي شيخ أبي داود ، يقولون بهذا . فلما ولى صالح بن أحمد قضاء الثغر : طلب منه أبو بكر المروذي أن يظهر لأهل الثغر « مسألة أبى طالب » فإنه قد شهدها صالح وعبد الله ابنا أحمد ، والمروذى ، وفوران ، وغيرهم . وصنف المروذي كتاباً فى الإنكار على من قال : إن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأرسل فى ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، وخراسان وغيرهم ؛ فوافقوه . وقد ذكر ذلك أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة » وبسط القول فى ذلك .

ومع هذا فطوائف من المنتسبين إلى السنة ، وإلى أتباع أحمد ، كأبى عبد الله بن منده ، وأبى نصر السجزي ، وأبى إسماعيل الأنصاري

وأبي العلاء الهمداني وغيرهم يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق . ويقولون : إن هذا قول أحمد . ويكذِّبون – أو منهم من يكذب – برواية أبي طالب ، ويقولون : إنها مفتعلة عليه ، أو يقولون رجع عن ذلك ، كما ذكر ذلك أبو نصر السجزى ، فى كتابه « الإبانة » المشهور .

وليس الأمر كما قاله هؤلاء ؛ فإن أعلم الناس بأحمد وأخص الناس وأصدق الناس فى النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه ؛ ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق ، الذين هم أخص به . وأعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان ، وتُعُصِّب فيها على البخارى – مع جلالته وإمامته – وإن كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة أجلاء ، فالبخاري – رضي الله عنه – من أجل الناس .

وإذا حسن قصدهم ، واجتهد هو وهم ، أثابه الله وإياهم على حسن القصد والاجتهاد . وإن كان قد وقع منه أو منهم بعض الغلط والخطأ فالله يغفر لهم كلهم ؛ لكن من الجهال من لا يدري كيف وقعت الأمور ، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين ، يقول : مات البخاري بقرية خرتنك ، فأرسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم أن [لا] يصلوا عليه لأجل قوله فى « مسألة اللفظ » وهذا من أبين الكذب على أحمد والبخاري ، وكاذبه جاهل بحالهما . فإن البخاري – رضي الله عنه – توفى سنة ست وخمسين ، بعد موت أحمد بخمسة عشر

سنة ، فإن أحمد توفى سنة إحدى وأربعين ، وكان أحمد مكرما للبخاري معظما . وأما تعظيم البخاري وأمثاله لأحمد فهذا أظهر من أن يذكر .

والبخاري ذكر فى كتابه فى « خلق الأفعال » أن كلتا الطائفتين لا تفهم كلام أحمد . ومن الطائفة الأخرى المنتسبة إلى السنة ، وأتباع أحمد : أبو نعيم الأصبهانى ، وأبو بكر البيهقي ، وغيرهما ممن يقول : إنهم متبعون لأحمد ، وإن قولهم فى « مسألة اللفظ » موافق لقول أحمد . ووقع بين ابن منده وأبي نعيم بسبب ذلك مشاجرة ، حتى صنف أبو نعيم كتابه في « الرد على الحروفية الحلولية » ، وصنف أبو عبد الله كتابه فى الرد على « اللفظية » .

والمنتصرون للسنة – من أهل الكلام والفقه : كالأشعري ، والقاضي أبي بكر بن الطيب ، والقاضي أبي يعلى وغيرهم – يوافقون أحمد على الإنكار على الطائفتين ، على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وعلى من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، ولكن يجعلون سبب الكراهة كون القرآن لا يلفظ ؛ لأن اللفظ الطرح والرمي .

ثم هؤلاء منهم من ينكر تكلم الله بالصوت ، ومنهم من يقر بذلك ؛ بل منهم من يقول إن الصوت المسموع هو الصوت القديم ، وينكرون مع ذلك على من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، لظنهم أن الكراهة

فى ذلك لما فيه من الطرح والرمي ، وليس الأمر على ما ظنوه . فإن الإمام أحمد وغيره من الأئمة لم ينكروا قول القائل : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق لكون اللفظ الطرح ، فإنه لو كان كذلك لما أنكروا إلا مجرد ما يتصرف من حروف لفظ يلفظ ، وليس كذلك ؛ بل أنكروا على من قال التلاوة والقراءة مخلوقة ، وعلى من قال : تلاوتي وقراءتى غير مخلوقة ، مع جواز قول المسلمين : قرأت القرآن وتلوته .

و « أيضاً » فإنه يجوز أن يقال : لفظت الكلام وتلفظت به ، كما قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ولكن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة قالوا : من قال : لفظي بالقرآن وتلاوتى أو قراءتى مخلوقة فهو جهمي . ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع لأن « اللفظ » و « التلاوة » و « القراءة » يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومصدر قرأ يقرأ قراءة ، وتلا يتلو تلاوة ، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته ، ليس هو بقديم باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، حتى القدرية القائلون بأن أفعال العباد غير مخلوقة . يقولون : إن ذلك ليس بقديم . ويقولون إنه مخلوق لله .

والسلف والأئمة — كحماد بن زيد ، والمعتمر بن سليمان ، ويحيى ابن سعيد القطان ،وأحمد بن حنبل وغيرهم — أنكروا على من قال : إن

أقوال العباد وأفعالهم غير مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة . وقال بعض هؤلاء : من قال إن هـذا غير مخلوق فهو بمنزلة من قال : إن سماء الله وأرضه غير مخلوقة .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة واللفظ نفس القرآن ، الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هـو كلام الله . ومـن قال إن كلام الله الذي أنزله على نبيه مخلوق فهو جهمي ؛ ولهـذا قال أحمـد وغيره من السلف : القرآن كلام الله حيث تصرف غير مخـلوق ، ولم يقل أحد من السلف والأئمة إن أصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة أو قديمة ، ولا قال أيضاً أحد منهم : إن المداد الذي يكتب به القرآن قديم ، أو غير مخلوق . فمن قال إن شيئاً من أصوات العباد ، أو أفعالهم أو حركاتهم ، أو مدادهم : قديم ، أو غير مخلوق فهو مبتدع ضال ، مخالف لإجماع السلف والأئمة .

وقد بدع أحمد بن حنبل من هو أحسن حالا من هؤلاء ، وأمر بهجرهم إن لم يرجعوا عن بدعتهم .

و « مسألة القرآن » قد كثر فيهـا اضطراب الناس ، حتى قال بعضهم : مسألة الكلام حيرت عقول الأنام . وغالبهم يقصدون وجها من

الحق ، ويعزب عنهم وجه آخر ، وكلام الأئمة من أشد الكلام ، كأحمد ابن حنبل ومن قبله من أئمة المسلمين ، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر الأئمة الذين لهم فى الأمة لسان صدق : مثل سعيد ابن المسيب ، وعلى بن الحسين ، وعلقمة ، والأسود ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وغيرهم من التابعين . ومثل مالك ، والثوري ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وأبي حنيفة ، وابن أبي ليلى ، وشريك ، وأمثالهم من تابعي التابعين ، ومثل الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وأبى عبيد ، وأمثالهم من أتباع تابعي التابعين .

وهم أئمة أهل القرون الثلاثة ، الذين دخلوا في ثناء النبى صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ومن تدبر كلام أئمة المسلمين في هذا الباب وغيرهم وجده أشد الكلام المطابق لصريح المعقول ، وصحيح المنقول . وهذه الجملة لا تحتمل البسط هنا ، فقد بسطت فى غير هذا الموضع ، وبين أن « الكلام المذموم » الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، المخالف لصحيح المنقول ، وصريح المعقول ؛ وأن ما ثبت بالأدلة القطعية لا يتعارض ولا يتناقض أصلا ، فلا يتعارض دليلان يقينيان أصلا ، سواء كانا عقليين

أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعيا ، ومن ظن أنهما يتعارضان كان ذلك خطأ منه ؛ لاعتقاده فى أحدهما أنه يقيني ، ولا يكون كذلك ، ولا سيما إذا كانا جميعاً غير يقينيين .

واختلاف الناس فى هذا الباب وغيره كثير منه يكون « اختلاف تنوع » مثل أن يقصد هذا حقاً فيما يثبته ، والآخر يقصد حقاً فيما نقضه ، وكلاهما صادق . لكن يظنان أن بينهما نزاعاً معنوياً ، ولا يكون الأمر كذلك ، وكثير من النزاع يعود إلى إطلاقات لفظية ، لا إلى معان عقلية ، وأحسن الناس طريقة من كان إطلاقه موافقاً للإطلاقات الشرعية ، والمعانى التى يقصدها معان صحيحة ، تطابق الشرع والعقل (١)

وأصل منشأ نزاع المسلمين فى هذا الباب : أن المتكلمين — من الجهمية ، والمعتزلة ، ومن اتبعهم — سلكوا فى إثبات حدوث العالم ، وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة فى الشرع ، مضطربة في العقل ، وأوجبوها ، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها ، وتلك الطريق فيها مقدمات مجملة ، لها نتائج مجملة ، فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع ، ومقتضى العقل ، فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية ، ولم يحرروا ما اقتضته الدلائل العقلية ، وذلك أنهم قالوا : لا يمكن معرفة

---

(١) بياض بالأصل .

الصانع إلا بإثبات حدوث العالم ، ولا يمكن إثبات حدوث العـالم إلا بإثبات حدوث الأجسام.

قالوا : والطريق إلى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض عـلى حدوث ما قامت به الأعراض ، فمنهم من استدل بالحركة والسكون فقط ومنهم من احتج بالأكوان التى هي عندهم الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون . ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً . ومبنى الدليـل على أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

فيقول لهم المعارضون ـــ من أهل الملل وغيرهم ، القـائلون بأن السموات والأرض محدثة عن عدم ،والقائلون بأن الأفلاك قديمة أزلية ـــ حدوث الحوادث بعد أن لم تكن أمر حادث . فلا بد له مـــن سبب حادث ، والإلزم ترجيح أحد طرفى الممكن بلا مرجح .

وقال لهم القائلون بحدوث الأفلاك ، من أهـــل الملل وغيرهم : أنتم أثبتم حدوث العالم بطريق ، وحدوث العالم لا يتم إلا مـــع نقيض ما أثبتموه . فما جعلتموه دليلا على حدوث العالم لا يدل عـلى حدوثه ؛ بل ولا يستلزم حدوثه . والدليل لابد أن يـــكون مستلزماً المدلول ؛ بحيث يلزم مـــن تحقق الدليل تحقق المدلول ؛ بـــل هو مناف لحدوث العالم مناقض له ، وهو يقتضى امتناع حدوث العالم ، بل امتناع حدوث

شيء من الأشياء . وهذا يقتضي بطلانه في نفسه ، وإنه لو صح لم يدل إلا على نقيض المطلوب ، ونقيض ما يقوله كل عاقل .

فإن كل عاقل يعلم حدوث الحوادث في الجملة ، سواء قيل بقدم الأفلاك أم لم يقل بذلك ؛ وذلك أن مبنى دليلكم على أن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وأن الإرادة الأزلية — التى نسبتها إلى جميع المرادات على السواء — رجحت مراداً على مراد بلا مرجح ، غير المرجح الذي نسبته إلى جميع المرجحات نسبة واحدة لا يتفاضل .

ومن المعلوم أن القول بترجيح وجود الممكن على عدمه بلا مرجح ، أو ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا سبب يقتضى ذلك باطل فى بديهة العقل . ولو قيل : إن ذلك صحيح لبطل الدليل الذي يستدل به على ثبوت الصانع ، وحدوث العالم ، فإن مبنى الدليل على أن المحدث لا بد له من محدث ، وذلك يستلزم أن ترجيح الحدوث على العدم لابد له من مرجح ، ولا بد أن يكون المحدِث المرجِح قد حدث منه ما يستلزم وجود المحدث ، الذي جعله موجوداً ، وإذا لم يلزم وجوده كان وجوده جائزاً ممكناً : فكان محتملا للوجود والعدم .

فترجيح الوجود على العدم لا بد له من مرجح محدث له ، فكل

ما أمكن حدوثه إن لم يحصل له ما يستلزم حدوثه لم يحصل ، فما شاء الله كان لا محـالة ووجب وجوده بمشيئة الله ، ومالم يشأ لم يكن ؛ بل يمتنع وجوده مع عدم مشيئة الله تعالى له ، فما شاء الله حدوثه كان لازم الحـدوث ، واجب الحـدوث بمشيئة الله لا بنفسه ، ومالم يشـأ حدوثه كان ممتنع الحدوث ، لازم العدم ، واجب العدم ؛ لأنه لم توجد مشيئة الله المستلزمة لحدوثه .

ثم إن الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم قالوا : ما ذكرتموه من الدليل لايدل على الحدوث ؛ بل يقتضى عدم الحدوث ؛ لأن حدوث الحوادث بعد أن لم تكن عن ذات لم تزل معطلة من الفعل باطل ، فيكون العالم قديماً ، وعبروا عن ذلك بأن جميع الأمور المعتبرة فى كونه فاعـلا إن وجـدت فى الأزل لزم وجود الفعـل فى الأزل ، وإلا لزم تخلف المقتضَى عن المقتضِى التام .

وحينئذ فإذا وجد ت بعد ذلك لزم الترجيح بـلا مرجح ، وإن لم توجد فى الأزل فوجودها بعد ذلك أمر حادث ؛ فيقتضى أمرا حادثاً ، وإلا لزم الحدوث بلا محدث ، وحينئذ فيـلزم تسلسل الحوادث ، فإن القول فى هـذا الحـادث كالقول في غيره . وهـذا مما تنكره المعتزلة وموافقوهم المتكلمون . قالوا : فأنتم بين أمرين : إمـا إثبات التسلسل فى الحوادث ، وإما إثبات الترجيح بلا مرجح ، وكلاهما ممتنع عندكم .

ثم زعم هؤلاء الفلاسفة أن العالم قديم بناء على هذه الحجة، ومن سلك سبيل السلف والأئمة أثبت ما أثبتته الرسل من حدوث العالم بالدليل العقلي، الذي لا يحتمل النقيض، وبين خطأ المتكلمين من المعتزلة ونحوهم، الذين خالفوا السلف والأئمة بابتداع بدعة مخالفة للشرع والعقل وبين أن ضلال الفلاسفة — القائلين بقدم العالم، ومخالفتهم العقل، والشرع — أعظم من ضلال أولئك، وبين أن الاستدلال على حدوث العالم لا يحتاج إلى الطريق التى سلكها أولئك المتكلمون، بل يمكن إثبات حدوثه بطرق أخرى عقلية صحيحة، لا يعارضها عقل صريح، ولا نقل صحيح. وثبت بذلك أن ما سوى الله فإنه محدث، كائن بعد أن لم يكن، سواء سمي جسما أو عقلاً أو نفساً أو غير ذلك.

فإن أولئك المتكلمين من المعتزلة وأتباعهم، لما لم يكن فى حجتهم إلا إثبات حدوث أجسام العالم، قالت الفلاسفة ومن وافقهم من المتأخرين — كالشهرستانى، والرازي، والآمدي وغيرهم — إنكم لم تقيموا دليلا على نفي ما سوى الأجسام. وحينئذ فإثبات حدوث أجسام العالم لا يقتضي حدوث ما سوى الله، إن لم تثبتوا أن كل ماسواه جسم، وأنتم لم تثبتوا ذلك؛ ولهذا صار بعض المتأخرين — كالأرموي ومن وافقه من أهل مصر، كأبى عبد الله القشيري — إلى أن أجسام العالم محدثة. وأما العقول والنفوس فتوقفوا عن حدوثها، وقالوا بقدمها،

وإن كان حقيقة قولهم إنه موجب بالذات لها ، وإنه محدث للأجسام بسبب حدوث بعض التصورات ، والإرادات ، التى تحدث للنفوس ، فيصير ذلك سبباً لحدوث الأجسام ، وهذا القول كما أنه معلوم البطلان في الشرع فهو أيضاً معلوم البطلان فى العقل ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

فنقول : الدليل الدال على أن كل ما سوى الله محدث يتناول هذا وهذا .

و « أيضاً » فإذا كان موجبا بالذات كان اختصاص حدوث أجسام العالم بذلك الوقت دون ما قبله وما بعده يفتقر إلى مخصص ، والموجب بذاته لا يصدر عنه ما يختص بوقت دون وقت ؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن موجبا بذاته ؛ ولجاز حدوث العالم عنه ، ولأن النفوس التى تثبتها الفلاسفة هي عند جمهورهم عرض قائم بجسم الفلك ؛ فيمتنع وجودها به بدون الفلك ، وعند ابن سينا وطائفة أنها جوهر قائم بنفسه ،لكنها متعلقة بالجسم تعلق التدبير والتصريف . وحينئذ فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن نفساً ؛ بل كانت عقلا ، فعلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم .

فإذا قال هؤلاء : إن النفس أزلية دون الأجسام كان هذا القول

باطلا بصريح العقل ، مع أنه لم يعرف به قائل من العقلاء قبل هؤلاء . وإنما ألجأ هؤلاء إلى هذا ظنهم صحة دليل المتكلمين على حدوث الأجسام، وصحة قول الفلاسفة بوجود موجود وممكن غير الأجسام : وإثبات الموجب بالذات ؛ فلما بنوا قولهم على الأصل الفاسد لهؤلاء ولهؤلاء : لزم هذا ، مع أنهم متناقضون فى الجمع بين هذين ؛ فإن عمدة المتكلمين على إبطال حوادث لا أول لها .

وعمدة الفلاسفة على أن المؤثرية من لوازم الواجب بنفسه ، فإذا قالوا بقدم نفس لها تصورات وإرادات لا تتناهى : لزم جواز حوادث لا تتناهى ؛ فبطل أصل قول المتكلمين الذي بنوا عليه حدوث الأجسام؛ فكان حينئذ موافقتهم المتكلمين بلا حجة عقلية ، فعلم أنهم جمعوا بين المتناقضين .

وأبو عبد الله ابن الخطيب وأمثاله كانوا أفضل من هؤلاء ، وعرفوا أنه لا يمكن الجمع بين هذا وهذا ، فلم يقولوا هذا القول المتناقض ، ولم يهتدوا إلى مذهب السلف والأئمة ، وإن كانوا يذكرون أصوله فى مواضع أخر ، ويثبتون أن جمهور العقلاء يلتزمونها ، فلو تفطنوا لما يقوم بذات الله من كلامه وأفعاله المتعلقة بمشيئته وقدرته ودوام اتصافه بصفة الكمال ، خلصوا من هذه المحارات .

ونحن ننبه على بعض الطرق العقلية ، التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله تعالى . فنقول :

من « الطرق » التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله هي أن يقال : لو كان فيما سوى الله شيء قديم لـكان صادرا عن علة تامـة ، موجبة بذاتها ، مستلزمة لمعلولها ، سواء ثبت له مشيئة أو اختيار ، أو لم يثبت ؛ فإن القديم الأزلي الممكن الذي لا يوجد بنفسه لا يتصور وجوده إن لم يكن له فى الأزل مقتض تام يستلزم ثبوته .

وهذا كما أنه معلوم بضرورة العقل فلا نزاع فيـه بـين العقلاء ، فلا يقول أحد : إن القديم الأزلي صادر عن مؤثر لا يلزمه أثره ، فلا يقول : إنه صادر عن علة غير تامة مستلزمة لغير معلولها ، ولا يقول : إنه صادر عن موجب بذاته لا يقارنه موجبه ومقتضاه ، ولا يقول : إنه صادر عن فاعل بالاختيار يمكن أن يتأخر مفعوله ؛ فإنه إذا أمكن تأخر مفعوله أمكن أن يكون ذلك القديم الأزلي قديما أزلياً ، فيكون ثبوته في الأزل ممكناً ، وليس فى الأزل ما يستـلزم ثبوتـه فى الأزل ، فيمتنع ثبوته فى الأزل ؛ فإن ثبوت الممكن الأزلي بدون مقتض تام مستلزم له ممتنع بضرورة العقل ؛ إذ قد علم بصريح العقل أن شيئاً من الممكنات لا يكون حتى يحصل المقتضى التام ، المستلزم لثبوته .

ومن نازع في هـذا من المعتزلة وغيرهم ، وقال إنـه لا ينتهي إلى حد الوجوب ؛ بل يكون الفعل بالوجود أولى منه بالعدم ، فإنه لم ينازع فى أن القادر المختار يمتنع أن يكون مقدوره المعـين أُزلياً ، مقارناً له ؛ بل هذا مما لم ينازع فيه لا هؤلاء ولا غيرهم .

فتبين أنه لو كان شيء مما سوى الله أزليا للزم أن يكون له مؤثر تام ، مستلزم له في الأزل ؛ سواء سمي عـلة تامة ، أُو موجبا بالذات ، أو قدر أنـه فاعـل بالإرادة ، وأن مراده المعـين يكون أزليا مقارناً له .

وإذا كان كذلك فنقول : ثبوت علة تامة أزلية ممتنع ، فإن العـلة التامة الأزلية تستلزم معلولهـا ، لا يتخلف عنهـا شيء من معـلولها ؛ فإنه إن تخلف عنها لم تكن علة تامة لمعلولها ؛ فيمتنع في الشيء الواحد أن يكون موجباً بذاته ، وأن يتخلف عنه موجبه أو شيء من موجبه ؛ فإن الموجب بالذات لشيء لابد أن يكون ذلك الموجب جميعـه مقارنـا لذاته ، والعلة التامة هي التى يقارنها معلولها . ولا يتأخر عنها شيء من معلولها ، فلو تأخر عنها شيء من معلولها لم تكن علة تامة لذلك المستأخر . والفلاسفة يسلمون أن ليس علة تامة فى الأزل لجميع الحوادث الـتى تحدث شيئاً بعد شيء ، فإن ذلك جمع بـين النقيضين ؛ إذ يمتنـع أن يكون علة تامة أزلية لأمر حادث عنه غير أزلي .

وإن شئت قلت : يمتنع أن يكون موجباً بذاتـه فى الأزل لأمر حادث ليس بأزلي ؛ سواء كان إيجابه بواسطة أو بغـير واسطة ، فإن تلك الواسطة إن كانت أزلية كان اللازم لهـا أزلياً ، وإن كانت حادثة كان القول فيها كالقول فى الحادث بتوسطها ، وهذا الذي سلموه معلوم أيضاً بصريح العقل ، فالمقدمة برهانية مسلمة ؛ لكن يقولون : إنه علـة تامة لما هو قديم كالأفلاك عندهم . وليس علة تامة للحوادث ، وهـذا أيضاً باطل .

وذلك أن كل ما يقـال : إنه قديم كالأفلاك ، إما أن يجب أن يكون مقارناً للحوادث كما يقولون فى الفلك : إنه يجب له لزوم الحركة ، وإنه لم يزل متحركاً ، وإما أنه لا يجب أن يـكون مقارناً لشيء من الحوادث ، فإن كان الأول لزم أن يكون عـلة تامة للحوادث ، وكونه علة تامة للحوادث محال ؛ لأن ما قارنته الحوادث ولم يخل منهـا بل هي لازمة له امتنع صدوره عن الموجب بدونهـا ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، وإذا كانت الحركة لازمـة للفلك ، كما يقولون : فوجود الفلك بدون الحركة محال ، فالموجب بذاته الذي هو علة تامة للفلك ، يجب أن يكون علة تامة موجبة للوازمه ، وعلة تامة فى الأزل بحركته ، لكن العلة التامة الأزلية لا يجوز أن تكون علة تامة أزليـة للحوادث ، لا الحركة ولا غيرها ، لأنه يجب وجود معلولها الذي هو موجبها ومقتضاها

فى الأزل ، وألا يتأخر عنها شيء من موجبها ، ومقتضاها ، ومعلولها .

والحركة التى توجد شيئاً فشيئاً هي وغيرها من الحوادث التى تحدث شيئاً بعد شيء ليس واحد منها قديماً ؛ بل كل منها حادث مسبوق بآخر: فيمتنع أن يكون شيء منها معلولاً للعلة التامة الأزلية ؛ لامتناع أن يكون حادث من الحوادث قديماً ، ويمتنع وجود مجموع الحوادث فى الأزل ، ويمتنع وجود المستلزم للحوادث إلا مع حادث من الحوادث أو مع مجموع الحوادث ، وإذا كان كلاهما يمتنع أن يكون قديماً امتنع أن يكون شيء مما يستلزم الحوادث قديماً ، فامتنع أن يكون لشيء من الحوادث أو ما يستلزم الحوادث علة تامة قديمة ؛ فامتنع صدور الحوادث أو شيء منها ، أو من ملزوماتها عن علة تامة قديمة ؛ فامتنع أن يكون شيء لا يخلو عن الحوادث صادراً عن علة تامة أزلية ؛ فامتنع أن يكون الفلك المقارن للحوادث علة تامة أزلية قديمة . ولو كان قديماً لصدر عن علة تامة قديمة ، فإذا لم يكن قديماً إلا إذا كان المقتضى التام ثابتاً فى الأزل ، وثبوت المقتضى التام له ممتنع ، كما أن قدمه ممتنع .

وأما إن قيل : إن القديم شيء غير مقارن للحوادث ، ولا مستلزم لها ، مثل أن يقال : القديم أعيان ساكنة ، هي المعلول الأول ، فيقال ذلك المعلول إما أن يجوز حدوث حال من الأحوال ، إما فيه ، أو عنه ، أو غير ذلك . وإما ألا يجوز .

فإن جاز حدوث حال من الأحوال له امتنع حدوث ذلك الحادث عن علة تامة أزلية ــ وهو الموجب بالذات كما تقدم ، وكما هو معلوم ومتفق عليه بين العقلاء ــ ولا بد من محدث ، والمحدث إن كان سوى الله فالقول فى حدوثه إن كان محدثاً ، أو فى حدوث ذلك الإحداث له بعد أن لم يكن ، كالقول فى حدوث ذلك الحادث ، وإن كان هو الله تعالى امتنع أن يكون موجباً بالذات له ؛ إذ القديم لا يكون موجباً بالذات لحادث ــ كما بين ــ فامتنع ثبوت العلة القديمة . وإذا لم يكن الصانع موجباً بالذات ــ فلا يكون علة تامة ــ امتنع قدم شيء من العالم ؛ لأنه لا يكون قديم إلا عن علة تامة ، وإن قيل إنه لا يجوز حدوث لما فرض قديماً معلولا للأول ؛ فهذا مع أنه لم يقل به أحد من العقلاء فهو باطل ؛ لوجوه :

« أحدها » أن واجب الوجود تحدث له النسب والإضافات باتفاق العقلاء ؛ فحدوث ذلك لغيره أولى .

« الثانى » أن الحوادث مشهودة فى العالم العلوي والسفلي ، وهذه الحوادث صادرة عن الله : إما بوسط أو بغير وسط ، فإذا كانت بوسط فتلك الوسائط حدثت عنها أمور بعد أن لم تكن ؛ فلزم حدوث الأحوال للقديم ، سواء كان هو الصانع أو كان هو الوسائط للصانع .

وإن قيل : القديم هو شيء ليس بواسطة فى شيء آخـر . قيل : لا بد أن يكون ذلك قابلا لحدوث الأحوال ، فإنه يمكن حـدوث النسب والإضافات لله عز وجل بالضرورة واتفاق العقلاء ، فإمكان ذلك لغيره أولى ، وإذا كان قابلا لها أمكن أن تحدث له الأحوال ، كما تحـدث لغيره من الممكنات ؛ فإن الله لا يمتنع حدوث الحوادث عنه : إما بوسط وإما بغير وسط ؛ فإذا كان ذلك قابلا ، وصدور مثل ذلك عن الصانع ممكن أمكن حدوث الحوادث عنه أو فيه بعد أن لم يكن .

وحينئذ فالقول فى حدوثها كالقول فى حدوث سائر ما يحدث عنه ، وذلك محال من العلة التامة المستلزمة لمعلولها . فقد بين هذا البرهـان الباهر أن كون الأول علة تامة لشيء من العالم ـ محال ، لا فرق فى ذلك بين الفلك وغيره ؛ سواء قدر ذلك الغير جسما أو غير جسم ، وسواء قدر مستلزما للحوادث فيه أو عنه ـ كما يقوله الفـلاسفة الدهـرية : كالفارابى ، وابن سينا وأمثالها ، وسلفهما من اليونان . فإنهم يقولون : الفلك مستلزم للحوادث القديمة ، والعقول والنفوس مستلزمة للحوادث التى تحدث عنها ، فـكل منها مقارن للحوادث ، لا يجوز تقدمه عليهـا مع كون ذلك جميعه معلولا للموجب بذاته ، فإذا تبين أن الموجب بذاته يمتنع أن يصدر عنه في الأزل حادث ، أو مستلزم لحادث ، بطل كون صانع العالم علة تامة فى الأزل ، ومتى بطل كونه علة تامة في الأزل ، امتنع أن يكون فيما سواه شيء قديم بعينه ، فهذا بيان أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن ، سواء قيل

بجواز دوام الحوادث ، أو قيل بامتناع ذلك .

فإنه إن قيل بامتناع دوام الحوادث لزم حدوث كل ما لا يخلو عن الحوادث ، وإن قيل بجواز دوام الحوادث فكل منها حادث بعد أن لم يكن مسبوقا بالعدم ، وكل من العالم مستلزم لحادث بعد أن لم يكن مسبوقاً بالعدم ، وكل من العالم وكل ما كان مصنوعا وهو مستلزم للحوادث امتنع أن يكون صانعه علة تامة قديمة موجبة له ؛ فإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون قديماً فامتنع أن يكون من العالم ما هو قديم بعينه .

وأما كون الرب لم يزل متكلما إذا شاء ، أو لم يزل فاعلا تقوم به الأفعال بمشيئته ونحو ذلك — فهذا هو الذي قاله السلف والأئمة ؛ فتبين أن الذي قاله السلف والأئمة هو الحق المطابق المنقول والمعقول .

وأما كون قول الفلاسفة أبطل من قول المعتزلة ، فإنه يقال لهم : أولئك جوزوا حدوث الحوادث عن ذات لم تزل غير فاعلة ، ولا يقوم بها حادث ولا يصدر عنها حادث ، وأنتم قلتم الحوادث الدائمة المختلفة تصدر عن هذه الذات ، وزدتم فى نفي الصفات عنها ، فجعلتموها وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق أو ما يشبه ذلك ، فقولكم فى نفي الصفات عنها أعظم من قول المعتزلة .

وقلتم: هو موجب بذاته علة تامة أزلية يقارنها المعلول الأزلي ، فلا يتأخر عنها . ومعلوم أن صدور الحوادث المختلفة عن العلة التامة البسيطة الأزلية ، التى لا يتخلف عنها مقتضاها ومعلولها أشد امتناعا من صدور الحوادث عن قادر مختار بعد أن لم تكن صادرة عنه ، فإن كان حدوث الحوادث عن القديم الذي لم يقم به حادث ممتنعا فقولكم أشد امتناعاً ، وإن كان ممكناً فقول المعتزلة أقرب ؛ فإن قولهم : إن اقتضى أن لا يكون للحوادث سبب حادث . فقولكم يقتضي أن لا يكون للحوادث محدث أصلا ، والحوادث مشهودة ، والمحدث لا بد أن يكون موجوداً عند وجودها ، ولا بد أن يكون كلما يعتبر فى الأحداث موجوداً عند الأحداث ، وذلك يمتنع صدوره عن علة تامة .

فتبين أن المقدمات التى احتج بها الفلاسفة على المعتزلة وأتباعهم على قدم العالم يحتج بها بعينها على حدوث العالم ؛ فإن مبنى دليلهم على أن العلة التامة الأزلية تستلزم معلولها ، وأن البارى إن لم يكن علة تامة أزلية لزم الحدوث بلا سبب ، وإن كان علة تامة أزلية لزم مقارنة معلوله ؛ فيلزم قدم العالم .

أما كونه علة تامة فممتنع ؛ لأن العلة التامة الأزلية يقارنها معلولها كله ، لا يتأخر عنها شيء من معلولها ، والعالم لا ينفك من حوادث مقارنة له بالضرورة ، واتفاق جماهير العقلاء ، وما كان مستلزما للحوادث امتنع كونه معلول العلة التامة الأزلية ؛ لامتناع كون الحوادث حادثة

عن علة تامة أزلية ، فإنه ما من حادث إلا وهو مسبوق بالعدم ، فليس هو علة تامة لشيء منها ، وما من زمن يقدر إلا وفيه حادث ، فليس هو في شيء من الأوقات علة تامة ، لا فى الماضي ولا المستقبل ؛ فامتنع أن يكون علة تامـــة وهو المطلوب ؛ فيلزم من ذلك كون كل ما سواه محدثا ، سواء قيل بتسلسل الحادثة أو لم يقل .

وأما قولهم : إن لم يكن علة تامة أزلية ، لزم الحدوث بلا سبب . فيقال لهم : هــذا إنما يلزم إذا لم يكن متكلما إذا شـاء — تقوم به الأفعال الاختيارية بقدرته تعالى — وإلا فعلى هذا التقدير لم يزل ولا يزال قادراً على الفعل متكلما إذا شاء ، وحينئذ فما حصل بمشيئته وقدرته من أقواله وأفعاله يكون هو السبب لما بعده .

وإن قالوا : هذا يستلزم قيام الحوادث به ، قيل لهم أولاً : قيام الحوادث بالقديم جائز عندكم ، ومن أنكر ذلك من أهــل الـكلام فإنما أنكره لاعتقاده أن ما قامت به الحوادث فهو حادث ، فإن كان هـــذا الاعتقاد صحيحا بطل قولـكم بقدم الأفلاك ، وإن كان باطلا بطلت حجة من قال : إن القديم لا تقوم به الحوادث ؛ فلا يمكنكم على التقديرين أن تقولوا إنه لا تقوم به الحوادث ؛ لكن أنتم نفيتم ذلك بنـاء على نفي الصفات ، وقولـكم فى نفي الصفات فى غاية الفساد، ودليلـكم عليه قــد بين فساده فى غــير هذا الموضع ، وبين بطلان ماذكرتموه .

و « بالجملة » فإذا كان القول بحدوث العالم مستلزما لإثبات الصفات وقيام الأفعال بالله ، كان ماذكرناه من دليل حدوثه دليلا على أن العالم محدث ، وأن محدثه موصوف بالصفات القائمة به ، فاعل الأفعال الاختيارية القائمة به ، كما دلت على ذلك النصوص الإلهية المتواترة عن الأنبياء من القرآن والتوراة ، والإنجيل . وذلك ما بين موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، والقضايا العقلية التى هي أصول فطر العقلاء ، ومنتهى عقلهم توافق ذلك ، واعتبر ذلك بما ذكره أبو عبد الله بن الخطيب الرازي ، فى كتابه « الأربعين » فى ضبط المقدمات التى يمكن الرجوع إليها فى إثبات المطالب العقلية .

قال : واعلم أن ههنا « مقدمتين » يفرع المتكلمون والفلاسفة أكثر مباحثهم عليهما .

« المقدمة الأولى » مقدمة الكمال والنقصان ، كقولهم هذه الصفة من صفات الكمال فيجب إثباتها لله ، وهذه الصفة من صفات النقصان فيجب نفيها عن الله ، وأكثر مذاهب المتكلمين مفرعة على هذه المقدمة .

إلى أن قال :

« أما المقدمة الثانية » وهي مقدمة الوجوب ؛ والإمكان ، وهذه

المقدمــة فى غاية الشرف والعلو ، وهي غاية عقول العقــلاء . قالوا : الوجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، وكذلك الواجب لابد أن يكون واجباً فى ذاته وصفاته ؛ إذ لو كان ممكناً لافتقر إلى مؤثر آخر .

« أما المقدمة الأولى » وهي أنه واجب لذاته : فهذا له لازمان : الأول أن يكون منزهاً عن الكثرة فى حقيقته ، ثم يلزم في ذاته أمور :

« أحدها » أن لا يكون متحيزاً ؛ لأن كل متحيز منقسم ، والمنقسم لا يكون فرداً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن فى جهة .

و « ثانيها » أن لا يكون واجب الوجود أكثر من واحد ، ولو كان أكثر من واحد لاشتركا فى الوجوب ، وتباينــا في التعيين ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز ؛ فيلزم كون كل واحد منهما مركباً في نفسه ، وقد فرضناه فرداً هذا خالف اللازم الثانى ؛ لكونه واجب الوجود لذاته أن لا يكون حالا ولا محلا ، والأفعال الافتقار هي .

قلت : ولقائل أن يقول : هذا هو أصل الفلاسفة فى التوحيد الذي نفوا به صفاته تعالى ، وهو ضعيف جداً .

والأصل الذي بنوا عليه ذلك ضعيف جداً ، وإن كان اشتبه على كثير من المتأخرين :

وقولهم : إن الواجب لا يكون إلا واحداً . قصدوا به أنه ليس له علم ولا قدرة ، ولا حياة ولا كلام يقوم به ، ولا شيء من الصفات القائمة به ؛ لأنه لو كان كذلك لكان الواجب أكثر من واحد ، كما يقوله المعتزلة إنه ليس له صفات قديمة قائمة بذاته ؛ لأنه لو كان كذلك لكان القديم أكثر من واحد .

ولفظ « الواجب ، والقديم » يراد به الإله الخالق سبحانه ، الواجب الوجود القديم فهذا ليس إلا واحدا ، ويراد به صفاته الأزلية، وهي قديمة واجبة بتقدم الموصوف ، ووجوبه لم يجب أن تكون مماثلة له ، ولا تكون إلهاً ، كما أن صفة النبي ليست بنبي ، وصفة الإنسان والحيوان ليست بإنسان ولا حيوان ، وكما أن صفة المحدث إن كانت محدثة فموافقتها له في الحدوث لا يقتضي مماثلتها له ، وما ذكروا من الحجة على ذلك ضعيفة .

فإذا قالوا : لو كان له علم واجب بوجوب العالم لكان الواجب أكثر من واحد . قيل له : ولم قلتم بامتناع كون الواجب أكثر من واحد ؛ إذ كانت الذات الواجبة إلهاً واحداً ، موصوفا بصفات الكمال .

قولهم : لو كان أكثر من واحد لاشتركا فى الوجوب ، وتباينا فى التعيين ، وما به الاشتراك غير مابه الامتياز ؛ فيلزم أن يكون كل منهما مركباً فى نفسه ؛ وقد فرضناه ؛ فرد هذا خلق .

يقال له فى جوابه قول القائل اشتركا فى الوجوب ، وتباينـا فى التعيين ، تريد به أن الوجوب الذي يختص كلا منهما شاركه الآخر فيه أم تريد أنهما اشتركا فى الوجوب المطلق الـكلي .

والأول باطل لا يريده عاقل . وأما الثانى فيقـال : اشتراكهما فى المطلق الـكلي ، كاشتراكهما في التعيين المطلق الـكلي . فإن هـذا له تعيين يخصه ، والتعيينان يشتركان فى مطلق التعيين . وكذلك هـذا له حقيقة تخصه ، وهذا له حقيقة تخصه ، وهما يشتركان فى مطلق الحقيقة وكذلك لهـذا ذات تخصـه ، ولهـذا ذات تخصـه ، وهما يشتركان فى مطلق الذات . وكـذلك سـائر الأسمـاء التى تعم بالإطـلاق ، وتخص بالتقييد ، كاسم الموجود والنفس ، والماهية وغير ذلك .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنهما اشتركا فى الوجوب المطلق ، وامتـاز كل منهما بوجوبه بتعيين يخصه . وحينئذ : فلا فرق بين الوجوب والتعيين .

فقول القائل : اشتركا فى الوجوب المطلق ، وتباينا بالتعيين الخاص .

كقول القائل اشتركا في التعيين المطلق ، وتباينا بالوجوب الخاص . ومعلوم أن مثل هذا لا مندوحة عنه ، سواء سمي تركيباً أو لم يسم ، فلا يمكن موجود يخلو عن مثل هذه المشاركة والمباينة ، لا واجب ولا غيره ، وما كان من لوازم الوجود كان نفيه عن الوجود الواجب ممتنعاً .

و « أيضاً » فالمشترك المطلق الكلي لا يكون كلياً مشتركا إلا فى الأذهان لا في الأعيان ، وإذا كان كذلك فليس في أحدهما شيء يشاركه الآخر فيه في الخارج ؛ بل كل ما اتصف به أحدهما لم يتصف الآخر بعينه ، ولم يشاركه فيه ؛ بل لا يشابهه فيه ، أو يماثله فيه . وإذا كان الاشتراك ليس إلا في ما في الأذهان لم يكن أحدهما مركباً في مشترك ومميز ؛ بل يكون كل منهما موصوفاً بصفة تخصه ، لا يشابهه الآخر فيها ، وبصفة يشابهه الآخر فيها ، وهذا لا محذور فيه .

وأيضاً فيقال : هذا منقوض بالوجود ، فإن الوجود الواجب والممكن يشتركان في مسمى الوجود ، ويباين أحدهما الآخر بخصوصه ؛ فيلزم تركيب الوجود الواجب مما به الاشتراك ، ومما به الامتياز ؛ فما كان الجواب عن هذا كان الجواب عن ذلك .

و « أيضاً » فيقال : هب أنكم سميتم هذا تركيباً . فلم قلتم إن

هذا ممتنع على موجود من الموجودات ، واجباً كان أو ممكناً ؟ مع أن المنازع يقول هـذا المعنى الذي نفيتموه ، وسميتموه تركيباً ، هو لازم لـكل موجود .

قولهم : وقد فرضناه فردا . قيل : هب أنـكم فرضتموه كذلك ؛ لكن مجرد فرضكم لا يقتضى أن يكون فرداً بالمعنى الذي ادعيتموه إن لم يقم على ذلك [دليل] .

وسئل قدس الله روحه

عن بيان ما يجب على الإنسان أن يعتقده ، ويصير به مسلماً ؛ بأوضح عبارة وأبينها ، من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم ؟ أم هو عبارة عنه لا نفسه ، وأنه حادث أو قديم ، وأن كلام الله حرف وصوت ؟ أم كلامه صفة قائمة به لا تفارقه ؟ وأن قوله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) حقيقة أم لا ؟ وأن الإنسان إذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئاً منه ، ويقول أو من به كما أنزل ، هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل ؟

فأجاب : الذي يجب على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتفق عليه سلف المؤمنين ، الذين أثنى الله تعالى عليهم وعلى من اتبعهم ، وذم من اتبع غير سبيلهم ، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلام الله تعالى ، وأنه منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه قرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه

(قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) . وأنه كما قال تعالى : (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) وأنه في الصدور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عقلها » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وأن ما بين لوحي المصحف الذي كتبته الصحابة رضي الله عنهم كلام الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ مخافة أن تناله أيديهم » .

فهذه « الجملة » تكفي المسلم في هذا الباب .

وأما تفصيل ما وقع فى ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلا الإطلاقين خطأ ، ويكون الحق فى التفصيل ، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق ، ويكون كل منهما ينكر حق صاحبه .

وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه ، فقال : (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) وقال : (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ) وقال : (وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟) وقال : (وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ) .

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيــه ، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع ، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعــاً ، فإن مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

وقد بسطت القول في جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة ، الذي اتفق عليه العقل والسمع . وبيـان ما يدخل فى هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة ، ولكن نذكر منها جملة مختصرة بحسب حال السائل .

والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجمــاع ، ومنعهم من الخوض فى التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختــلاف ، فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله .

والتفصيل المختصر أن نقول : من اعتقد أن المداد الذي فى المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطئ ، مخالف للـكتاب والسنة، وإجماع السابقين الأولين ، وسائر علماء الإسلام ، ولم يقل أحد قط من

علماء المسلمين إن ذلك قديم ، لا من أصحاب الإمام أحمد ولا من غيرهم ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد ونحوهم فهو مخطئ فى هذا النقل ، أو متعمد للكذب ؛ بل المنصوص عن الإمام أحمد وعامة أصحابه تبديع من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، كما جهموا من قال : اللفظ بالقرآن مخلوق .

وقد صنف أبو بكر المروزي — أخص أصحاب الإمام أحمد به — فى ذلك رسالة كبيرة مبسوطة ، ونقلها عنه أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة » الذي جمع فيه كلام الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ، وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق معارضة لمن قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، فبلغ ذلك الإمام أحمد ، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وبدع من قال ذلك وأخبر أن أحداً من العلماء لم يقل ذلك ، فكيف بمن يزعم أن صوت العبد قديم ! وأقبح من ذلك من يحكى عن بعض العلماء أن المداد الذي فى المصحف قديم ، وجميع أئمة أصحاب الإمام أحمد وغيرهم أنكروا ذلك ، وما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهال : من الأكراد ونحوهم » .

وقد ميز الله فى كتابه بين الكلام والمداد ، فقال تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

فهذا خطأ من هذا الجانب ، وكذلك من زعم أن القرآن محفوظ في الصدور ، كما أن الله معلوم بالقلوب ، وأنه متلو بالألسن ، كما أن الله مذكور بالألسن ، وأنه مكتوب فى المصحف ، كما أن الله مكتوب .

وجعل ثبوت القرآن فى الصدور والألسنة والمصاحف مثل ثبوت ذات الله تعالى فى هذه المواضع ؛ فهذا — أيضاً — مخطئ فى ذلك ، فإن الفرق بين ثبوت الأعيان فى المصحف ، وبين ثبوت الكلام فيها بين واضح ؛ فإن الموجودات لها أربع مراتب : مرتبة فى الأعيان ، ومرتبة فى الأذهان ، ومرتبة فى اللسان ، ومرتبة فى البنان. فالعلم يطابق العين ، واللفظ يطابق العلم ، والخط يطابق اللفظ .

فإذا قيل : إن العين فى كتاب الله كما فى قوله : (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ) فقد علم أن الذي فى الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم ، فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان ، وهي اللفظ والخط. وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبة ، بل نفس الكلام يجعل فى الكتاب ، وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر ، إلا إذا أريد أن الذي فى المصحف هو ذكره والخبر عنه ، مثل قوله تعالى : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ

عَلَىٰ قَلْبِكَ) إلى قوله : (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) .

فالذي فى زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . فإن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله صلى الله عليه وسلم ، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره ، كما فيها ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ، كما أن أفعال العباد فى الزبر كما قال تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ) فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء فى الزبر ، وبين كون الكلام نفسه في الزبر . كما قال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ) وقال تعالى : (يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) .

فمن قال إن المداد قديم فقد أخطأ ، ومن قال ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ ؛ بل القرآن فى المصحف كما أن سائر الكلام فى الورق ، كما أن الأمة مجمعة عليه ، وكما هو في فطر المسلمين ، فإن كل مرتبة لها حكم يخصها ، وليس وجود الكلام فى الكتاب كوجود الصفة فى الموصوف ، مثل وجود العلم والحياة فى محلها ، حتى يقال : إن صفة الله حلت بغيره ، أو فارقته ، ولا الوجود فيه كالدليل المحض ، مثل وجود العالم الدال على البارى تعالى ، حتى يقال : ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله عز وجل ؛

بل هو قسم آخر ؛ ومن لم يعط كل مرتبة مما يستعمل فيها أداة الظرف حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيز وفي المكان ، ووجود العرض بالجسم ، ووجود الصورة بالمرآة ، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة ، وبين رؤيته بالقلب يقظة ومناما ، ونحو ذلك ، وإلا اضطربت عليه الأمور .

وكذلك سؤال السائل عما فى المصحف هل هو حادث أو قديم؟ سؤال مجمل ؛ فإن لفظ القديم أولا ليس مأثوراً عن السلف ، وإنما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو كلام الله حيث تلي ، وحيث كتب ، وهو قرآن واحد ، وكلام واحد وإن تنوعت الصور التى يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم . فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً ، لا كلام من بلغه مؤديا ، فإذا سمعنا محدثاً يحدث بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » قلنا : هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، مع علمنا أن الصوت صوت المبلغ ، لا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر .

ونحن إذا قلنا : هذا كلام الله لما نسمعه من القارئ ، ونرى في المصحف ، فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو ، مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ ، ومداد الكاتب .

فمن قال : صوت القارئ ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد أخطأ ، وهذا الفرق الذي بينه الإمام أحمد لمن سأله ، وقد قرأ : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقال : هذا كلام الله غير مخلوق ، فقال : نعم . فنقل السائل عنه أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فدعا به وزبره زبراً شديداً ، وطلب عقوبته وتعزيره ، وقال : أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟! فقال : لا ، ولكن قلت لي لما قرأت (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) : هذا كلام الله غير مخلوق . قال : فلم تنقل عني مالم أقله ؟! .

فبين الإمام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين : هذا كلام الله . فالإشارة إلى حقيقته التى تكلم الله بها ، وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته ؛ فإذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله ، وقال : هذا غير مخلوق فقد ضل وأخطأ . فالواجب أن يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فالقرآن فى المصاحف ، كما أن سائر الكلام فى الصحف ، ولا يقال : إن شيئاً من المداد والورق غير مخلوق ؛ بل كل ورق ومداد فى العالم فهو مخلوق ، ويقال أيضاً : القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق ، والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق .

ويتبين هذا الجواب بالكلام على « المسألة الثانية » وهي قوله :

إن كلام الله هل هو حرف وصوت أم لا ؟ فإن إطـلاق الجواب فى هذه المسألة نفياً وإثباتاً خطأ ، وهي من البدع المولدة ، الحادثة بعـد المائة الثالثة ، لما قال قوم من متكلمة الصفاتيـة : إن كلام الله الذي أنزل على أنبيائه ــ كالتوراة ، والإنجيـل ، والقرآن ، والذي لم ينزله ، والـكلمات التى كون بها الـكائنات ، والـكلمات المشتملة على أمره ونهيه وخبره ، ليست إلا مجرد معنى واحد ، هو صفة واحـدة قامت بالله ، إن عبر عنها بالعبرانية كانت التوراة ، وإن عـبر عنها بالعربية كانت القرآن ، وإن الأمر والنهي والخبر صفات لها ، لا أقسام لهـا ، وإن حروف القرآن مخلوقة ، خلقها الله ولم يتكلم بها ، وليست من كلامه ؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت .

عارضهم آخرون من المثبتـة فقـالوا : بل القرآن هو الحروف والأصوات ، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد ، وبالأصوات أصوات العباد ، وهذا لم يقله عالم .

والصواب الذي عليه سلف الأمة ــ كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح ، فى « كتاب خلق أفعال العباد » وغيره ، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم ــ أتباع النصوص الثابتة ، وإجماع (١) سلف الأمـة ، وهو

---

(١) نسخة واتباع بدل وإجماع .

أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره ؛ ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعـنى ، ولا لمجرد الحرف ؛ بل لمجموعهما ، وكذلك سائر الـكلام ليس هو الحروف فقط ؛ ولا المعاني فقط . كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ، ولا مجرد الجسد : بل مجموعهما . وأن الله تعالى يتكلم بصوت ، كما جاءت به الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد ، لا صوت القارئ ولا غيره . وأن الله ليس كمـثله شيء ، لافى ذاتـه ، ولا في صفاته ، ولا فى أفعاله . فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته عـلم المخلوق وقدرته وحياته : فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ، ولا معانيـه تشبه معانيـه ، ولا حروفه تشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته ، ومن جحد مـا وصف به نفسه فقد ألحد فى أسمائه وآياته .

وقـد كتبت فى الجواب المبسوط المستوفى : مراتب مذاهب أهل الأرض فى ذلك ، وأن المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفوس الأنبياء ، تفيض عليهـم المعاني من العقل الفعـال ، فيصير في نفوسهم حروفاً ، كما أن ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الأنبيـاء من الصور النورانية ، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليـد ابن المغيرة : (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف

الرسول الـكريم ؛ لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية .

وهؤلاء هم الصابئـة ؛ فتقربت منهم الجهميـة . فقالوا : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قام به كلام ، وإنما كلامه ما يخلقه في الهواء أو غيره ، فأخذ ببعض ذلك قوم من متكلمة الصفاتية . فقالوا : بل نصفه وهو المعنى كلام الله ، ونصفـه وهو الحروف ليس هو كلام الله ، بل هو خلق من خلقه .

وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق . هل يقال : إنه قديم لم يزل ولا يتعلق بمشيئته ؟ أم يقال : يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ؟ . على قولين مشهورين في ذلك ، وفي السمع والبصر ونحوهما ، ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وذكرهما أبو بكر عبد العزيز عن أهل السنة ، من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وكذلك النزاع بين أهل الحديث والصوفية ، وفرق الفقهـاء : من المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ؛ بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة ، في جنس هذا الباب . وليس هـذا موضعاً لبسط ذلك . (هـذا لفظ الجواب في الفتيا المصرية) .

وقال الإمام العلامة المحقق أبو العباس

أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى ورضى عنه -

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذا « فصل فى نزول القرآن » ولفظ « النزول » حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، فإن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن ، بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فمن الجهمية من يقول : أنزل بمعنى خلق كقوله تعالى : (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) أو يقول : خلقه فى مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .

(١) تسمى : التبيان في نزول القرآن .

ومن الكلابية من يقول نزوله بمعنى الإعلام به وإفهامه للملك ، أو نزول الملك بما فهمه .

وهذا الذي قالوه باطل فى اللغة والشرع والعقل .

و « المقصود هنا » ذكر النزول .

فنقول وبالله التوفيق : النزول فى كتاب الله عز وجل « ثلاثة أنواع » : نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا .

فالأول لم يرد إلا فى القرآن ، كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال تعالى (نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وفيها قولان :

« أحدهما » لا حذف في الكلام ، بل قوله : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ) مبتدأ ، وخبره (مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

و « الثانى » أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ) وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه ، وكذلك قوله : (حمٓ

وكذلك (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ) * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ)

والتنزيل بمعنى المنزل ، تسمية للمفعول باسم المصدر ، وهو كثير ؛ ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ . قال أحمد وغيره : وإليه يعود ، أي : هو المتكلم به . وقال كلام الله من الله ليس ببائن منه ، أي لم يخلقه فى غيره فيكون مبتدأ منزلا من ذلك المخلوق ؛ بل هو منزل من الله ، كما أخبر به ومن الله بدأ لا من مخلوق ، فهو الذي تكلم به لخلقه .

وأما النزول « المقيد » بالسماء فقوله : (وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ) والسماء اسم جنس لكل ماعلا ، فإذا قيد بشيء معين [تقيد به] فقوله فى غير موضع من السماء مطلق أي في العلو ؛ ثم قد بينه فى موضع آخر بقوله (ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ) وقوله (فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ) أي أنه منزل من السحاب ، ومما يشبه نزول القرآن قوله : (يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ)

فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره ، الذي هو كلامه وكذلك قوله : (تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا) يناسب قوله : (فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ) فهذا شبيه بقوله : (قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ)

وأما « المطلق » ففي مواضع . منها : ماذكره من إنزال السكينة ؛ بقوله : (فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقوله : (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) إلى غير ذلك .

ومن ذلك « إنزال الميزان » ذكره مع الكتاب في موضعين ، وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل ، وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ هو ما يوزن به ، ولا منافاة بين القولين . وكذلك العدل ، وما يعرف به العدل ، منزل في القلوب ، والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين ؛ كقوله : (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة ، وهو السكينة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده) فالله ينزل عليه ملكا ، وذلك الملك يلهمه السداد ، وهو ينزل فى قلبه .

ومنه حديث حذيفة رضي الله عنه ، الذي في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » والأمانة هي الإيمان أنزلها في أصل قلوب الرجال ، وهو كإنزال الميزان والسكينة ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله » الحديث إلى آخره ، فذكر أربعة غشيان

الرحمة ، وهى أن تغشاهم كما يغشى اللبــاس لابسه ، وكما يغشى الرجل المرأة ، والليل النهار . ثم قال : « ونزلت عليهم السكينة » وهو إنزالها فى قلوبهم « وحفتهم الملائكة » أي جلست حولهم « وذكرهم الله فيمن عنده » من الملائكة .

وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى : (يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ) وقوله : (فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا) وقوله : (وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ) وقوله : (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) هذا كله فيه إحاطة من كل وجه .

وذكر تعالى إنزال النعاس في قوله : (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ) هذا يوم أحد . وقال فى يوم بدر : (إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ) والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الأبخرة ، التى تدخل في الدماغ ، فتنعقد فيحصل منها النعاس .

وطائفة من أهل الكلام ـــ منهم أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ـــ جعلوا النزول والإتيان والمجيء حدثاً يحدثه منفصلا عنه ، فذاك هو إتيانه واستواؤه على العرش ، فقالوا استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا عليه من غير فعل

يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوهم . وقالوا : المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والأعراض إلا بمجيء شيء ، فإذا قالوا : جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد ، وهو عين قائمة بنفسها . وإذا قالوا : جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال ، فيحدث الحر والبرد بذلك ، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل ، مثل لون الفاكهة ، فإنه لا يقال في هذا : جاءت الحمرة والصفرة والخضرة ، بل يقال : أحمر وأصفر وأخضر . وإذا كان كذلك فإنزاله تعالى العدل والسكينة ، والنعاس والأمانة – وهذه صفات تقوم بالعباد – إنما تكون إذا أفضى بها إليهم ، فالأعيان القائمة توصف بالنزول ، كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن ، فإذا نزل بها الملائكة قيل إنها نزلت .

وكذلك لو نزل غير الملائكة ، كالهواء الذي نزل بالأسباب ، فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس ، فكان قد أنزل النعاس سبحانه بإنزال ما يحمله .

وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن .

وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن آدم عليه السلام

نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد ، السندان والكلبتان والمنقعة ، والمطرقة ، والإبرة ، فهو كذب لايثبت مثله .

وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض فأنزل الحديد والماء والنار والملح » حديث موضوع مكذوب ، في إسناده سيف بن محمد بن أخت سفيان الثوري رحمه الله وهو من الكذابين المعروفين بالكذب .

قال ابن الجوزي : هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري يروي عن الثوري وعاصم الأحول والأعمش ، قال أحمد رحمه الله : هو كذاب يضع الحديث وقال مرة : ليس بشيء وقال يحيى : كان كذابا خبيثاً وقال مرة ليس بثقة وقال أبو داود كذاب وقال زكريا الساجي يضع الحديث وقال النسائي : ليس بثقة ولا مأمون وقال الدار قطني ضعيف متروك . والناس يشهدون أن هذه الآلات تصنع من حديد المعادن . فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للعيان . وإن قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف فأي فائدة في هذا لسائر الناس ؟! ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات مع أن

المأثور : « إن أول من خط وخاط إدريس عليه السلام » وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالإبرة .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما أشبه ذلك الذي به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذه لم تنزل من السماء . فإن قيل نزلت الآلة التى يطبع بها ، قيل فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد ؛ لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله : معناه جعله نزلا ، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسنا أي جعله نزلا . قال ومثله قوله تعالى : (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) وهذا ضعيف ؛ فإن النزل إنما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى (فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ) والضيافة سميت نزلا لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل فى مكان يؤتى إليه بضيافته فيه فسميت نزلا لأجل نزوله ونزل ببني فلان ضيف ؛ ولهذا قال نوح عليه السلام : (رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) لأنه كان راكباً فى السفينة ، وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل .

وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لأنه أخرجه من المعادن وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال ، فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع به بنو آدم وقال تعالى : (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ) .

وهذا مما أشكل أيضا . فمنهم من قال : جعل ، ومنهم من قال : خلق لكونها تخلق من الماء فإن به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء ، وقال قطرب : جعلناه نزلا . ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ؛ فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتى بطون أمهاتها ، ويقال للرجل : قد أنزل الماء ، وإذا أنزل وجب عليه الغسل ، مع أن الرجل غالب إنزاله وهو على جنب إما وقت الجماع ، وإما بالاحتلام ، فكيف بالأنعام التى غالب إنزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الإناث ؟!

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات ، فلم يقل أنزل النبات ولا أنزل المرعى وإنما استعمل فيما يخلق فى محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام .

وقال تعالى : (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا) الآية وفيها قراءتان إحداها بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً

منزلاً . وإما على قراءة الرفع فلا ، وكلاهما حق . وقد قيل فيه خلقناه وقيل أنزلنا أسبابه وقيل ألهمناهم كيفية صنعته ، وهـذه الأقوال ضعيفة ؛ فإن النبات الذي ذكروا لم يجئ فيه لفظ أنزلنـا ، ولم يستعمل فى كل ما يصنع أنزلنا فلم يقل : أنزلنا الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك ، وهو لم يقل إنـا أنزلنا كل لبـاس ورياش ، وقـد قيـل : إن الريش والرياش المـراد بـه اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحـد مثل اللبس واللباس ، وقد قيل : هما المـال والخصب والمعاش ، وارتـاش فـلان حسنت حالته .

والصحيـح أن « الريش » هـو الأثاث والمتـاع ، قال أبو عمر والعرب تقول : أعطانى فلان ريشه أي كسوته وجهازه . وقال غيره : الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر مـن المتاع والثياب والفرش ونحوها وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص ، قال ابن زيد : جمالا ؛ وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو مايروش به ويدفع عنه الحر والبرد وجمال الطائر ريشه ، وكذلك مايبيت فيـه الإنسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك ، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفى البيوت كما قال تعالى (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) الآية ، فامتن سبحانه عليهم بمـا ينتفعون به من الأنعام فى اللباس والأثاث ، وهذا ــ والله أعـلم ــ معنى إنزاله ؛ فإنـه ينزله

من ظهور الأنعام ، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش . فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان ، والله تعالى ذكر فى سورة النحل إنعامه على عباده ، فذكر فى أول السورة أصول النعم التى لا يعيش بنو آدم إلا بها ، وذكر فى أثنائها تمام النعم التى لا يطيب عيشهم إلا بها ، فذكر فى أولها الرزق الذي لابد لهم منه ، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله: (وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ثم فى أثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التى يسكنونها : مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى : (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) الآية ، ثم ذكر إنعامه بالظلال التى تقيهم الحر والبأس فقال: (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا) ، إلى قوله : (كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) .

ولم يذكر هنا ما يقي من البرد ، لأنه قد ذكره فى أول السورة ، وذلك فى أصول النعم ؛ لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش فى البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فإنه أذى ، لكنه لا يقتل كما يقتل البرد ، فإن الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرها ، وأهله أيضاً لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد ؛ بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفى

النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا ؛ بل لا يحتاجون إليه أحياناً حاجـة قوية فجمع بينهما فى قوله (سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) . ولا حذف فى اللفظ ولا قصور فى المعنى كما يظنه من لم يحسن حقائق معانى القرآن ؛ بل لفظه أتم لفظ ، ومعناه أكمل المعاني ؛ فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين ، فإنه عـلى ظهور الأنعـام لا ينتفع به بنوا آدم حتى ينزل .

فقد تبين أنه ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ نزول إلا وفيـه معنى النزول المعروف وهذا هو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى ولو أريد غير هـذا المعنى لـكان خطابا بغير لغتها ، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا ؛ وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغـة الذي أخبر الله تعالى أنه بينه وجعله هدى للناس ، وليكن هذا آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعـين وسلم تسليما كثيراً .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عن قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ) فسماه هنا كلام الله ، وقال في مكان آخر : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فما معنى ذلك ؟ فإن طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون أن هذا حجة لهم ، ثم يقولون : أنتم تعتقدون أن موسى ـ صلوات الله عليه ـ سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة ، وتقولون : إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة ، وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة ، فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى ، وأن صفات الله تعالى قديمة ؛ فإن قلتم إن هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وإن قلتم : غير ذلك قلتم بمقالتنا ، ونحن نطلب منكم في ذلك جوابا نعتمد عليه إن شاء الله تعالى .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست

إحدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه ، ولا فى واحدة منهما حجة لقول باطل ، وإن كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض النـاس على قول باطل ، وذلك أن قوله : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله مـن التالي المبلغ ، وأن ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله ، كما فى حديث جابر فى السنن : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول: ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربى » وفى حديث أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم: (الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) قالوا له هذا كلامك أم كلام صـاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله .

وقد قال تعـالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) فمن قال : إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر . ومن المعلوم لعامة العقلاء أن مـن بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول

النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا : هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً ؛ لا لمن أداه راويا مبلغاً . فإذا كان مثل هذا معلوماً فى تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل فى تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى أن لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا ؟!.

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال : (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) . فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البشر ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وكلاهما مبلغ له ، كما قال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وقال : (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ) وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء ، كما أن المعلمين له فى هذا الزمان والتالين له فى الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ) إلى قوله : (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) .

كان بعض المشركين يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة إما عبد ابن الحضرمي وإما غيره ، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى : (لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ) أي يضيفون إليه التعليم لسان (أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) فكيف يتصور أن يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي ؟ وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق ، فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه ؛ إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه ، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على أن القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه ، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله ، مع أن هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه ، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ والشعر شعر المنشئ لا شعر المنشد ــ والمحدث عن النبي صلى

الله عليه وسلم إذا روى قوله : « إنما الأعمال بالنيات » بلغه بحركته وصوته ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بـه بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا حركتـه كحركته ، والكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كلام المبلغ له عنه .

فإذا كان هذا معلوماً معقولاً فكيف لا يعقل أن يكون ما يقرأ القارئ إذا قرأ (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) أن يقال هذا الكلام كلام الباري وإن كان الصوت صوت القارئ . فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه ، كما جهموا من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتداع هذا وضلاله أوضح . فمن قال إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئاً من ذلك فهو ضال مبتدع .

وهؤلاء قد يحتجون بقوله (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق ، ونحن لا نسمع

إلا صوت القارئ ، وهذا جهل منهم ، فإن سماع كلام الله ، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ)

ومن قال : إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران ، أو إنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا . ولو قال قائل : إنا نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً ، فكيف من يقول أنا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى ؟! وإن كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق . وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والأرض صوته كجر السلسلة على الصفا ، وأمثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها أن صفة المخلوق هي صفة الخالق ؛ بل ولامثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ، ولا معناه مثل معناه ، ولا حرفه مثل حرفه ، ولا صوته مثل صوته ، كما أنه ليس علمه مثل علمه ، ولا قدرته مثل قدرته ، ولا سمعه مثل سمعه ، ولا بصره مثل بصره ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ولما استقر فى فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الإطناب . وقد بين أئمة السنة والعلم ــ كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح فى كتابه فى خلق الأفعال وغيرهما من أئمة السنة ــ من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره مالا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقل والدين .

فصـــــل

وأما قوله تعالى (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ) فهـذا قـد ذكره فى موضعين . فقال فى الحاقة (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ) فالرسول هنا محمـد صلى الله عليه وسلم وقال فى التكوير : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ) فالرسول هنـا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة ، وإلى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ، ولم يقل : إنه لقول ملك ولا نبي ، لأن لفظ الرسول يبين أنـه مبلغ

عن غيره لا منشئ له من عنده (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ)
فكان قوله : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) بمنزلة قوله لتبليغ رسول ، أو مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتداه وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً .

و (أيضاً) فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها ، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه . ولو جاز أن تكون الاضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول إنه قول البشر ، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر .

فإن قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر ، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقال لهم : هذا نصف قول الوحيد ، ثم هذا باطل من وجوه أخرى .

وهو أن معانى هذا النظم معان متعددة متنوعة ، وأنتم تجعلون

ذلك المعنى معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربيـة كان قرآناً ، وإذا عبر عنـه بالعبرانية كان توراة ، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

و (أيضاً) فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آيـة الدين ، وإنما يشتركان فى مسمى الـكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع ، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الـكلام كله يشترك فى أنه كلام الله اشتراك الأشخاص فى أنواعها ، كما أن الإنسان وهـذا الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس فى الخارج شخص بعينه هو هذا وهـذا وهـذا ، وكذلك ليس فى الخارج كلام واحـد هو معنى التوراة والإنجيـل والقرآن وهو معنى آيـة الدين وآية الكرسي .

ومن خالف هـذا كان فى مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال : إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية . فاضرب بكلام البـدعتين رأس قائلهما . والزم الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وبسبب هاتين البدعتين الحمقـاوين ثارت الفتن وعظمت الإحن ، وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونها بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسر من قال : إن الصوت المسموع من العبـد أو بعضه قديم : أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه .

وأما « أفعال العباد » فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها ، وفسر ذلك بأن الشرع قديم والقدر قديم ، وهي مشروعة مقدرة ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهى عنه ، ولم يفرق بين القدر الذى هو علـم الله وكلامـه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته . والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطـرار أن الأمر والخبر نوعان للـكلام لفظه ومعناه ، ليس الأمر والخبر صفـات لموصوف واحد ــ فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للـكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل ؛ وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم أن الوجود واحد ؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ؛ فإن انقسام « الموجود » إلى القديم ، والمحدث ، والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والقائم بنفسـه والقائم بغيره ، كانقسام « الـكلام » إلى الأمر والخبر ، أو إلى الإنشاء والإخبار ، أو إلى الأمر والنهي والخبر ــ فمن قال الـكلام معنى واحـد هو الأمر والخبر فهو كمن قال الوجود واحد هو الخالق والمخـلوق ، أو الواجب والممكن . وكما أن حقيقة هذاتؤول إلى تعطيل الخالق فحقيقة

هذا تؤول إلى تعطيل كلامه وتكليمه .

وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى ؛ ولهذا آل الأمر بمحقق هؤلاء إلى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه فى قوله : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ) بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقار بتكليم الله لموسى كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

(وأيضاً) فيقال : ما تقول فى كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره – كما قد ينقل كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين – إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه ؟ فإن قال : كلام المبلغ لزم أن يكون القرآن كلاما لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارئ لا كلام الله تعالى ، وأن يكون قوله : « إنما الأعمال بالنيات » ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول وحينئذ فلا فضيلة للقرآن فى (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ) فإنه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه ، والقرآن يقرؤه المؤمن والمنافق كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن

مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك . وفساد هذا في العقل والدين واضح .

وإن قال : كلام المبلغ عنه علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله ؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم ؛ لا تبليغ شيطان رجيم ؛ ولهذا قال : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ) إلى قوله : (وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٍ رَّجِيمٍ) . وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون ، وما هو على الغيب بمتهم . وذكره باسم « الصاحب » لما في ذلك من النعمة به علينا إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا ، كما قال تعالى (لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ) وقال (وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ) كما قال في الآية الأخرى : (وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ) وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله .

فلما كان الرسول البشرى يقال : إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا ، وكذلك في السورة الأخرى قال : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)

وهذا مما يبين أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه ، فإنه قال : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ)

فجمع بين قوله : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وبين قوله : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) والضميران عائدان إلى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين ؛ بل كان يكون تنزيلا من الرسول . ومن جعل الضمير فى هذا عائدا إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس فى الكلام ما يقتضى اختلاف الضميرين ، ومن قال إن هذا عبارة عن كلام الله ــ فقل له : هــذا الذي تقرؤه أهو عبارة عــن العبارة التى أحــدثها الرسول الملك أو البشر عــلى زعمك ؟ أم هو نفس تلك العبارة ؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبــارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عــن عبارة الله ، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً ؛ فإنه متى قال إن محمدا سمعــه من جبريل جميعه ، وجبريل سمعه من الله جميعــه ، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه ، فقد قال الحق ــ وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه .

وإن قلت : ليس هذا عبارة عن تلك العبــارة ، بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ

عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هـذا يبطل أصـل قولك .

واعلم أن أصـل القول بالعبارة « أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب » هو أول من قال فى الإسلام : إن معنى القرآن كلام الله . وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنـة والجماعة ، وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله تعالى ، وخالف المعتزلة فى ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات ، وقرر ذلك تقـريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده . وكان الناس قـد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقـال له حكاية عنه أم لا ؟ وأكثر المعتزلة قالوا : هو حكاية عنه ، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حـكاية عن كلام الله ؛ ليس بكلام الله .

فجاء بعـده « أبو الحسن الأشعري » فسلك مسلـكه فى إثبات أكثر الصفات ، وفى مسألة القرآن أيضاً ، واستدرك عليـه قوله إن هذا حكاية ، وقال : الحكاية إنما تـكون مثل المحكي فهـذا يناسب قول المعتزلة ؛ وإنما يناسب قولنـا أن نقول هو عبارة عن كلام الله ؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة ، فأنـكر أهـل السنة والجماعة عليهم عدة أمور .

(أحدها) قولهم : إن المعنى كلام الله وإن القرآن العربي ليس كلام الله ، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق، فقال : هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله ؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك « الحركة » . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية فى قولهم : إن كلام الله مخلوق خلقه فى بعض الأجسام — قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة :(إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فقال أئمة الكلابية إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله ، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة ، فقال لهم المحققون : فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة ؛ فإنكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة أن يقولوا ليس كلامه إلا ما خلقه فى غيره .

(الثانى) قولهم : إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر ، وهو معنى التوراة ، والإنجيل والقرآن ، وقال أكثر العقلاء : هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

(الثالث) أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله .

و « مسألة القرآن » لها طرفان (أحدها) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثانى) تنزيله إلى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى عدة مواضع ، وبينا مقالات أهل الأرض كلهم فى هذه المسائل ، وما دخل في ذلك من الاشتباه ، ومأخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول : إن الله لم يقم بذاته كلام ؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وذكرنا اختلاف المنتسبين إلى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به أنه فارق ذاته وحل فى غيره ؛ فإن كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته ؟! بل قالوا : منه بدأ . أي : هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه . وقولهم : إليه يعود . أي : يسرى عليه فلا يبقى فى المصاحف منه حرف ولا فى الصدور منه آية .

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

فصـــــل

وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة ، وتقولون إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك ؟

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فإن كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة — كسماع الصحابة منه — وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس . وكل من السامعين سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا ، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره ، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وإن كان المبلغ يرويه بحركة نفسه وأصوات نفسه .

فإذا كان هذا الفرق معقولا فى كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك فى سماع كلام الله ؟ وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء ، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو أن المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم ؛ بل ما بين لوحي المصحف كلام الله ، وكلام الله ثابت فى مصاحف المسلمين لا كلام غيره ، فمن قال : إن الذي فى المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق .

ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب فى المصاحف أو أن المداد قديم أزلي فهو أيضاً ملحد مارق ؛ بل كلام المخلوقين يكتب فى الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم ، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى ؟ !

و « الشبهة » تنشأ فى مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك أن الإنسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال إذا رآه بغير واسطة « وهذه الرؤية المطلقة » وقد يراه فى ماء أو مرآة فهذه « رؤية مقيدة » فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق ، وإذا قال : لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد ، واللفظ يختلف معناه بالإطلاق

والتقييد ، فإذا وصل بالـكلام مايغير معنــاه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمســين سنة بطريق الحقيقــة عنــد جماهير الناس .

ومن قال إن هذا مجاز فقد غلط ؛ فإن هـذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الـكلام ؛ ولهــذا لا يحتمل الـكلام معها معنيين ولا يجوز نـفي مفهومها بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع مـع أن قول القائل : هذا اللفظ حقيقة ، وهـذا مجاز نزاع لفظي ، وهو مستند من أنكر المجاز فى اللغة أو فى القرآن ، ولم ينطق بهذا أحــد من السلف والأئمة ، ولم يعرف لفظ المجاز فى كلام أحد من الأئمـــة إلا فى كلام الإمام أحمد فإنه قال فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية » هــذا من مجاز القرآن . وأول من قال ذلك مطلقاً أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه الذي صنفه في « مجاز القرآن » ثم إن هذا كان معناه عنـــد الأولين مما يجوز في اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز ، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم إنـه لا ريب أن المجاز قــد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

والمقصود أن القائل إذا قال : رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك فى الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة ، وإذا قال قائل : ما رأى ذلك ؛ بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا ما نعا لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرآة ، وهـذه الرؤية في الماء أو المرآة حقيقة مقيدة ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رآنى في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » هو كما قال صلى الله عليه وسلم رآه في المنام حقاً ، فمن قال : ما رآه في المنام حقاً فقد أخطأ ، ومن قال : إن رؤيته فى اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك .

وكذلك ما سمعه منه من الكلام فى المنام هو سماع منه فى المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يرى الرائى في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وإنما رأى مثالهم ، ولكن يقال : رآهم فى المنام حقيقة ، فيحترز بذلك عن الرؤيا التى هي حديث النفس .

فإن « الرؤيا ثلاثة أقسام » رؤيا بشرى من الله « ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام . وقد ثبت هذا التقسيم فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛

ولكن الرؤيا يظهر لكل أحد من الفرق بينها وبين اليقظة مالا يظهر في غيرها ، فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك ، حتى إن المرئي يختلف باختلاف المرآة ، فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وإن كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك ، فكذلك في « السماع » يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضعين المقصود سماع كلامه ، كما أن هناك فى الموضعين يقصد رؤية نفس النبي ؛ لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين كما يختلف المرئى باختلاف المرايا — قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) .

فجعل « التكليم ثلاثة أنواع » الوحي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون متفقون على أن الله أمرهم بما أمرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه فى القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به فى القرآن فأمره ونهيه وإخباره بواسطة الرسول ، فهذا تكليم مقيد بالإرسال ، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه ، وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤدى عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعا منه لا مبلغاً

عنه ولا مؤدى عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه ، ويخبر عن ربه ، ويحكى عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راويا حاكياً عنه . فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » : إن محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحاً ؛ لكن يقصدون — ما يقصده القائل بقوله فلان يحكى فلانا أي يفعل مثل فعله وهو — أنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها . فلما كان مقصود الرائى أن يرى الوجه مثلا فرآه فى المرآة حصل مقصوده وقال رأيت الوجه، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة — وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه ، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ، وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف باختلاف الصائتين . والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود ، كما في « الاسم والمسمى » فإن القائل إذا قال جاء زيد وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الإخبار بالمجيء عن « المسمى »

ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك .

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والإتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا ، فكذلك إذا قال القائل : هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته ، فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلا ؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الإمام أحمد رضى الله عنه : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وسأله هل هذا كلام الله ، وهل هو مخلوق ؟ فأجابه بأنه كلام الله وأنه غير مخلوق ، فنقل عنه أبو طالب ـــ خطأ منه ـــ أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه وقال أنا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ قال : لا ، ولكن قرأت عليك : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وقلت لك : هذا غير مخلوق ، فقلت : نعم ، قال فلم تحك عنى ما لم أقل ؟ لا تقل هذا ؛ فإن هذا لم يقله عالم ـــ وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروزي وفوران وبسطها الخلال فى « كتاب السنة » وصنف المروزي فى « مسألة اللفظ » مصنفاً ذكر فيه أقوال الأئمة .

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه ؛ فإن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به ؛ لا إلى

ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم . فإذا قيل : لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهـذا باطل ، كما أن من رأى وجهاً ، فى مرآة فقال أكرم الله هذا الوجه وحياه ، أو قبحه ، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع المنعكس فيها ، وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم يبدر فإنما مقصوده القمر الذي فى السماء لا خياله ، وكذلك من سمعه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم ؛ لا نفس الصوت المسموع من الناطق ـــ فلو قال : هـذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى ، وكان بعضهم يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فرأى فى منامه وضارب يضربه وعليه فروة فأوجعه بالضرب ، فقال له : لا تضربني ، فقال : أنا ما أضربك ، وإنما أضرب الفروة ، فقال : إنما يقع الضرب علي ، فقال هكذا إذا قلت : لفظي بالقرآن مخلوق ، فالخلق إنما يقع على القرآن . يقول : كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة ، فإذا قلت : مخلوق وقع ذلك على المقصود ، كما إذا سمعت قائلا يذكر رجلا فقلت : أنا أحب هـذا وأنا أبغض هـذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت الذاكر ؛ ولهـذا قال الأئمة : القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما

تصرف ؛ بخلاف أفعال العباد وأصواتهم ؛ فإنه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا .

فصـــــل

وأما قول القائل : تقولون إن القرآن صفة الله وإن صفــات الله غير مخلوقة ، فإن قلتم إن هذا نفس كلام الله فقــد قلتم بالحلول وأنتم تـكفرون الحلولية والاتحادية ، وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ، فإن منشأ الشبهة أن قول القائل : هذا كلام الله يجعل أحكامه واحــدة ، سواء كان كلامه مسموعا منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

« طائفة » قالت هــذا كلام الله وهذا حروف وأصوات مخلوقـة فـكلام الله مخلوق .

و « طائفة » قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق فهذا ليس كلام الله .

و « طائفة » قالت هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق وهذا ألفاظنا وتلاوتنا ؛ فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق فى المشار إليه فى هذا .

فأنت تقول هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب ، وهو كلام حكيم ، وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم ، فالمشار إليه فى الموضعين واحد ، وتقول أيضاً : إن هذا صوت حسن ، وهذا كلام من وسط القلب ثم إذا سمعته من الناقل تقول : هذا صوت حسن ، أو كلام من وسط القلب فالمشار إليه هنا ليس هو المشار إليه هناك ، بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، وإذا كتب الكلام فى صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم ، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالمشار إليه واحد، ثم تقول هذا خط حسن وهذا قلم النسخ أو الثلث ، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار إليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فإذا ميز الإنسان فى المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق ، وعلم أن من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق أن المشار إليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق ، من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل .

ويقال لهذا : هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجوداً قبل أن يخلق هذا القارئ فهب أن القارئ لم تخلق نفسه ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه ؟ فإشارته بالخلق إن كانت إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارئ وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه ، وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد ، وبلغه محمد لأمته ، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع أن يكون مخلوقا ، فإنه لو كان مخلوقا لكان كلاما لمحله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله ، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاماً كان كلامه كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كل كلام فى الوجود وهذا قول الحلولية الذين يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومن قال : القرآن مخلوق فهو بين أمرين — إما أن يجعل كل كلام فى الوجود كلامه ، وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلاً ، فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه ، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات : كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، فيكون قد فرعن إثبات

صفات الكمال له حذراً فى زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات .

وكذلك قول القائل : هذا نفس كلام الله ، وعين كلام الله ، وهذا الذي فى المصحف هو عين كلام الله ، ونفس كلام الله ، وأمثال هذه العبارات · هذه مفهومها عند الإطلاق فى فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره ، وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فإن من ينقل كلام غيره ويكتبه فى كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس فى كثير من مكاتبات الملوك وغيرها — فإذا جاء كتاب السلطان فقيل : هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص : يعنى لم يزد فيه الكاتب ولا نقص . وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة فى مسألة من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه : يعنى لم يزد فيه ولم ينقص كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » .

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد به أنه يبلغه بحركاته وأصواته التى سمعه بها ، ولكن أراد أنه يأتى بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص ، فيكون قد بلغه كما سمعه . فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله صلى الله عليه وسلم ، ويكون قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله . وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه ،

لا يريدون أن هـذا هو صوته وحركاته ، وهذا لا يقوله عاقـل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء ، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجئ أصحابه إلى « القرمطة » فى السمعيات ، و « السفسطة » فى العقليات .

ولو ترك الناس على فطرتهم لـكانت صحيحة سليمة فإذا رأى الناس كلاماً صحيحاً ، فإن من تكلم بكلام وسمع منـه ونقل عنه أو كتبـه فى كتاب لا يقول عاقل إن نفس ما قام بالمتكلم من المعـانى التى فى قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقته وانتقلت عنه إلى المستمع والمبلغ عنه ، ولا فارقته وحلت فى الورق ؛ بل ولا يقول إن نفس ما قام به من المعانى والألفاظ هو نفس المداد الذي فى الورق ؛ بـل ولا يقول إن نفس ألفاظه التى هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه ، فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولهـا عاقل فى كلام المخلوق إذا سمـع وبلغ أو كتب فى كتاب ، فكيف يقال ذلك فى كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه سبحانه كما كتب التوراة لموسى ، وكما كتب القرآن فى اللوح المحفوظ ، وكما كتبه المسلمون فى مصاحفهم .

وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعنـاه ؛ بل شعر مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم مـن الشعراء ، ويقول الناس : هذا شعر حسان بعينه ، وهذا هو نفس شعر حسان ، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله :

ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين . فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل فى مخلوقاته ، وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات البارى حلت فيه ؟! وهم لايقولون مثل ذلك فى المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم ، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوءا كما يقال : إن الهوى ينقلب ناراً بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التى فى المصباح ، والمقرئ والمعلم يقرئ القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء ؛ بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وأمثال ذلك ، كما يقال : نقلت مافي الكتاب ونسخت ما فى الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التى فى الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثانى ؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني

مثل ما فى الأول ، فيبقى المقصود بالأول منقولا منسوخا وإن كان لم يتغير الأول ، بخلاف نقل الأجسام وتوابعها ، فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول .

وذلك لأن الأشياء لها وجود فى أنفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها فى العلم ، ثم فى اللفظ المطابق للعلم ، ثم فى الخط . وهذا الذي يقال : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود في اللسان ووجود فى البنان : وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فذكر الخلق عموما وخصوصاً ، ثم ذكر التعليم عموما وخصوصاً ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن فى المصحف كالأعيان في الورق ، فظن أن قوله : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ) كقوله : (ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ) فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله فى المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط : إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال ، أو كإثبات القرآن في

زبر الأولين ، قال تعالى : (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ؛ ولهذا قيد سبحانه هـذا بلفظ « الزبر » و « الكتب » زبر . يقـال زبرت الكتاب إذا كتبتـه والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكن ذكره ، كما أن محمدا نفسه ليس عنـدهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول في كتبهـم كثبوت القرآن في كتبهـم : بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينـا ، وهـذا مبسوط في موضعه .

و (المقصود هنا) إن نفس الموجودات وصفاتهـا إذا انتقلت من محل إلى محل حلت في ذلك المحل الثاني ، وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقائه في الأول ، وإن كان الذي عند الثاني هو نظـير ذلك ومثله ؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحـداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليـه ، ولم يكن للناس غرض فى تعدد التـابع ، كما فى الاسم مـع المسمى ؛ فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون إنـه اسم واحد لمسمى واحد ، فإذا قال المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ،

أشهد أن محمداً رسول الله ، وقال ذلك هـذا المؤذن وهـذا المؤذن ، وقاله غير المؤذن فالناس يقولون إن هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما أن المسمى هو الله ورسوله .

وإذا قال : (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ) وقال : (ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ) وقال : (سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى) وقال : (بِسۡمِ ٱللَّهِ) ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر ، فالخبر الواحد من من المخبر الواحد من مخبره ، والأمر الواحد بالمأمور به من الآمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه ، هذا في المركب نظير هذا في المفرد ، وهـذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعـدد من يذكر ذلك الاسم والخبر ، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم .

وأما قول القائل : إن قلتم : إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد . مثاله مثال رجل ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم يحل بذاته فى بدن الذي يقرأ حديثه ، فأنكر الناس ذلك عليه ، وقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحل فى بدن غيره ، فقال : أنتم تقولون : إن المحدث يقرأ كلامه ، وإن ما يقرؤه هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول ، ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد .

والناس متفقون على إطلاق القول بأن كلام زيد فى هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه كلام زيد ، ولا يستجيز العاقل إطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم ، أو فى هذا الورق . وقد نطقت النصوص بأن القرآن فى الصدور كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم فى عقلها » وقوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وأمثال ذلك ، وليس هذا عند عاقل مثل أن يقال الله فى صدورنا وأجوافنا ، ولهذا لما ابتدع شخص يقال له الصورى بأن من قال القرآن فى صدورنا فقد قال بقول النصارى فقيل لأحمد قد جاءت جهمية رابعة أي : جهمية الخلقية ، واللفظية ، والواقفية ، وهذه الرابعة ــ اشتد نكيره لذلك ، وقال ، هذا أعظم من الجهمية . وهو كما قال .

فإن « الجهمية » ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن فى الصدور ، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول إلا من هو فى غاية الضلالة والجهالة ؛ فإن النصارى يقولون ؛ الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وإن الكلمة التى هي اللاهوت تدرعت الناسوت ، وهو عندهم إله يخلق ويرزق ؛ ولهذا كانوا يقولون : إن الله هو المسيح بن مريم ، ويقولون : المسيح ابن الله ؛ ولهذا كانوا متناقضين ، فإن الذي تدرع المسيح إن كان هو الإله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه ، وإن كان هو صفة من

صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلها ، والمسيح عندهم إله ، ولو قال النصارى إن كلام الله فى صدر المسيح كما هو فى صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن فى قولهم ما ينكر .

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر ، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية إنه بذاته في كل مكان ، وهو سبحانه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره ، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها ، أو قال : وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك .

فأما قول القائل : إن كلام الله فى قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين وإن الرسل بلغت كلام الله ، والذي بلغته هو كلام الله ، وإن الكلام فى الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولا ، ومن سماه حلولا لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق . وقد تقدم أن ذلك لا يقتضى مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها إلى غيره ، فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى ؟! ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس فى إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال : إن كلام الله حال فى المصحف أو حال في الصدور ؟ وهل يقال : كلام الناس المكتوب حال فى المصحف أو حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك ؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي

أبي يعلى وأمثاله وقالوا : ظهر كلام الله فى ذلـك ولا نقول : حل ؛ لأن حلول صفة الخالق فى المخلوق ، أو حلول القديم فى المحـدث ممتنع . وطائفة أطلقت القول بأن كـلام الله حال فى المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروى ـــ الملقب بشيخ الإسلام ـــ وغيره وقالوا : ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفيناه ؛ بـل نطلق القول بأن الـكلام فى الصحيفة ولا يقـال بأن الله فى الصحيفة أو فى صدر الإنسان ، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال فى ذلك دون حـلول ذاته ، وطائفة ثالثة كأبى علي بن أبى موسى وغـيره قالوا : لا نطلق الحلول نفياً ولا إثباتاً لأن إثبـات ذلك يوهم انتقـال صفـة الرب إلى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أُطلقتـه النصوص ونمسك عما فى إطلاقه محذور لما في ذلك من الإجمال .

وأما قول القائل إن قلتم [إن هذا نفس كلام الله فقـد قلتم بالحلول ، وإن قلتم غير ذلك] قلتم بمقالتنا فجواب ذلك أن المقـالة المنـكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبق منكر .

(أحدها) من يقول إن القرآن العربى لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه فى غيره .

(الثانى) قول من يقول إن كلام الله ليس إلا معنى واحداً هو

الأمر والنهي والخبر وإن الكتب الإلهيــة تختلف باختــلاف العبارات لا باختلاف المعانى فيجعــل معنى التوراة والإنجيــل والقرآن واحداً ، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي ، كمن يقول إن معانى أسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته .

(الثالث) قول من يقول إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وإن القرآن كلام التالــين لا كلام رب العالمين . فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها .

وأما قول من قال : إن القرآن العربى كلام الله بلغه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه تارة يسمع من الله ، وتارة من رسله مبلغين عنه ، وهو كلام الله حيث تصرف ، وكلام الله تكلم به لم يخلقه فى غيره ، ولا يكون كلام الله مخلوقاً ، ولو قرأه النـاس وكتبوه وسمعوه . وقال مع ذلك : إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه ، وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب فى هذا المعنى ؛ لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربى كلام الله تعالى ، وليس هو ولا شيء منه كلاماً لغيره ، ولكن بلغته عنه رسله ، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه ، ومع العلم بأن شيئا من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا فى كلام الخالق أولى وأظهر والله أعلم .

وقال أيضا شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصل

قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) . وهو منزل من الله ، كما قال تعالى : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) . فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقاً .

وقال تعالى : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ) (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) وقال تعالى : (وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وقال تعالى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) ونحو ذلك ، وقال تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) .

فأخبر سبحانه أنه منزل من الله ، ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله إلا كلامه ؛ بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك .

ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ؛ فإن من قال إنه مخلوق يقول إنه خلق فى بعض المخلوقات القائمة بنفسها ، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله ، فإخبار الله تعالى أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ؛ ولهذا فسر الإمام أحمد قوله « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، وقال أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن عنه .

و « أيضاً » فلو كان مخلوقاً فى غيره لم يكن كلامه ؛ بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبة والمشيئة والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور لو كان مخلوقاً فى غيره لم يكن الرب تعالى متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ؛ فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره ، فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره ؛ لأن ذلك فطري ، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به . وهذا مبسوط فى مواضع أخر .

ولم يقل السلف : إن النبي سمعه من الله تعــالى ، كما يقول ذلك بعض المتأخرين ، قال الله تعالى : (لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال لي النبي صــلى الله عليه وســلم « اقرأ علي القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليــك أنزل ؟ قال « إنى أحب أن أسمعه مــن غيرى » فقرأت عليه سورة النســاء ، حتى بلغت إلى هــذه الآية (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا) قال : « حسبك » ، فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء .

والنبي صــلى الله عليــه وسلم سمعه مــن جبريل ، وهو الذى نزل عليه به ، وجبريل سمعه من الله تعالى ، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) وقال تعالى (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) فأخبر سبحــانه أنه نزله روح القدس ـــ وهو الروح الأمين ، وهو جبريل ـــ من الله بالحق ، ولم يقل أحد من السلف : إن النبي صــلى الله عليــه وســلم سمعه من الله ، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين .

وقوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) هو كقوله تعالى : (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ) وقوله : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ) ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته ؛ فإن لفظ (نحن) هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه ، فالرب تعالى خلق الملائكة وغيرها تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه ، فهو سبحانه أحق باسم « نحن » و « فعلنا » ونحو ذلك من كل ما يستعمل .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما . وقال سعيد ابن جبير : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فأنزل الله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ) قال : جمعه لك في صدرك وتقرؤه (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ) فإذا قرأه رسولنا ، وفي لفظ : فإذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) أي نقرؤه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه » .

وقد بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده في قوله (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فبين سبحانه أن التكليم تارة يكون وحياً ، وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى ، وتارة يرسل رسولا فيوحي الرسول باذن الله ما يشاء ، وقال تعالى: (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) فإذا أرسل الله تعالى رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى : (قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وقال تعالى: (لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ) وقال تعالى : (وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه . ففي صحيح البخاري عن عبد الله ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقال صلى الله عليه وسلم لما خطب المسلمين : « ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » وقال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »

وفى السنن عن جابر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفســه على الناس بالموسم فيقول « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربى »

وكما لم يقل أحد من السلف إنه مخلوق ، فلم يقل أحد منهم إنه قديم ، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من « الأئمة الأربعة » ولا غيرهم ؛ بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله ، ولما ظهر من قال إنــه مخلوق قالوا رداً لـكلامه : إنه غير مخلوق ، ولم يريدو بذلك أنه مفترى كما ظنــه بعض الناس ، فإن أحداً من المسلمين لم يقل إنه مفترى ، بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم ، وإنما قالوا إنه مخلوق خلقه الله فى غيره ، فرد السلف هذا القول ، كما تواترت الآثار عنهم بذلك ، وصنف فى ذلك مصنفات متعددة ، وقالوا : منه بدأ وإليه يعود .

وأول من عرف أنه قال مخلوق : الجعد بن درهم وصــاحبه الجهم ابن صفوان ، وأول من عرف أنه قال هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق الذين شاركوه فى هذا القول .

فمنهم من قال : الـكلام معنى واحـــد قائم بذات الرب ، ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلـك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض ، والقرآن العربي لم يتـكلم الله به ،

بل هو مخلوق خلقه فى غيره . وقال جمهور العقلاء : هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار ، فإنه من المعلوم بصريح العقل أن معنى « آية الكرسي » ليس معنى « آية الدين » ولا معنى (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) معنى (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) فكيف بمعانى كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه ؟!.

ومنهم من قال : هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفا بها .

وكلا الحزبين يقول : إن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه لم يزل ولا يزال يقول : يا نوح ! يا إبراهيم ! يا أيها المزمل ! يا أيها المدثر ! كما قد بسطت أقوالهم فى غير هذا الموضع ، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف : إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ، ولا حكاية له ، ولا قال أحد منهم إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق ، فضلا عن أن يقول : إن صوتي به قديم أو غير مخلوق ؛ بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله وكلام الله غير مخلوق .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسافروا

بالقرآن إلى أرض العدو » وقال تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)
والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق ، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد ، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري ، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ ، كما قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة : يحسنه الإنسان بصوته كما قال أبو موسى الأشعري للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً » .

فكان ما قاله أحمد وغيره من أئمة السنة من أن الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة ، وقد قال تعالى : (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ) وقال تعالى :
(قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)
ففرق سبحانه بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات

مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة . وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ)
فالأبحر إذا قدرت مداداً تنفد وكلمات الله لا تنفد ؛ ولهــذا قال أئمة السنة لم يزل الله متكلما كيف شاء وبما شاء ، كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما .

هذا وقد أخبر سبحـــانه عن نفسه بالنداء في أكثر من عشـرة مواضع ، فقال تعالى : (فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) وقال تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ) وذكر سبحانه نداءه لموسى عليــه السلام في سورة « طه » و « مريم » و « الطس الثلاث » وفي سورة « و النازعات » وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى : (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى) وقال تعالى : (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)

واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعـــدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادي بصوت : نادى موسى ،

وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم إن الصوت الذي سمعه موسى قديم ، ولا إن ذلك النداء قديم ، ولا قال أحد منهم : إن هـذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله بـه ؛ بل الآثار مستفيضـة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين أصوات العباد .

وكان أئمة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية ، كما قال الإمام أحمد لما سئل عمن قال إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر بعض الآثار المروية فى أنه سبحانه يتكلم بصوت . وقد ذكر من صنف في السنة[1] من ذلك قطعة ، وعلى ذلك ترجم عليه البخاري فى صحيحه بقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ وقد ذكر البخاري فى « كتاب خلق الأفعال » مما يبين به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة . وكانت محنة البخاري مع أصحابه محمد بن يحيى الذهلي وغيره بعد موت أحمد بسنين ولم يتكلم أحمـد في البخاري إلا بالثناء عليه . ومن نقل عن أحمد أنه تكلم فى البخاري بسوء فقد افترى عليه .

---

(١) بياض بالأصل .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي فى كتابه الذي سماه (الفصول فى الأصول) قال سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت أبا حامد الإسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال : مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما فى صدورنا : مسموعا ، ومكتوبا ، ومحفوظا ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال : مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين إلى السنة تنازعوا فى اللفظ بالقرآن هل يقال إنه مخلوق ؟ ولما حدث الكلام فى ذلك أنكرت أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، وقالوا : من قال : إنه مخلوق فهو جهمي ، ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا أنه مخلوق ، فإن المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام إنما بلغ غيره ، كما يقال : روى الحديث بلفظه وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام .

و (اللفظ) في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، وكذلك « التلاوة

والقراءة » مصدران ؛ لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو ، وهو المراد باللفظ فى إطلاقهم . فإذا قيل : لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، وإذا قيل : لفظي غير مخلوق أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق ، وصوته وحركته مخلوقان ، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق ، و « التلاوة » قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد ، وقد يراد بها مجموعها . فإذا أريد بها الكلام نفسه الذى يتلى فالتلاوة هي المتلو ، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو ، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره .

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارى تعالى ؛ بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ، ليس شيء منه كلاما لغيره ، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ؛ بل قد كفر الله من جعله قول البشر ، مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة ، فقال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى :

(إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ * فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ * إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ) فالرسول هنا جبريل .

وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره ، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه ؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئا لم يكن رسولا فيما أحدثه بل كان منشئا له من تلقاء نفسه ، وهو سبحانه يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة ، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران ، فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له . وقد كفر الله تعالى من قال : إنه قول البشر ، فمن قال إن القرآن أو شيئاً منه قول بشر أو ملك فقد كذب ، ومن قال إنه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغه عن مرسله ليس قولا أنشأه فقد صدق ، ولم يقل أحد من السلف : إن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا إن الله تعالى خلقها فى الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا إن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ، بل هذه الأقوال هي من أقوال بعض المتأخرين .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا فى الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول

السلف وهو الذي يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح وإن كان عامة هؤلاء المختلفين فى الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ؛ بل ولا سمعوه، ولا وجدوه فى كتاب من الكتب التى يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معانى الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ، ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالا مبتدعة : إما قولين ، وإما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره لأنه لا يعرفه ؛ ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين لأنه لم يجد فيما قالوه قولا صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الأقوال « الجهمية المحضة النفاة » الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : إن الله تعالى لا يتكلم بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه ، وإن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » معناه أن ملكا يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان ، أي أمر مناديا ينادى عنه ، فإذا تلى عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم . قالوا هذا مجاز ؛ كقول العربي :

امتلأ الحوض وقال قطني .

وقالت[1] : اتساع بطنه، ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته وأنه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون إن الله تعالى لم يتكلم ، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ، ومما قالوا لهم : إن المنادي عن غيره — كمنادي السلطان — يقول : أمر السلطان بكذا ، خرج مرسومه بكذا ، لا يقول إنى آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا ، والله تعالى يقول في تكليمه لموسى ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ويقول تعالى إذا نزل ثلث الليل الغابر « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟ » وإذا كان القائل ملكا قال — كما في الحديث الذي في الصحيحين — « إذا أحب الله العبد نادى في السماء ياجبريل ! إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، وينادي في السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض » فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى : « إن الله يحب فلانا فأحبوه » ، وفي نداء الرب يقول « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » .

---

(١) كذا بالأصل

فإن قيل : فقد روى أنه يأمر مناديا فينادي ، قيل هذا ليس في الصحيح فإن صح أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادي هو ويأمر مناديا ينادي . أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح في أن الله تعالى هو الذي يقول : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له ؟ » فلا يجوز .

وكذلك جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئاً ولا حيا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً ، وكان جهم « مجبراً » يقول : إن العبد لا يفعل شيئاً ، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً ؛ لأن العبد عنده ليس بقادر .

ثم إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهم ، فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا نقول إن الله متكلم حقيقة ، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة ، لئلا يضاف إليهم أنهم يقولون إنه غير متكلم ، لكن معنى كونه سبحانه متكلما عندهم أنه خلق الكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون هو متكلم حقيقة وأولئك ينفون أن يكون متكلما حقيقة . وحقيقة قول الطائفتين أنه غير

متـكلم ، فإنه لا يعقل متـكلم إلا من قام به الكلام ، ولا مريد إلا من قامت به الإرادة ، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيـم إلا من قامت به الإرادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة ، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة . وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة لا في نفي الصفات ولا فى القدر ولا المنزلة بين المنزلتين ولا إنفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية فى حقيقة « المتكلـم » فقالت المعتزلة : المتكلم من فعل الـكلام ولو أنه أحدثه فى غيره ، ليقولوا إن الله يخلق الـكلام فى غيره وهو متكلم به . وقالت الـكلابية : المتكلم من قام به الكلام وإن لم يكن متكلما بمشيئته وقدرته ولا فعل فعلاً أصلا بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وإن لم تكن حياتـه بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله .

وأما السلف وأتباعهم وجمهور العقلاء فالمتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام ، وتكلم بمشيئته وقدرته . لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته ، فكان كل من تينـك الطائفتين المبتدعتـين أخـذت بعض وصف المتكلم : المعتزلة أخذوا أنـه فاعل ، والـكلابية أخذوا أنه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة أنه يكون فاعلا للـكلام فى غيره وزعموا هم ومن وافقهم من أتباع الـكلابية كأبي الحسن

وغيره أن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هذا مما أنكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا لا يكون الفاعل إلا من قام به الفعل ، وأنه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخاري في « كتاب خلق أفعال العباد » إجماع العلماء على ذلك .

والذين قالوا إن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وقالوا مع ذلك إن الله فاعل أفعال العباد كأبي الحسن وغيره ، وإن العبد لم يفعل شيئاً وإن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات أفعال ، مع أن الأفعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه ، فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم إنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره ، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ماهو من أصول أهل السنة وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فأصلهم مطرد . ومما احتجوا به على أن القرآن غير مخلوق ما احتج به الإمام أحمد وغيره من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات » . قالوا والمخلوق لا يستعاذ به ، فعورضوا بقوله « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك

منك » فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا معافاته فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة فى الناس فهى مفعوله .

وكذلك قالوا : إن الله خالق أفعال العباد ، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله ، وهي نفس فعل العبد ، وكان حقيقة قول أولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد . فتسلطت عليهم المعتزلة فى « مسألة الكلام والقدر » تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة .

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ، فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال ، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول ، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

وقد وافق الكلابية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف ، ومن أهل الفقه المنتسبين إلى الأئمة الأربعة ، وليس من الأئمة الأربعة

وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم .

وحدث مع الكلابية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا : إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتى المعتزلة والكلابية ؛ لكن قالوا إنه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم ؛ بل صار الكلام ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ؛ لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة ؛ فإن هؤلاء كلهم يقولون : إنه لم يكن الكلام ممكناً له فى الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه ؛ لكن الجهمية والمعتزلة يقولون إنه خلق كلاماً فى غيره من غير أن يقوم به كلام ؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث ، قالوا : ولا تقوم به الحوادث . قالت الجهمية والمعتزلة . لأن الحوادث هي من جملة الصفات التى يسمونها الأعراض . وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات ، قالوا لأن الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم ؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

وقالت الكلابية : بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث ، ونحن لا نسمي الصفات أعراضاً ؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين ، وصفات الله تعالى باقية . وقالوا : وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين : أما قول أولئك : إنه لاتقوم به الصفات ؛ لأنها أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية ما يشار إليه جسما اصطلاح حادث أيضاً ، و « الجسم » فى لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة منهم الأصمعي وأبو عمرو ، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف . والعرب تقول هذا جسيم وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه . قال تعالى (وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ) وقال تعالى (وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ) ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ، ويراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النظار يريدون بلفظ « الجسم » تارة المقدار ، وقد يسمونه الجسم التعليمي ، وتارة يريدون به الشيء المقدر ، وهو الجسمي الطبيعي والمقدار المجرد عن المقدر كالعدد المجرد عن المعدود ، وذلك لا يوجد إلا

فى الأذهان دون الأعيان . وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا فى الذهن . قالوا وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار إليه ، فإن الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسما ، بل يقولون خرجت روحه من جسمه ، ويقولون إنه جسم وروح ، ولا يسمون الروح جسما ، ولا النفس الخارج من الإنسان جسما ، لكن أهل الكلام اصطلحوا على أن كل ما يشار إليه يسمى جسما ، كما اصطلحوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهراً ، ثم تنازعوا فى أن كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا على أقوال ثلاثة قد بسطت فى غير هذا الموضع ؛ ولهذا كان كثير منهم يقولون الجسم عندنا هو القائم بنفسه ، أو هو الموجود لا المركب .

قال أهل العلم والسنة فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات : إن الصفات لا تقوم إلا بجسم ، والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم : إن أردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم « المقدمة الأولى » وهي قولكم : إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك ، قيل لكم إن الرب تعالى قائم بنفسه والعباد يرفعون أيديهم إليه فى الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العلي الأعلى سبحانه ، ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عيانا كما يرون القمر ليلة

البدر ، فإن قلتم : إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث ، ـــ كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل ، وإن قلتم : نحن نسمي ما هو كذلك جسما ونقول إنه مركب ، قيل تسميتكم التى ابتدعتموها هي من الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها بأسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له : النزاع فى المعانى لا فى الألفاظ ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف إذا كانت من ابتداعهم ؟ ومعلوم أن المعـاني التى يعلم ثبوتهـــا بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل . وأما قولهم إن كل ما كان تقوم به الصفـات وترفـع الأيدي إليه ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم فإنه لابد أن يكون مركباً من الجواهر المفردة أو من المـادة والصورة فهذا ممنوع ؛ بل هو باطل عنـد جمهور العقلاء : من النظار والفقهـاء وغيرهم ، كما قد بسط فى موضعه .

قال الجمهور : وأما تفريق الـكلابية بين المعاني التى لا تتعلق بمشيئته وقدرته والمعاني التى تتعلق بمشيئته وقدرته ـــ التى تسمى الحوادث ، ومنهم من يسمي الصفـات أعراضاً ، لأن العرض لا يبقى زمانين ـــ فيقال : قول القائل : إن العرض الذي هو السواد والبيـاض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين قول محدث في الإسلام ، لم يقله أحد من السلف والأئمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع

الطوائف ؛ بل من الناس من يقول إنه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وأما تسمية المسمي للصفات أعراضاً فهذا أمر اصطلاحي لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية أصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول « الكلابية » ما يقبل الحوادث لا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . فقد نازعهم جمهور العقلاء فى كلا المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرون نازعوهم فى ذلك ، واعترفوا ببطلان الأدلة العقلية التى ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وحدثت طائفة أخرى من السالمية وغيرهم — ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، ومنهم كثير ممن هو ينتسب إلى

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وكثر هذا فى بعض المتأخرين المنتسبين إلى أحمد بن حنبل — فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلابية : وافقوا هؤلاء فى قولهم إنه قديم ، ووافقوا أولئك فى قولهم إنه حروف وأصوات ، وأحدثوا قولاً مبتدعا — كما أحدث غيرهم — فقالوا : القرآن قديم ، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلا وأبداً .

واحتجوا على أنه قديم بحجج الكلابية ، وعلى أنه حروف وأصوات بحجج المعتزلة . فلما قيل لهم : الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل السين والسين قبل الميم ، والقديم لا يسبق بغيره ، والصوت لا يتصور بقاؤه فضلا عن قدمه ، قالوا : الكلام له وجود وماهية ، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم . قالوا : والكلام له ترتيب فى وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي فى وجوده وهي مقارنة لها فى ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وإن كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض . فإن الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ومع هذا فإذا كتبه كان أوله متقدما بالمرتبة على آخره .

فقال لهم جمهور العقلاء هذا مما يعلم فساده بالاضطرار ؛ فإن الصوت لا يتصور بقاؤه ، ودعوى وجود ماهية غير الموجود فى الخارج دعوى

فاسدة ، كما قد بسط فى موضع آخر ، والترتيب الذي فى المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والإنسان ، وهذا أمر يوجد الجزء الأول منه مع الثانى بخلاف الصوت فإنه لايوجد الجزء الثانى منه حتى يعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم من يقول يعني بالقديم إنه بدأ من الله وإنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح ؛ لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو [ليس بقديم] لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم : إنه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحاً لكنه جاهل بمقاصد الناس مضل لمن خاطبه بهذا الكلام ، مبتدع فى الشرع واللغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : إن الحروف القديمة والأصوات ليست هي الأصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي فى المصحف ، ومنهم من يقول بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول بل يسمع من القارئ شيئان : الصوت القديم ، وهو مالا بد منه فى وجود الكلام . والصوت المحدث ، وهو مازاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون المداد الذي فى المصحف مخلوق ؛ لكن الحروف القديمة ليست هي المداد ؛ بل الأشكال والمقادير التى تظهر بالمداد ، وقد تنقش فى حجر وقد تخرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال فى المداد إنه قديم أو

مخلوق ، وقد يقول لا أمنع عن ذلك بل أعلم أنه مخلوق لكن أسد باب الخوض فى هذا ، وهو مع هـذا يهجر من يتـكلم بالحق ومن يبـين الصواب الموافق للـكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التى يشنع بها بعضهم على بعض .

وخوض الناس وتنازعهم فى هذا الباب كثير قد بسطناه فى مواضع . وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الأقوال السديدة التى دل عليها الـكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة فى مسألة الـكلام ، الـتى حيرت عقول الأنام والله تعالى أعلم .

سئل شيخ الإسلام مفتي الأنام
تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية

عن قوم يقولون : كلام الناس وغيرهم قديم ــ سواء كان صدقاً أو كذباً ، فحشا أو غير فحش ، نظما أو نثراً ــ ولا فرق بين كلام الله وكلامهم فى القدم إلا من جهة الثواب . وقال قوم منهم ــ بل أكثرهم ــ : أصوات الحمير والكلاب كذلك ، ولما قرئ عليهم ما نقل عن الإمام أحمد رداً على قولهم تأولوا ذلك ، وقالوا : بأن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس ، فهل هؤلاء مصيبون أو مخطئون ؟ وهل على ولي الأمر وفقه الله تعالى زجرهم عن ذلك أم لا ؟ وهل يكفرون بالإصرار على ذلك أم لا ؟ وهل الذي نقل عن أحمد حق كما زعموا أم لا (١)

فأجاب رضي الله عنه

الحمد لله . بل هؤلاء مخطئون فى ذلك خطأ محرماً بإجماع المسلمين وقد قالوا منكراً من القول وزوراً ؛ بل كفراً ومحالا يجب نهيهم عنه ويجب على ولاة الأمور عقوبة من لم ينته منهم عن ذلك ، جزاء بما

(١) تسمى : « الكيلانية » .

كسبوا نكالا من الله ؛ فإن هذا القول مخالف للعقل والدين مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين ، وهي « بدعة شنيعة » لم يقلها أحد قط من علماء المسلمين : لا علماء السنة ولا علماء البدعة ، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول ؛ ولكن عرض لمن قالها شبهة ، ونحن نبينها إن شاء الله تعالى .

ولا يحتاج فى مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببدائه العقول أن يحتج له بنقل عن إمام من الأئمة إلا من جهة بيان أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة ، وأن قائله مخالف للأمة مبتدع في الدين ؛ ولتزول بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السلف ، ويعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم المعظمين ؛ وليتبين أن نقيض قولهم منصوص ، عن الأئمة المتبعين فى السنة ، وليس ذلك مما سكتوا عنه نفياً وإثباتاً .

وأنه لا ريب أن الإمام « أحمد بن حنبل » ومن قبله وبعده من الأئمة نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق — نصاً مطلقاً — بل نص أحمد وكثير من الأئمة على « أفعال العباد » عموما وعلى « كلام الآدميين » خصوصاً ، ولم يمتنعوا عن هذا الإطلاق لأجل الشبهة التى عرضت لهؤلاء المبتدعة المخالفين ، حتى لا يقول قائل منهم أو من غيرهم : إنه لا يقال مخلوق ولا غير مخلوق لأجل شبهتهم ، أو لكون الكلام فى

ذلك بدعة ، بل القول بأن كلام الآدميين مخلوق غير قديم منصوص عن الأئمة المتفق على إمامتهم فى الدين والسنة .

فمنهم من نص عليه لما تكلم فى « مسائل القدر » و « خلق أفعال العباد » ومنهم من نص عليه لما تكلم فى « مسألة تلاوة العباد للقرآ ن واللفظ به »

ومنهم من نص عليه محتجاً به على الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . فروى أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال ـــ وهو الذي جمع نصوص أحمد فى أصول الدين وأصول الفقه وفى أبواب الفقه كلها وفى الآداب والأخلاق والزهد والرقائق وفى علل الحديث وفى التاريخ وغير ذلك من علوم الإسلام .

روي ـــ فى « كتاب السنة » فى الكلام على اللفظية عن أبى بكر ابن زنجويه ، قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، لايكلم . قال الخلال : وأخبرنا أبو داود السجستاني قال : سمعت أبا عبد الله يتكلم فى « اللفظية » وينكر عليهم كلامهم ، وسمعت إسحق بن راهويه ذكر « اللفظية » وبدعهم ، وقال الخلال : سمعت ابن صدقة قال سمعت يحي ابن حبيب بن عربى قال سمعت رجلا سأل معتمر بن سليمان أن لنا

إماماً قدريا أصلي خلفه قال : من زعم أن لفظه غير مخلوق بمنزلة من زعم أن سماء الله غير مخلوقة ، قال الخلال : وأخبرني أبو بكر المروزي حدثنا محمد بن يحي الأزدي حدثني مسدد قال : كنت عند يحي القطان وجاء يحي بن إسحق بن توبة العنبري فقال له يحي حدث هذا يعني مسدداً كيف قال حماد بن زيد فيها ؟ — أي « مسألتنا » — فقال سألت حماد بن زيد عمن قال : كلام الناس ليس بمخلوق ، فقال هذا كلام أهل الكفر ، وقال يحي بن إسحق سألت معتمر بن سليمان عمن قال كلام الناس ليس بمخلوق فقال هذا كفر .

فهذه الآثار ونحوها مما اعتمد عليها المشهورون بالسنة كالمروذي والخلال وغيرهما ، وكذلك الإمام أبو عبد الله بن بطة يعتمد في كتابه « الإبانة الكبير » على هذه الآثار ونحوها .

قلت : « حماد بن زيد » أحد الأئمة الأعلام في السنة في طبقة مالك والثوري والأوزاعي وحماد بن سلمة والليث بن سعد في الزمان والإمامة بل هو عند علماء السنة أقعد بالسنة من الثوري ، وإن كان الثوري أكثر علما منه وزهداً ، وعند علماء الحديث أحفظ للحديث من حماد بن سلمة ، وإن كان حماد أشهر بالزهد وأكثر دعاء إلى السنة وهو إمام البصرة في ذلك الزمان الذي كانت البصرة فيه مجمع علم الإسلام ، وكان علماء الأمة وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في ذلك العصر

الذي هو عصر تابعي التـابعين هؤلاء المسلمين ونحوهم وهم من القرن الثالث الممدوح .

و « المعتمر بن سليمان » أحد الأئمة الأعلام أيضاً ، وهو دون حماد ابن زيد ، وقد أدركه الإمام أحمد وإسحق بن راهويه وغيرهما وهو أحد شيوخ الإمام أحمد وأما « حماد بن زيد » ففات الإمام أحمد فقـال : فاتنى حماد بن زيد فعوضني الله بإسماعيل بن عليـة ، وفاتنى مالـك بن أنس فعوضني الله سفيان بن عيينة .

وأما « يحي بن سعيد القطان » فهو أحد علماء السنة وهو إمام أهل الحديث فى معرفـة صحته وعلله ورجاله وضبطـه حتى قال أحمد : ما رأيت بعيني مثله ، يعني فى ذلـك الفن ، وعنه أخـذ ذلك علي بن المدينى ، وعن علي أخذ ذلك البخاري صاحب الصحيح . وقـد ذكر الترمذي أنه لم ير فى معرفة علل الحديث مثل محمد بن إسماعيل البخاري .

وهؤلاء العلماء الأئمة أنـكروا على من قال كلام الآدميين ولفظهم غير مخلوق لما نبغت « القدرية » المبتدعـة ، وزعموا أن أفعال العبـاد غير مخلوقة لله : لا أقوالهم ولا سائر أعمالهم : لا خيرها ولا شرها ؛ بل يقولون : هي محدثة أحدثهـا العبد ، وليست مخلوقة لأحـد أو يقولون : العبد خلقها ، كما أنه أحدثها ؛ فإنهم قد يتنازعون فى إثبات

خلق لغير الله ، ومع هذا فلم يكن بين الأمة نزاع فى أنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، ولم يقل أحد : إنها قديمة ؛ ولكن « القدرية » من المعتزلة وغيرهم اعتقدوا أن الأفعال الاختيارية وما يتولد عنها من أفعال الملائكة والجن والإنس — الطاعات والمعاصي — لم يخلقها الله . قالوا : لأنه لو خلقها للزم أن يكون العبد مجبوراً ، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد والثواب والعقاب ؛ ولأن العبد يعلم أنه هو الذي يحدث أفعاله علما ضروريا وعللوا ذلك بأدلة نظرية .

فلما ابتدعوا هذه « المقالة » أنكرها أئمة السنة ، كما أنكر الصحابة رضوان الله عليهم أول هذه البدعة لما نبغت القدرية فى أواخر عصر الصحـــابة فرد عليهم ابن عمر وابن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة .

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات كأفعال العباد وغيرها ليس مخلوقا لله فهو مثل من أنكر خلق الله لغير ذلك من المحدثـات كالسماء والأرض ؛ فإن الله رب العـالمين ، ومالك الملك ، وخالق كل شيء ، فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته ، ولا شيء من الملك خارجاً عن ملـكه ، ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه ، قال تعالى : (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال تعالى : (أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ

خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ) وقال تعالى : (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ * ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ * لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ) وقال تعالى : (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ) وقال تعالى : (ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا)

وقال تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ) وقال تعالى : (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ * أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ)

ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم المتبعين لكتاب الله المعتقدين لموجب هذه النصوص حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبعية أو إرادية أو قسرية فإن الله خالق كل ذلك جميعه وربه ومالكه ومليكه ووكيل عليه، وإنه سبحانه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، فآمنوا بعلمه المحيط ، وقدرته الكاملة ، ومشيئته الشاملة ، وربوبيته التامة ؛ ولهذا

قال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

وأما صفة الله تعالى فهي داخلة فى مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة فإذا قلت : عبدت الله ، ودعوت الله و (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فهـذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفـاته ؛ ولهذا قال النبي صـلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقـد ثبت عنه : « الحلف بعزة الله » والحلف بقوله : « لعمر الله » فعلم أن ذلك ليس حلفاً بغير الله فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها فى اتباع عمومها الذي قد صرحت به فى أن الله خالق كل شيء ؛ إذ قـد علم أن الله ليس هو داخلا فى المخلوق ، وعلم أن صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه .

وأما « المعتزلة » الذين جمعـوا التجهم والقدر فأخرجوا عنهـا ما يتناوله الاسم يقيناً من أفعـال الملائـكة والجن والإنس والبهائم : طاعاتها وغير طاعاتها ، وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته ؛ بـل هي من محاسن ملـكه وأعظم آياته ومخلوقاته ، وأدخلوا فى ذلك كلامه لكونه يسمى « شيئاً » فى مثل قوله : (إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ) ولم ينظروا فى أن ذلك مثل تسمية علمه « شيئاً » فى قوله : (وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) وتسمية نفسه شيئاً فى قوله : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وأن قوله : (كُلَّ شَيْءٍ) يعم بحسب ما اتصل به من الكلام .

فإن الاسم تتنوع دلالته بحسب قيوده . ففي قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) دخل فى ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم ، وفى قوله : (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود ، وقد يقال : دخل فى ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى « مشيئاً » فإن « الشيء » فى الأصل مصدر وهو بمعنى المشيء ، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير ، وإن شئت قلت : قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه ، والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء . وفى قوله : (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ) قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق ، وأنه لا يتناوله الاسم ، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق : وهي الحادثات جميعها .

هذا مع أن أهل السنة يقولون إن العبد له مشيئة وقدرة وإرادة وهو فاعل لفعله حقيقة ، وينهون عن إطلاق « الجبر » فإن لفظ « الجبر » يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد ، كما تجبر المرأة على النكاح ؛ وليس كذلك ؛ بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيئته ورضاه ومحبته ليس مجبوراً عديم الإرادة ، والله خالق هذا

كله ؛ فإن هذه الأمور من المحدثات الممكنات ، فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحدثات وليس هـذا موضع الـكلام على هذا فإن ذلك له موضع آخر .

وإنما الغرض هنـا أن الأئمة ردوا على من جعـل أقوال العباد وأفعالهم خارجة عـن خلق الله وجعلوا ذلك بمنزلة من جعـل السماء والأرض ليس مخلوقة لله . هذا مع أن أولئك المبتدعين كانوا يقولون إنها محدثة ليست قديمة ، فـكيف إذا قيل : إنها قديمة ؟! فإن ذلك يصير ضلالين بل ثلاث ضلالات .

(أحدها) جعـل المحدث المصنوع صفـة لله قديمة مضاهـاة للنصارى ونحوهم .

و (الثاني) إخراج مخلوق الله ومقدوره عن خلقه وقدرته كما قالته القدرية مضاهاة للمجوس ونحوهم .

و (الثالث) إخراج فعل العبد ومقدوره وكسبه عن أن يكون مقدوراً له وكسباً وفعلا مضاهاة للجبرية القدرية المشركية ، فهـذا كان وجه كلام أولئك الأئمة فى هذا .

ثم لما حدثت بدعة « اللفظية » احتج أئمة ذلك العصر فى جملة

ما احتجوا به بكلام أولئك السلف مثل البخاري الإمام صاحب « الصحيح » ، ومثل أبي بكر المروزي الإمام صاحب الإمام أحمد بن حنبل ، وخلق كثير فى زمنه ، ومثل أبي بكر الخلال ونحوه . فاستدل هؤلاء الأئمة وغيرهم على بطلان قول من يقول : إن فعل العبد أو صفاته المتعلقة بصفات الله غير مخلوقة بما دل على أن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة . فروى البخاري عن أبي قدامة عن يحيى بن سعيد القطان قال ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وروى المروزي صاحب الإمام أحمد والخلال ما تقدم ذكره من كلام الأئمة من النص على خلق كلام الآدميين وأفعالهم .

وسيأتي إن شاء الله نصوص الإمام أحمد فى ذلك فإن القصد هنا التنبيه على الأصل الذي تشعب منه تفرق الأمة فى هذا الموضع وهو « مسألة اللفظ » .

فصل

و « مسألة اللفظ بالقرآن » قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل ، وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة حتى قال ابن قتيبة كلاماً معناه لم يختلف أهل الحديث فى شيء من

مذاهبهم إلا فى « مسألة اللفظ » . وبين أن سبب ذلك لما وقع فيها من الغموض ، والنزاع بينهم فى كثير من المواضع لفظي ، ولم يكن بين الناس نزاع في أن كلام العباد الذي لم ينزله الله تعالى أنه محدث مخلوق ، وإن كان الكلام فى « حروف الهجاء » وفى « أسماء المحدثات » فيه نزاع هو الذي أوقع هؤلاء الجهال فى ما ارتكبوه من المحال ، كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى .

ولا يتسع هذا الجواب لشرح « مسألة اللفظ » مبسوطاً ؛ ولكن ننبه عليه مختصراً فنقول : إن الله تعالى أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم أن يبلغوا إلى الناس ما أنزل الله عليهم من وحيه وكلامه ، فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله ، وأطاعهم فيما أمروا به . وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان ، وهم أهل الجنة والسعادة ، كما قال تعالى : (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ) .

ومن الناس من كفر بهم وكذب : مثل الأمم الذين قص الله علينا أخبارهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون

ومشركي العرب وكل من لم يؤمن بأصل الرسالة مـن الهند والبراهمة وغيرهم والترك والسودان وغيرهم من الأمم الأميين الذين لا كتاب لهم ـ سواء كانوا مكذبين للرسل أو معرضين عن اتباعهم ؛ فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معـه تكذيب بل شك وريب ، أو إعراض عن هـذا كله حسداً أو كبراً ، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة ، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفراً وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل ، والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء .

ولهذا يقول سبحانه : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ) لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة ، وقد قال تعالى لما أهبط أباهم آدم : (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ) .

فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه ، وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد فى الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنه شقي وعمي

ولهذا قال فى أوائل البقرة فى نعت المؤمنين : (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) كما قال هنا : (فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) ؛ فإن الهدى ضد الضلال ، والفلاح ضد الشقاء ، وقال تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض ، واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى ، أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا يخاطب الله فى القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين بعض الرسل ، كما فى قوله : (وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ) وفي قوله : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ) .

وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض : من الصابئين الفلاسفة ونحوهم : الذين قد يقرون بأصل الرسالة ؛ لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل : الذي قد وضع قانوناً لقومه ، أو يقولون : إن الرسالة للعامة دون الخاصة ، أو في الأمور العملية دون العلمية ، أو فى الأمور التى يشترك فيها الناس دون الخصائص التى يمتاز بها الكمل ،

ويقرون برسالة محمد صلى الله عليـه وسلم من حيث الجملة ، ويعظمونه ، ويقولون : اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يرد إلى الأرض ناموس أعظم من ناموســه ؛ لكنهم مع هــذا يكفرون ببعض ماجاء بــه : مثل أن يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية ، وقد يسوغون الشرك أيضاً للعامة أو للخاصة : مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتهــا والسجود لها ، وقد يكذبون فى الباطن بأشياء مما أخبر بها ، ويزعمون أن ما أخبر به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم العامة مالا يجوز إظهاره وإبانة حقيقته ؛ وذلك أنهــم يجوزون كذبه لمصلحة العامة بزعمهم .

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول ، وإن من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ، ونحو ذلك من المقالات ، وهذا الضرب ما زال موجوداً لا سيما مع القرامطة الباطنية : من الإسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية : الذين كانوا يدعون الخلافة ، ومع الخرمية ، والمزدكية ، وأمثالهــم من الطوائف ، وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بإلهية علي ونحوه من البشر أو نبوته ، وهم منافقون زنادقة ؛ لكن فى كثير من أتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم ، أو وافقهم فى قول بعضهم دون بعض ، وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ، ومنهم

من ينتسب إلى التصوف ، ومنهم من ينتسب إلى الكلام ، ومنهم من يدخل مع الفقهاء فى مذاهبهم . وهذا الضرب يكثر فى الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الإسلام والتزامه ، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيديين ونحوهم ، وكما يكثرون فى دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول ، لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم ؛ فإن هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض ؛ لكنهم قديرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به ، أو لا يتبعونه بحال وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه .

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضاً ، كما قال تعالى :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) وقال تعالى — يخاطب أهل الكتاب — : (ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ

عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) وقال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا)

وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) .

فذم الذين أوتوا قسطاً من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها ، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية — جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم — على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله . وكما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم ، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة

الإسلام من ملوك الترك وغيرهم ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً ، وإذا أصابتهم مصيبة فى عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ونوفق بين « الدلائل الشرعية » و « القواطع العقلية » التى هي في الحقيقة ظنون وشبهات ، أو « الذوقية » التى هي في الحقيقة أوهام وخيالات (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا) إلى قوله : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا)

وقال تعالى : (وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ) إلى قوله : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) الآية ،

وقال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ) .

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف فى الكتاب الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض كما قال تعالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ)

وقال تعالى : (وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟) وقال تعالى : (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

وقال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) .

فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة ، وأن يعدل بين الناس كلهم فيعطي كل ذي حق حقه ، ويمنع كل مبطل عن باطله ؛ فإن القسط والعدل فى جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به ، وهو المقصود بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، كما قال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) وقال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) إلخ السورة .

وهاتان الآيتان قد ثبت في الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطيهما من كنز تحت العرش ، وأنه لم يقرأ بشيء منهما إلا أعطيه » وقد ثبت فى الصحيح « أنه من قرأهما في ليلة كفتاه » وقال تعالى : (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

فصل

فلما كان فى الأمم كفار ومنافقون يكفرون ببعض الرسالة دون بعض إما فى القدر وإما في الوصف ، كما أن فيهم كفار ومنافقون يكفرون بأصل الرسالة ، وكان فى الكفار بأصل الرسالة من قال : إن الرسول شاعر ، وساحر ، وكاهن ، ومعلم ، ومجنون ، ومفترى ، كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور فى قوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) .

فإنه صنع صنع الفيلسوف المخالف للرسل فى تفكيره أولاً : الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفى القضية إلى المبادىء الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ، ثم قدر ثانياً ، والتقدير هو « القياس » وهو الانتقال من المبادىء إلى المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي ؛ ولعمري

إنه لصواب إذا صحت مقدماته ، وإن كانت النتيجة فى الأغلب أموراً كلية ذهنية ، ثبوتها فى الأذهان لا فى الأعيان ، كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير ؛ فإن العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد فى الذهن . لكن أ نّى وأ كثر مقدماته فى الإلهيات دعاوى يدعى فيها بعموم ؟ وأن القضية من المسلمات بلا حجة ، ومتى لم يكن فى القياس قضية كلية معلومة لم تفد المطلوب وهم يلبسون المهملات التى هي فى معنى الجزئيات بالكليات العامة المسلمات أو يدعى فيها العموم بنوع من قياس التمثيل .

ومعلوم أنه لا بد فى كل قياس من « قضية كلية » وعامة « القضايا الكلية » التى لهم فيها المطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة ؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيه الله بخلقه ، كما يقولون : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع ، كطبيعة الماء والنار ، مع أن الواحد الذي يثبتونه فى الإلهيات ، وفى المنطق أيضاً الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو « الجنس » و « الفصل » لا حقيقة لها ولا توجد إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع .

وبينا أن ما يثبتونه من العقليات التى هي « الجواهر العقلية » المجردة

عن المـادة ، وهي العقـل والنفس ، والمـادة والصورة الـتى ليست بجسم ولا عرض لا حقيقة لها فى الخارج ، وإنما تقدر في الأذهان ، لا فى الأعيان ، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه إنما يوجد فى الأذهـان لا فى الأعيان « والقيـاس العقلي » الذي يحتجون به لا بد فيه مـن قضيـة كلية .

والقياس نوعان « قياس الشمول » و « قياس التمثيل » .

والناس متنازعون فى مسمى « القياس » فقيل هو حقيقة فى التمثيل مجاز فى الشمول ، كما ذكر ذلك أبو حامد ، وأبو محمد المقدسي وغيرهما وقيل : هو حقيقة فى عكس ذلك ، كما قاله ابن حـزم وغيره من نفـاة قيـاس التمثيل ، وقيل : بل اسم القيـاس يتناولهما وهـذا قول جمهور الناس .

واسم « القياس العقلي » يدخل فيه هذا وهذا ؛ لكن من النـاس من ظن أن « قيـاس التمثيل » لا يفيد اليقـين ، ولا يستعمل في العقليات كما ذهب إليه أبو المعالي ، وأبو حامد ، والرازي ، وأبو محمد ، والآمدي وآخرون من أهل المنطق . وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء ، وهذا هو الصواب : فإن مآل القياسين إلى شيء واحـد وإنمـا يختلف بترتيب

الدليل ؛ فإن القائل إذا قال : النبيذ المتنازع فيه حرام ؛ لأنه مسكر ، فكان حراما قياساً على خمر العنب ، فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم ، وهو الذي يسمى في قياس التمثيل « مناطا » و « علة » و « أمارة » و « مشتركا » و « وضعا » ونحو ذلك .

ولا بد فى القياس الصحيح من أن يقيم دليلا على أن السكر مناط التحريم بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم ، فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول ، فإن النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، فالسكر فى هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر ، وهو العلة فى قياس التمثيل ، ولا بد له فى هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى ، وهي قوله : كل مسكر حرام ، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما .

وإذا قال القائل : إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس ، وهو جواب « سؤال المطالبة » وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية .

قيل له : وإثبات عموم القضية الكبرى فى قياس الشمول هو عمدة القياس ؛ فإن الصغرى في الغالب تكون معلومة ، كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوما ، وإذا كان ثبوت الوصف فى الفرع قد يحتاج إلى دليل ، كما قيل تحتاج

المقدمة الصغرى إلى دليل ، وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية ، ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينها أصلا ، واستعمال كلا القياسين فى الأمور الإلهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأحرى .

وبهـذه « الطريقة » جاء القرآن ، وهى طريقة سلف الأمة وأئمتها ، فإن الله سبحانه لا يماثله شيء مـن الموجودات في « قياس التمثيل » ولا أن يدخل فى « قياس شمول » تتماثل أفراده ، بل ماثبت لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به ، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه ، كما قال تعالى : (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ) وقال تعالى : (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) .

وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هـذا الموضع ، وبينا أن ما يستفاد بـ « القيـاس الشمولي » فى عامة الأمور قـد يستفاد بدون ذلك فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية ، كما إذا قيل : الكل أعظم من الجزء ، والضدان لا يجتمعان فما من كل معين وضدين معنيين إلا وإذا علم أن هذا جزء هـذا وأن هذا ضد هذا علم أن هذا أعظم من هذا وأن هـذا لا يجامع هذا

بدون أن يخطر بالبال قضية كلية أن كل ضدين لا يجتمعان وأن كُلَّ كُلٍّ فهو أعظم من جزء . وكذلك إذا قيل النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان بدون أن يستحضر أن كل نقيضين لا يجتمعان ، [ولا يرتفعان] .

فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى الذي لا بد فيه من قضية كلية ، [و] الأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلي ، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك ، وبينا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة ، وبينا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس ، وأن الأدلة أكمل وأنفع ، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال ، والقرآن جاء بهذه وهذه ، ومعرفة الإلهيات ، والنبوات وغيرها ، فتلك الطريقة أكمل وأتم .

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس الذي لا بد فيه من قضية كلية ، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً ، لا تفيد معرفة شيء معين ، وكل موجود فهو معين ، فكيف يقول عاقل مع هذا أنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق ؟! ثم إنهم في ضلالهم يظنون أن علم الأنبياء ، بل وعلم الرب سبحانه إنما حصل

بواسطة القياس المنطقي ، وأن النبى له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم فيكون أكمل من غيره فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوم طبيعية أو حسابية ونحو ذلك ، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به ؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعى مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة ، والبديهيات المعتادة ، والمتواترات ، والمجربات المعتادة . والحدسيات المعتادة ، والحس الباطن ، والظاهر ، والتجربة ، ونحو ذلك لا يعلم بمجرده إلا أمر معين جزئي ، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس ، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل ، وإما بعلم ضروري يحدثه الله فى القلب ابتداء ، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فإحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل فلا يكون في قياسهم إلا زيادة تطويل وتهويل وتضليل .

وقد بسطنا الكلام على « المنطق اليونانى » بما فيه من حق وباطل ونافع وضار في غير هذا الموضع . ونفي العلم إلا بهذا القياس ، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم ، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه ؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل فى العلوم الإلهية « قياس الأولى » كما قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ

ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ) إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كليــة تستوي أفرادها ، ولا يتماثلان فى شيء من الأشياء بل يعلم أن كل كمال — لانقص فيه بوجه — ثبت للمخلوق فالخالق أولى به ، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه ، وأمثال هذه « الأقيسة العقلية » التى من نوع الأمثال المضروبة في القرآن ، ولله المثل الأعلى ، وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع .

فلما كان الكفار بالرسالة على ما ذكر جاء في الكفار ببعضها من شاركهم فى بعض ذلك : فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض ، وأنــكروا سائر صفاته التى جاءت بها الرسل ، فأنـكروا بعض حقيقة الرسالة التى هي كلام الله ، وأنــكروا بعض ما فى الرسالة من صفات الله .

وأول من أظهر ذلك في الإسلام — وإن كان ذلك موجوداً قبل الإسلام في أمم أخرى — الجعــد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، وكان على ما قيل من أهل حران ، وكان فيهم أئمــة الفلاسفة ، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابى كثيراً مما تعلم من الفلسفة على ماذكره عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي ، فضحى بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسط على عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين ، وهم بقايا التابعين في وقته : مثل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه على ما فعل ، وشكروا ذلك فقال : أيهــا الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ؛ فإنى مضح بالجعد

ابن درهم ؛ إنه زعم أن الله لم يتخـذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ـــ تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ـــ ثم نزل فذبحه .

وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصابئين المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الإضافية أو المركبة منهما ، وهم فى هذا التعطيل موافقون فى الحقيقـة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية ؛ فإن جحود صفاتـه مستلزم لجحود ذاته ؛ ولهذا وافقوا فرعون فى تكذيبه لموسى بأن ربه فوق السموات حيث قال : (يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا) بخلاف محمد صلى الله عليـه وسـلم الذي صدق موسى لما عرج به إلى ربه ، وأخبر أنه وجد موسى هناك ، وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى ، فمحمد صـلى الله عليـه وسلم صدق موسى في أن ربه فوق السموات ، وفرعون كذبـه فى ذلك . والناس إما محمدي موسوي ، وإما فرعونى ؛ إذ فرعون كذب موسى فى أن الله فوق ، وكذبـه فى أن الله كلمه ، كما أنـكـر وجود الصانع ، ومحمد صدق موسى فى هذا كله .

وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون : إن الله ليس له كلام فى الحقيقة ؛ لكن كلامـه ـــ عند من أظهر الإقرار بالرسل منهم ـــ ما يفيض على نفوس الأنبياء ، وهو أنه محدث فى نفوسهم من غير أن

يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام ، وهكذا كان الجهم يقول أولا : إن الله لا كلام له ، ثم احتاج أن يطاق أن له كلاماً لأجل المسلمين فيقول : هو مجاز ؛ ولهذا كان الإمام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم ، وأن غرضهم التعطيل ، وأنهم زنادقة و « الزنديق » المنافق .

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة ، كما صنف الإمام أحمد « الرد على الزنادقة والجهمية » وكما ترجم البخاري آخر كتاب الصحيح بـ « كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » وكان عبد الله ابن المبارك يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية .

وتقول الصابئة المحضة ــ الذين آمنوا فى الظاهر وآمنوا فى الباطن ببعض الكتاب ــ كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من « العقل الفعال » أو غيره و « ملائكة الله » اسم لما يتشكل فى نفسه من الصور النورانية وقد يقولون : إن جبريل هو « العقل الفعال » أو هو ما يتمثل فى نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم ؛ ولهذا يقول هؤلاء : إن خاصة النبي التخييل ، وأن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه لمصلحة العامة ، ولم يفيدوا بكلامهم علماً ؛ لكن تخييلا ينتفع به العامة ، ويجعلون هذا من أفضل الأمور ، ويمدحون الأنبياء بذلك ، ويعظمونهم

وقد بسطنا الكلام على هذا فى مواضع أخر .

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين ، وزعموا أنهم مؤمنون وقالوا إنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهما من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الإسماعيلية ونحوهم الذين أخذوا معاني المتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها فى قالب التشيع والرفض . والإمامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار .

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية ، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار ، وإن شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم ابن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، وعمرو بن عثمان الشبلي ، والجنيد ابن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأبى عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي ونحوهم — رضي الله عنهم — كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء ؛ فإن قول هؤلاء الزنادقة — وإن كان فيه إيمان من وجه آخر — فهؤلاء موافقون فى الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال : ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾ لكن ذاك كفر به كله ظاهراً وباطناً ، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً ، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته : من أنه مطاع عظيم ، وأنه رئيس النوع الإنسانى ، وأن هذا الكلام الذي

جاء به كلام عظيم القدر ، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل ، لها ثلاث خصائص تتفرد بها عن غيرها .

خصيصة قوة الحدس والعلم . وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه ، وخصيصة قوة التخيل المطابق للحقائق بحيث يسمع فى نفسه الأصوات ، ويرى من الصور ما يكون خيالا للحقائق ، وأنه يجوز إضافة كلامه إلى الله ، وتسميته كلام الله حيث هو أمر به أمراً خيالياً . وفي الحقيقة عندهم ما يفيض على سائر النفوس الصافية من العلوم والكلمات هي أيضاً كلام الله مثل ما أنه كلام الله ؛ لكن هو أشرف وخطابه دل على أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته ، التى أخبرت بها الرسل لكن يطلقون عليه أنه متكلم ؛ ولهذا يقولون : إن « النبوة » مكتسبة فطمع غير واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهروردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين .

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع مثل كلامنا على إبطال قولهم : إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية .

وأما « المعتزلة » ونحوهم فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم فى الحقيقة التى يعلم الناس أن صاحبها يتكلم [بل كلامه] منفصل عنه ، ويزعمون أن ذلك حقيقة ، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهواء أو غيره

أصواتاً يسمعها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من غير أن يقوم بنفسه كلام لا معنى ولا حروف ، وهم يتنازعون فى ذلك المخلوق هل هو جسم أو عرض أو لا يوصف بواحد منها .

ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابعيهم فى تكفيرهم والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف ، واطلع الأئمة الحذاق من العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة ، وإن كان عوامهم لا يفهمون ذلك ، كما اطلعوا على أن حقيقة قول القرامطة والإسماعيلية هو التعطيل والزندقة ، وإن كان عوامهم إنما يدينون بالرفض ، وجرت فتنة الجهمية ، كما امتحنت الأئمة ، وأقام « الإمام أحمد » إمام السنة ، وصديق الأمة فى وقته ، وخليفة المرسلين ، ووارث النبيين ، فثبت الله به الإسلام والقرآن ، وحفظ به على الأمة العلم والإيمان ، ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .

فاستقر أهل السنة وجماهير الأمة وأهل الجماعة وأعلام الملة فى شرقها وغربها على الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله وجاء به خاتم النبيين مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وهو أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله ، وإن كلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه ؛ فإن هذا جحود لكلامه الذي

هو رسالته ، ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أممهم ، وإلحاد فى أسماء الله وآياته وتمثيل له بالمعدوم والموات ؛ فإن الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو ذلك صفات كمال ، والرب تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق بـه ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منـه ، كيف وهو خالق الكمال للكاملين .

و « أيضا » فمن لم يتصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به ، أو غير قابل للاتصاف به . فإن قبله ولم يتصف به كان موصوفا بصفات النقص : كالموت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء ؛ فإنهم متفقون على أن القابل لهذا ولهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر ، وإن قيل : إنـه لايقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها . فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً وتارة أصم ، وتارة بصيراً وتارة أعمى ، وتارة متكلما وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا .

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص . وذلك أن « المتفلسفة »

اصطلحوا على تقسيم « المتقابلين بالنفي والإثبات » إلى النقيضين ، وإلى ما يسمونه « العدم والملكة » فـ « العدم » عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والخرس ؛ فإنه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً . فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا .

« وشبهتهم » لبست على طائفة من أهل النظر ، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام لم يلزم أن يتصف بصفات النقص لأنهما متقابلان تقابل « العدم والملكة » ، لا تقابل النقيضين .

فيقال لهم : هذا أولاً اصطلاح لكم ، وإلا فغيركم يسمى الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك ، كما فى مثل قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ .

ويقال لهم : « ثانياً » النظر فى المعاني العقلية ، ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها .

ويقال لهم « ثالثاً » : إذا قلتم لا يتصف بواحد منهما لكونه لا يقبل ذلك ، فهذا النقص أعظم من نقص العمى والصمم والبكم ؛ فإنما لا يقبل

الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها ؛ فإنه منه بدأ ؛ لا كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية : إنه ابتدأ من نفس النبي أو من « العقل الفعال » أو من « الهواء » بل هو تنزيل من حكيم حميد ، وإنه إليه يعود إذا أسري به من المصاحف والصدور .

وصار « الإمام أحمد » علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع الطوائف : كلهم يوافقه فى جمل أقواله ، وأصول مذاهبه ؛ لأنه حفظ على الأمة الإيمان الموروث ، والأصول النبوية — ممن أراد أن يحرفها ويبدلها — ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به ، والذي قاله هو الذي يقوله سائر الأئمة الأعيان ، حتى إن أعيان أقواله منصوصة عن أعيانهم ؛ لكن جمع متفرقها ، وجاهد مخالفها ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة عليها ، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده فى الجهمية كثيرة مشهورة .

و « الجهمية » هم نفاة صفات الله ، المتبعون للصابئة الضالة . وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس . فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث : ولا نقول مخلوق ، ولا غير مخلوق بل نقف ، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية ولكن كان المؤمنون أشد رهبة فى صدورهم من الله .

و « طائفة أخرى » قالت : نقول كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق ، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق ، وهؤلاء هم « اللفظية » . فصارت الأمة تفزع إلى إمامها إذ ذاك ، فيقول لهم أحمد : افترقت الجهمية على « ثلاث فرق » فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرقة تقول كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة . فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قرآن مخلوق لم يتكلم الله به ، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة ونحن إنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا ، وربما قال بعضهم ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا ، وما فى الأرض قرآن إلا هذا ، وهذا مخلوق .

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا فى البدعة ، وردوا باطلا بباطل ، وقابلوا الفاسد بالفاسد ، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة ؛ لأن هذا هو القرآن ، والقرآن غير مخلوق ، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد فى الدلالة ، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً وحاله إذا كان مقروناً مقيداً . فأنكر الإمام أحمد أيضاً على من قال : إن تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة ، وأمر بهجران هؤلاء ، كما جهم الأولين وبدعهم . والنقل عنه

بذلك من رواية ابنه عبد الله وصالح والمروذي وفوران وأبي طالب وأبي بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه .

وقد قام أخص أتباعه « أبو بكر المروذي » بعد مماته في ذلك ، وجمع كلامه وكلام الأئمة من أصحابه وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، والأثرم ، وأبي داود السجستاني ، والفضل بن زياد ، ومثنى بن جامع الأنباري ، ومحمد بن إسحاق الصنعاني ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، وغير هؤلاء من علماء الإسلام . وبين بدعة هؤلاء الذين يقولون إن تلاوة العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة .

وقد ذكر ذلك الخلال في « كتاب السنة » وبسط القول في ذلك . قال الخلال : أخبرني أبو بكر المروذي ، قال : بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نصيبين : أن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال أبو بكر : فجاءنا صالح بن أحمد ، فقال : قوموا إلى أبي ، فجئنا فدخلنا على أبي عبد الله ، فإذا هو غضبان شديد الغضب ، قد تبين الغضب في وجهه ، فقال : اذهب فجئني بأبي طالب ، فجئت به ، فقعد بين يدي أبي عبد الله ، وهو يرعد ، فقال : كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ ! ! فقال : إنما حكيت عن نفسي ، قال : فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي ، فما سمعت عالماً قال هذا . قال أبو عبد الله : القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف . فقيل لأبي طالب : اخرج وأخبر

أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال لفظي بالقرآن غير مخلوق . فخرج أبو طالب فلقي جماعة من المحدثين فأخبرهم : أن أبا عبد الله نهاه أن يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق .

ومع هذا فكل واحدة من « الطائفتين » الذين يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق والذين يقولون لفظنا وتلاوتنا مخلوقة ينتحل أبا عبد الله وتحكي قولها عنه وتزعم أنه كان على مقالتها ، لأنه إمام مقبول عند الجميع ؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد ، والباطل الذي تنكره كل طائفة على الأخرى يرده أحمد . فمحمد بن داود المصيصي أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود ، وجماعة في زمانه كأبي حاتم الرازي وغيره يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وتبعهم طائفة على ذلك : كأبي عبد الله بن حامد ، وأبي نصر السجزي ، وأبي عبد الله بن مندة ، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري ، وأبي العلاء الهمداني ، وأبي الفرج المقدسي ، وغير هؤلاء يقولون : إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، ويروون ذلك عن أحمد ، وأنه رجع إلى ذلك ، كما ذكره أبو نصر في كتابه « الإبانة » وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه ، وأهل بيته ، والعلماء الثقات لاسيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه حتى رده أحمد عن ذلك وغضب عليه غضباً شديداً .

وقد رأيت بعض هؤلاء طعن فى تلك النقول الثابتة عنه . ومنهم من حرفها لفظاً ، وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف فأما الذين ثبتوا النقل عنه ووافقوه على إنكاره الأمرين وهم جمهور أهل السنة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبي الحسن الأشعري وأمثاله فإنه ذكر في « مقالات أهل السنة والحديث » أنهم ينكرون على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، ومن قال : لفظي به غير مخلوق ، وأنه يقول بذلك .

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمد وغيره فى ذلك بأنه منع أن يقال : إن القرآن يلفظ به ، وهذا قاله الأشعرى وابن الباقلاني والقاضي أبو يعلى وأتباعه ، كأبى الحسن بن الزاغونى وأمثاله .

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على من قال لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الأشعري وأتباعه . ومنهم من قال : بل المعنى الذي أنكره أحمد على من قال لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القاضي وابن الزاغونى وأمثالهما ؛ فإن أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقا حروفه أو معانيه ، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن ، وأن كلام الله إذا عبر عنه بالعربية يكون قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة ، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، أو أن يطلق

القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق ، وأحمـد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو أصواتهم غير مخلوق ؛ فضـلا عن أن يكون قديماً ! وكلام أحمد فى « مسألة التلاوة والإيمان والقرآ ن » من نمط واحد منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما فى ذلك من البدعة والضلال .

ولما كان أحمد قــد صار هو إمام السنة كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنــة ينتحله إماماً كما ذكر ذلــك الأشعرى فى « كتاب الإبانة » وغيره فقــال إن قال قائل : قــد أنكرتم قول « الجهمية » و « المعتزلة » و « الخوارج » و « الروافض » و « المرجئة » فعرفونا قولـكم الذي به تقولون وديانتكم التى بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله « أحمد بن حنبل » قائلون ، ولما خالفه مجانبون : فإنه الإمام الـكامل ، والرئيس الفـاضل الذي أبان الله به الحـق ، وأوضح بـه المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشـا كين ، وذ كر جملا من المقالات .

فلهذا صار من بعده متنازعين فى هذا الباب . « فالطائفة » الذين يقولون لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه ، ويزعمون أن هـذا آخر قوليه ، أو يطعنون فيما يناقض ذلك عنه ، أو يتأولون كلامه بما لم يرده .

و « الطائفة » الذين يقولون إن التلاوة مخلوقة ، والقرآن المنزل الذي نزل بـه جبريل مخـلوق ، وإن الله لم يتكلم بحروف القرآن : يقولون : إن هـذا قول أحمد ، وأنهم موافقوه ، كما فعل ذلـك أبو الحسن الأشعري . فيما ذكره عن أحمد ، وفسر به كلامه ، وذكر أنه موافقه ، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلانى فى تنزيه أصحابه من مخالفة السنـة وأئمتها كالإمام أحمد ، وكما فعله أبو نعيم الأصبهانى فى كتـابه المعروف فى ذلك ، وكما فعله أبو ذر الهروي ، والقاضي عبد الوهـاب المالـكي ، وكما فعله أبو بكر البيهقي فى الاعتقاد فى مناقب الإمام أحمد . وروى عنـه أنه قال لفظي بالقرآن مخلوق وتأول ما استفاض عنـه من الإنـكار على من قال لفظي بالقرآن [غير] مخلوق على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق .

وكذلك أيضـا افترى بعض الناس عـلى البخاري الإمام صاحب « الصحيح » أنـه كان يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وجعـلوه من « اللفظية » حتى وقع بينه وبين أصحابه : مثل محمد بن يحيى الذهـلي .

وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وغيرهم بسبب ذلك ، وكان فى القضية أهواء وظنون ، حتى صنف « كتاب خلق الأفعال » وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة ، عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه « الصحيح » من أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يتكلم بصوت ، وينادي بصوت . وساق فى ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه ، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد ، وأن الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارئ ، وبين دلائل ذلك ، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق .

وقال فى قوله : (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ) إن حدثه ليس كحدث المخلوقين . وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » وذكر عن علماء السلف : أن خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق : بل فعله القائم به غير مخلوق ، وذكر عن نعيم بن حماد الخزاعى : أن الفعل من لوازم الحياة ، وأن الحي لا يكون إلا فعالا . إلى غير ذلك من المعاني التى تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول .

وذكر أن كل واحدة من طائفتي « اللفظية المثبتة والنافية » تنتحل أبا عبد الله ، وأن أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب ، وأنهم لم يفهموا بعض كلامه لدقته وغموضه ، وأن الذي قاله وقاله الإمام أحمد هو قول الأئمة والعلماء ، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة .

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى — رحمه الله — على ظهر « كتاب العدة » بخطه ، قال : نقلت من آخر « كتاب الرسالة » للبخاري في أن القراءة غير المقروء . وقال : وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجها كلها يخالف بعضها بعضا ، والصحيح عندي أنه قال ما سمعت عالما يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق . قال وافترق أصحاب أحمد ابن حنبل على نحو من خمسين . قال أبو عبد الله البخاري قال ابن حنبل « اللفظي » الذي يقول : القرآن بألفاظنا مخلوق .

وكان « أيضاً » قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله من الكلابية ونحوهم — أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري : الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية ، وطريقته يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث والسنة ؛ لكن فيها نوع من البدعة ؛ لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام الأمور الاختيارية بذاته ؛ ولكن له في الرد على الجهمية — نفاة الصفات والعلو — من الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله

في هذا الباب، وإفساده لمذاهب نفاة الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب، وصار ماذكره معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم لكثير من أولى الألباب، حتى صار قدوة وإماما لمن جاء بعده من هـــذا الصنف الذين أثبتوا الصفات، وناقضوا نفاتها؛ وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهـم الفاسدة: التى أوجبت فساد بعض ماقالوه من جهـة المعقول، ومخالفته لسنة الرسول.

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي، وأبو العبـاس القلانسي، ثم أبو الحسن الاشعري، وأبو الحسن بن مهدي الطبري، وأبو العباس الضبعي، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو حاتم البستي، وغير هؤلاء: المثبتين للصفات، المنتسبين إلى السنة والحديث، المتلقبين بنظار أهل الحديث.

وسلك طريقة ابن كلاب ـ في الفرق بين « الصفات اللازمة » كالحياة و « الصفات الاختيارية » وأن الرب يقوم بـه الأول دون الثانى ـ كثير من المتأخرين: من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد: كالتميميين أبى الحسن التميمي، وابنه أبى الفضل التميمي، وابن ابنه رزق الله التميمي، وعلى عقيدة الفضل التى ذكر أنها عقيدة أحمـد اعتمد أبو بكر البيهقي فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد.

وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم وأتباعـه

« السالمية » والقاضي أبو يعلى وأتباعه : كابن عقيـل ، وأبى الحسن بن الزاغونى ، وهي طريقة أبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي ، والقاضي أبي بكر بن العربى وغيرهم ؛ لكنهم افترقوا في القرآن ، وفى بعض المسائل على قولين — بعد اشتراكهم فى الفرق الذي قرره ابن كلاب — كما قد بسط كلام هؤلاء فى مواضع أخر .

والإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمـة السنة كانوا يحذرون عن هـذا الأصـل الذي أحدثـه ابن كلاب ، ويحذرون عن أصحابـه ، وهـذا هو سبب تحذير الإمام أحمـد عن الحـارث المحاسبى ونحـوه من الـكلابية .

ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئـذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول : إن الله لم يتكلم بصوت ، فأنكر أحمد ذلك ، وجهم من يقوله ، وقال : هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل ، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت ، وكذلك أنكر على من يقول إن الحروف مخلوقـة ، قال عبد الله بن أحمـد بن حنبل فى « كتاب السنة » : قلت لأبى : إن ههنا من يقول إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : يابني ! هؤلاء جهمية زنادقـة ، إنما يدورون عـلى التعطيـل ، وذكـر الآثار فى خلاف قولهم .

وكذلك البخاري صاحب « الصحيح » وسائر الأئمة أنكروا ذلك أيضاً ، وروى البخاري في آخر « الصحيح » وفي « كتاب خلق الأفعال » ما جاء فى ذلك من الآثار ، وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن ، موافقة منه للإمام أحمد وغيره من الأئمة ، حيث بين أن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار ، وأن ذلك ليس صوت العبد بالقراءة ؛ بل ذلك هو صوت العبد ، كما قد نص على ذلك كله في مواضع ، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الإثبات والتفريق : لا يوافقون قول من يزعم أن الكلام ليس فيه حرف ولا صوت ، ولا يوافقون قول من يزعم أن الصوت المسموع من القراء وألفاظهم قديمة ، ولا يقولون : إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات .

وقد كتبت كلام « الإمام أحمد » ونصوصه ، وكلام الأئمة قبله وبعده فى غير هذا الموضع ؛ فإن جواب هـذه « المسألة » لا يحتمل البسط الكثير ؛ ولم يكن فى كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أن الصوت الذي تكلم الله به قديم ؛ بل يقولون لم يزل الله متكلما ، وقد يقولون لم يزل الله متكلما إذا شاء بما شاء ، كما يقول ذلك الإمام أحمد ، وابن المبارك ، وغيرهما .

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده ـ من أصحابهم وغيرهم ـ فى معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد بـه أن نفس الكلام قديم

أزلي كالعلم ؟ أو أن الله لم يزل موصوفا بأنه متكلم يتكلم إذا شاء ؟ على قولين . ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وأبو بكر عبد العزيز فى « كتاب الشافى » عن أصحاب الإمام أحمد ، وذكرهما أبو عبد الله ابن حامد فى كتابه « أصول الدين » . والنزاع فى ذلك بين سائر طوائف السنة والحديث ، وهذا مبنى على أصل « الصفات الفعلية الاختيارية » والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقه والتصوف ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق ، حتى بين الفلاسفة أيضاً ، وقد حققت ذلك في غير هذا الموضع .

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ؛ فإن هؤلاء تنازعوا فى أن الرب هل يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ على قولين . فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ؛ بل كلامه لازم لذاته كحياته . ثم من هؤلاء من عرف أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول : القديم هو الحروف والأصوات ؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة ، والصوت لا يبقى زمانين ، فضلا عن أن يكون قديماً . فقال : القديم هو معنى واحد ، لا متناع معانى لا نهاية لها ، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد . فقالوا : هو معنى واحد ، وقالوا : إن الله لا يتكلم بالكلام العربى والعبري ، وقالوا : إن معنى التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد ،

ومعنى آية الكرسي وآية الدين معنى واحد . إلى غير ذلك من اللوازم التى يقول جمهور العقلاء إنها معلومـة الفساد بضرورة العقل ، ومن هؤلاء من عرف أن الله تـكلم بالقرآن العربى والتوراة العبرية ، وأنـه نادى موسى بصوت وينادي عباده بصوت ، وأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ؛ لكن اعتقدوا مع ذلك أنه قديم العين ، وأن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته . فالتزموا أنه حروف وأصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وقالوا : إن الباء لم تسبق السين ، والسين لم تسبق الميـم ، وأن جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقتراناً قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وقالوا : هي مترتبة فى حقيقتها وماهيتها غير مترتبة في وجودها . وقـال كثير منهـم : إنها مـع ذلك شيء واحـد ، إلى غـير ذلك من « اللوازم » الـتى يقول جمهور العقلاء إنهـا معلومـة الفسـاد بضرورة العقل .

ومن هؤلاء من يقول : هو قديم ، ولا يفهم معنى القديم . فإذا سئل عن ذلك قال : هي قديمة فى العلم ، ولا يعلم أن المخلوقات كالسماء والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقـة ، ومنهم من يقول : قديم بمعنى أنه متقدم على غيره ، ولا يعرف أن الذين قالوا : إنه مخلوق لاينازعون في أنه قديم بهذا المعنى ، ومنهم من يقول : إن مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق ، ولا يفهم أنه مع ذلك يكون أزليا لم يزل ، وهؤلاء سمعوا

ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق : قالوا هو قديم ، فوافقوا على أنه قديم ، ولم يتصوروا ما يقولونه .

كما أن من الناس من قال : هو غير مخلوق ، وأراد بذلك أنه غير مكذوب ، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس ، كما لم يتنازعوا فى أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره .

و « القول الثانى » قول من يقول إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق . وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر ، وأئمة السنة والحديث ، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم فى الأزل بمشيئته ، كما لم يكن يمكنه عندهم أن يفعل فى الأزل شيئاً ، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلما ، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلا ، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة .

وأما السلف والأئمة فقالوا : إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن كان مع ذلك قديم النوع - بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء ؛ فإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلما بمشيئته وقدرته ، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعاً منه ، أو قدر أن ذلك ممكن ، فكيف إذا

كان ممتنعا ؟ لامتناع أن يصير الرب قادراً بعد أن لم يكن ، وأن يكون التكلم والفعل ممكنا بعد أن كان غير ممكن ؟ كما قد بسط هذا فى مواضع أخر .

وكانت « اللفظية الخلقية » من أهل الحديث يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، وإن التلاوة غير المتلو . والقراءة غير المقروء . و « اللفظية المثبتة » يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، والتلاوة هي المتلو ، والقراءة هي المقروء .

وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد ، وأعيان أصحابه ، وسائر أئمة السنة والحديث فلا يقولون مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً كما لا يقولون : الاسم هو المسمى ، ولا غير المسمى .

وذلك أن « التلاوة ، والقراءة » كاللفظ قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ قراءة ، ولفظ يلفظ لفظا ، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته ، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة ، واللفظ مخلوق ، وليس ذلك هو القول المسموع : الذي هو المتلو . وقد يراد باللفظ الملفوظ ، وبالتلاوة المتلو ، وبالقراءة المقروء ، وهو القول المسموع ، وذلك هو المتلو ، ومعلوم أن القرآن المتلو : الذي يتلوه العبد ، ويلفظ

به غير مخلوق ، وقد يراد بذلك مجموع الأمرين . فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع .

وصار « ابن كلاب » يريد بالتلاوة القرآن العربى ، وبالمتلو المعنى القائم بالذات ، وهؤلاء إذا قالوا : التلاوة غير المتلو ، وهي مخلوقة : كأن مرادهم أن الله لم يتكلم بالقرآن العربى ، بل عندهم أن القرآن العربى مخلوق . وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث . ويظن هؤلاء أنهم يوافقون البخاري أو غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو ، وليس الأمر كذلك .

ومن الآخرين من يقول : « التلاوة » هي المتلو ، ويريد بذلك أن نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من القراء ، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب ، وهؤلاء يقولون : نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق ، وهؤلاء « اتحادية ، حلولية فى الصفات » يشبهون النصارى من بعض الوجوه ، وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة .

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد وإسحق وغيرهما ممن ينكر على « اللفظية » وليس الأمر كذلك ؛ فلهذا كان المنصوص عن الإمام أحمد وأئمة السنة والحديث أنه لا يقال : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، ولا غير

مخلوقة . ولا أن التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً ؛ فإن اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا ؛ ولهذا يجعل الكلام قسيما للعمل ليس قسماً منه فى مثل قوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) . وقد يجعل قسما منه كما فى قوله : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . قال طائفة من السلف عن قول لا إله إلا الله ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فقال رجل لو أن لي مثل مالفلان لعملت فيه مثل ما يعمل » ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف لا يعمل اليوم عملا هل يحنث بالكلام ؟ على قولين . ذكرهما القاضي أبو يعلى وغيره .

ولم تكن « اللفظية الخلقية » ينكرون كون القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وأن الله يتكلم بصوت ؛ بل قد يقولون : القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ؛ فإن الله يتكلم بصوت ، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة ، وكما جاءت به الآثار ؛ ولكن يقولون المنزل إلى الأرض من الحروف والمعانى ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق ؛ بل ربما سموها حكاية عن كلام الله ، كما يقوله ابن كلاب ، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري ، وربما سموها كلام الله ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم .

ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولا ــ هم واضعوها : من امتناع تكلمه تعالى بالحروف ، وامتناع قيام « الصفات الاختيارية » بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك ؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ــ اضطره ذلك إلى أن يقول : ليس كلام الله إلا مجرد المعنى ، وإن الحروف ليست من كلام الله ، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري ؛ وإن تنازعا فى أن الرب كان في الأزل آمراً ناهياً ، أو صار آمراً ناهياً بعد أن لم يكن . وفى أن « الكلام » هل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري ، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب .

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين .

(أحدهما) أن نصف القرآن من كلام الله ، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم ؛ بل خلقه الله فى الهواء ، أو في اللوح المحفوظ ، أو أحدثه جبريل ، أو محمد صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء فى كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقه ؛ لكن هؤلاء يقولون : إن هذا النصف المخلوق كلام الله ، وأولئك يقولون : هو مخلوق منفصل عن الله ، وهو كلامه ؛ لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلا به قائماً بنفسه ، ولا معانى ولا حروفا . وهؤلاء يقولون : لله كلام قائم به

متصل به هو معنى . فصار أولئك أشد بدعة في نفيهم حقيقة الكلام عن الله ، وفى جعلهم كلام الله مخلوقاً . وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون مـن كلام الله ، وصاروا فى هذا موافقين الوحيد في بعض قوله لا فى كله ، وهو قولهـم : إن نصف القرآن ليس قول الله ؛ بل قول البشر .

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ولم يتأمل هذا القـائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل ، وتارة إلى رسول هو محمد بقوله في الآية الأولى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) فهذا جبريل [وقال فى الآية الأخرى] : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وهذا محمد ، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتدأ حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما ؛ لا متنـاع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه ؛ ولأنه قال : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ) وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً . فلو كان الرسول ابتدأه لـكان القرآن من عنده لا من عند الله ، وإنمـا أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ؛ ولهذا قال : (لَقَوْلُ رَسُولٍ) ولم يقل لقول ملك ولا نبي ؛ بل جاء باسم الرسول ليتبين

أنه واسطة فيه وسفير ، والـكلام كلام لمن اتصف به مبتدئا منشئاً ؛ لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً ، كما يقـال مثل ذلك فى جميع كلام الناس فكيف بكلام الله ؟ وهذا على القول المشهور فى التفسير المطابق لظاهر القرآن : أن الرسول في أحد الموضعين محمد صلى الله عليـه وسلم ، وفى الآخر جبريل عليه السلام .

وأما على قول طائفة جعلته في الموضعين جبريل فيكون الجواب هو الثاني ، والإثبات في الحقيقة حجة لمن يقول إنما يتـكلم بكلام الله ويقول قوله ؛ لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله بـه ، والمعنى يراد من هذا قطعاً كما أريد منه اللفظ أيضا

وأيضا فإن هؤلاء جعلوا الـكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبـار ، وأنه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن ، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة ، وإن عبر عنـه بالسريانية كان هو الإنجيل ، وهذا مما أجمع جمهور العقـلاء على أن فساده معلوم بالضرورة .

و « المعنى الثانى » الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة قولهم إن القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معـانيه بل هو مخلوق عندهم . ويقولون : هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس ؛ لأن

العبارة لا تشبه المعبر عنه ؛ بخلاف الحكاية والمحكى ، وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول « اللفظية » من أهل الحديث الذين أنكر عليهم أئمة السنة وقالوا هم « جهمية » إذ جعلوا الحروف من إحداث الرسول ، وليست مما تكلم الله به بحال ، وقالوا : إنه ليس لله في الأرض كلام ، ولم يكن أيضاً في « اللفظية » القدماء الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق من يقول إن صوت العبد غير مخلوق ، أو أن الصوت القديم يسمع من العبد ، أو أن هذا الصوت صوت الله ، أو يسمع معه صوت الله ؛ وإنما أحدث هذا أيضاً المتطرفون منهم ، كما أحدث المتطرفون من أولئك أن حروف القرآن ليست كلام الله ؛ فإن هاتين « البدعتين » الشنيعتين لم تكونا بعد ظهرتا في أولئك المنحرفين الذين أنكر الإمام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين ، وأن القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس ، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والإنجيل والقرآن .

و « الأخرى » قد رأت حروف القرآن من كلام الله ، وأن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ، وأن المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وأنه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن واحداً ، وعلموا أنا إذا ترجمنا التوراة بالعربية لم يصر معناها معنى القرآن ، وأن هذه الأقوال معلومة الفساد

بالضرورة ، عارضها بعضها ؛ لأن القرآن حرف وصوت ، واعتقد بعضهم أنــه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات ، وأولئــك يقولون ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس .

وكلا هذين السلبين الجحودين الحادثين خلاف ما كان عليه الأئمة كالإمام أحمد وغيره من الأئمة ، وأعيان العلمـاء من سائر الطوائف . فإن الكلام عندهم اسم للحروف والمعــانى جميعاً ، كما أن « الإنسان » الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً ، ومــن قال : إن الإنسان ليس إلا هــذه الجملة المشــاهدة فهو بمنزلة من قال ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة ، ومن قال : إن الإنسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد فهو بمنزلة مــن قال : إن الكلام ليس إلا معنى وراء هــذه الحروف والأصوات ، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الأسماء وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله .

فصــــــل

ثم إن فروخ « اللفظية النافية » الذين يقولون بأن حروف القرآن ليست من كلام الله تروي عن منازعيها أنهم يقولون : القرآن ليس هو إلا الأصوات المسموعة من العبد ، وإلا المداد المكتوب في الورق

وإن هذه الأصوات وهذا المداد قديمان ، وهذا القول ما قاله أحد ممن يقول إن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات ؛ بل أنكروا ذلك وردوه ، وكذبوا من نقل عنهم : أن المداد قديم ، ولكن هذا القول قد يقوله الجهال المتطرفون ، كما يحكى عن أعيانهم مثل سكان بعض الجبال : أن الورق والجلد والوتد وما أحاط به من الحائط كلام الله ، أو ما يشبه هذا اللغو من القول الذي لا يقوله مسلم ولا عاقل .

وفروخ « اللفظية المثبتة » الذين يقولون إن القرآن ليس إلا الحروف والصوت : تحكى عن منازعيها : أن القرآن ليس محفوظاً فى القلوب ، ولا متلوا بالألسن ، ولا مكتوبا فى المصاحف ، وهذا أيضاً ليس قولاً لأولئك ؛ بل هم متفقون على أن القرآن محفوظ فى القلوب متلو بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ، لكن جهالهم وغاليتهم إذا تدبروا حقيقة قول مقتصديهم — إن القرآن العربي لم يتكلم الله به ، وإنه ليس إلا معنى واحد قائم بالذات ، وأصوات العباد ومداد المصحف يدل على ذلك المعنى ، وأنه ليس لله فى الأرض كلام فى الحقيقة ، وليس فى الأرض إلا ما هو دال على كلام الله ، ولم يقل إلا ما هو دال على كلام الله ، وكلام الله إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وهو معنى واحد لا يتعدد ، ولا يتبعض ، ولا يتكلم الرب بمشيئته وقدرته : إلى

أمثال ذلك من حقائق قول المقتصدين ــ أسقطوا حرمة المصحف ، وربما داسوه ووطئوه ، وربما كتبوه بالعذرة أو غيرها .

وهؤلاء أشد كفراً ونفاقا ممن يقول الجلد والورق كلام الله ؛ فإن أولئك آمنوا بالحق وبزيادة من الباطل ، وهؤلاء كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، فسوف يعلمون ؛ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون .

وأما أهل العلم بالمقالة وأهل الإيمان بالشريعة فيعظمون المصحف ويعرفون حرمته ويوجبون له ما أوجبته الشريعة من الأحكام ، فإنه كان في قولهم نوع من الخطأ والبدعة ، وفى مذهبهم من التجهم والضلال ما أنكروا به بعض صفات الله وبعض صفات كلامه ورسله ، وجحدوا بعض ما أنزل الله على رسله، وصاروا مخانيث للجهمية الذكور المنكرين لجميع الصفات ، لكنهم مع ذلك متأولون قاصدون الحق .

وهم مع تجهمهم هذا يقولون : إن القرآن مكتوب فى المصحف مثل ما أن الله مكتوب فى المصحف ، وإنه متلو بالألسن مثل ما أن الله مذكور بالألسن ، ومحفوظ في القلوب مثل ما أن الله معلوم بالقلوب ، وهذا القول فيه نوع من الضلال والنفاق والجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله [ما فيه] ، وهو الذي أوقع الجهال في الاستخفاف بحرمة

آيات الله وأسمائه حتى ألحدوا فى أسمائه وآياته .

كما أن إطلاق الأولين : أنه ليس للقرآن حقيقة إلا الحروف والأصوات ، ولا يفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت القارئ ، وأن القرآن قديم أوقع الجهال منهم والكاذبين عليهم فى نقلهم عنهم : أن أصوات العباد والمداد الذي فى المصحف قديم ، وأن الحروف التى هي كلام الله هي المداد ، وإن كانوا لم يقولوا ذلك ؛ بل أنكروه ؛ كما فرق الله بين الكلمات والمداد فى قوله : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا) فإن هؤلاء غلطوا « غلطين » غلطاً فى مذهبهم وغلطا في الشريعة .

أما الغلط في « تصوير مذهبهم » فكان الواجب أن يقولوا : إن القرآن في المصحف مثل ما أن العلم والمعاني في الورق ، فكما يقال : العلم فى هذا الكتاب يقال : الكلام فى هذا الكتاب ؛ لأن الكلام عندهم هو المعنى القائم بالذات فيصور له المثل بالعلم القائم بالذات لا بالذات نفسها .

وأما الغلط فى « الشريعة » فيقال لهم : إن القرآن فى المصاحف مثل ما أن اسم الله فى المصاحف ؛ فإن القرآن كلام : فهو محفوظ بالقلوب كما يحفظ الكلام بالقلوب ، وهو مذكور بالألسنة كما يذكر

الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما أن الكلام يكتب فى المصاحف والأوراق . والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه ، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة . فمن قال : إن القرآن محفوظ كما أن الله معلوم ، وهو متلو كما أن الله مذكور ، ومكتوب كما أن الرسول مكتوب . فقد أخطأ القياس والتمثيل بدرجتين :

فإنه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها . والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ) وبين قوله تعالى : (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) . فإن القرآن لم ينزل على أحد قبل محمد : لا لفظه ، ولا جميع معانيه ، ولكن أنزل الله ذكره والخبر عنه ، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه ، فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد فى زبر الأولين ، وهو مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل . فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسن ، مكتوب فى المصحف ، كما أن القرآن معلوم لمن قبلنا مذكور لهم مكتوب عندهم ، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه ، وأما نحن فنفس القرآن أنزل إلينا ونفس القرآن مكتوب فى مصاحفنا ، كما أن نفس القرآن فى الكتاب المكنون وهو فى الصحف المطهرة .

ولهذا يجب الفرق بين قوله تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ)

وبين قوله تعالى : (وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ * فِي رَقّٖ مَّنشُورٍ) ؛ فإن الأعمال في الزبر كالرسول وكالقرآن في زبر الأولين ، وأما « الكتاب المسطور في الرق المنشور » فهو كما يكتب الكلام نفسه والصحيفة ، فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء فله « أربع مراتب » في الوجود : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان : وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي . ولهذا كان أول ما أنزل الله من القرآن : (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ) وذكر فيها أنه سبحانه معطي الوجودين فقال : (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ) فهذا الوجود العيني ، ثم قال : (ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ) فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني ، وذكر التعليم بالقلم ؛ لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة ، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى ، فدل بذكره آخر المراتب على أولها [لأنه] لو ذكر أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق .

وإذا كان كذلك فالقرآن كلام ، والكلام له « المرتبة الثالثة » ليس بينه وبين الورق مرتبة أخرى متوسطة ؛ بل نفس الكلام يثبت في الكتاب ، كما قال الله تعالى : (إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ

مَكْنُونٍ) وقال تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) وقال : (يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) وقال : (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ) وقال : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ) .

وقد يقال : إنه مكتوب فيها ، كما يطلق القول : إنه فيها ، كما قال تعالى : (وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) وأما الرب سبحانه أو رسوله أو غير ذلك من الأعيان فإنما فى الصحف اسمه ، وهو من الكلام ؛ ولهذا قال : (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ) وإنما فى التوراة كتابته وذكره وصفته واسمه وهي « المرتبة الرابعة » منه ، فكيف يجوز تشبيه كون القرآن أو الكلام فى الصحف أو الورق بكون الله أو رسوله أو السماء أو الأرض فى الصحف أو الورق ؟!

ولو قال قائل : الله أو رسوله فى الصحف أو الورق لأنكر ذلك ؛ إلا مع قرائن تبين المراد ، كما فى قوله : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ) وفى قوله : (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) فإن المراد بذلك ذكره وكتابته . و « الزبر » جمع زبور ، والزبور فعول بمعنى مفعول أي مزبور أي : مكتوب فلفظ الزبور يدل على الكتابة ، وهذا مثل ما فى الحديث المعروف عن ميسرة الفجر : « قال قلت : يا رسول الله !

متى كنت نبيـاً ـــ وفي رواية متى كتبت نبياً ـــ ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » رواه أحمد . فهــذا الكون هو كتابته وتقديره ، وهو « المرتبة الرابعة » كما تقدم.

فإن هذه المرتبة تتقدم وجود المخلوقات عند الله ، وعند من شاء من خلقه ؛ وإن كانت قد تتأخر أيضاً ؛ فـ « إن الله كتب مقــادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله : (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : إن الله يأمر الملائـكة بأن تنسخ من اللوح المحفوظ ما كتبه من القدر ، ويأمر الحفظة أن تـكتب أعمال بني آدم فتقابل بين النسختين فتـكونان سواء . ثم يقول ابن عباس : ألستم قوماً عرباً ؟ وهل تـكون النسخة إلا من أصل ؟.

والتقدير والكتابة تـكون تفصيلا بعد جملة . فالله تعـالى لما قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة لم يظهر ذلك التقدير للملائـكة . ولما خلق آدم قبل أن ينفخ فيه الروح أظهر لهم ما قدره ، كما يظهر لهم ذلك من كل مولود ، كما فى الصحيح عــن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وســلم أنه قال : « يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم

يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد » وفى طريق آخر وفى رواية « ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

فأخبر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الصحيح : أن الملك يؤمر بكتابة رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، بعد خلق جسد ابن آدم وقبل نفخ الروح فيه . فكان ما كتبه الله من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو سيد ولد آدم بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه من هذا الجنس ، كما فى الحديث الآخر الذي في المسند وغيره عن العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته » وهذا وأمثاله من وجود الأعيان في الصحف .

وأما وجود الكلام فى الصحف فنوع آخر ؛ ولهذا حكى ابن قتيبة من مذهب أهل الحديث والسنة : أن القرآن في المصحف حقيقة لا مجازاً ، كما يقوله بعض المتكلمة ، وإحدى « الجهميات » التى أنكرها أحمد وأعظمها قول من زعم أن القرآن ليس في الصدور ولا فى المصاحف ، وأن من قال ذلك فقد قال بقول النصارى ، كما حكي له ذلك عن موسى

ابن عقبة الصوري ـــ أحد كتبة الحديث إذ ذاك ؛ ليس هــو صاحب المغازي ؛ فإن ذلك قديم من أصحاب التابعين ـــ فأعظم ذلــك أحمد ، وذكر النصوص والآثار الواردة وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً مــن صدور الرجال من النعــم من عقلهــا » ، ومثل قوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء مــن القرآن كالبيت الخرب » وغير ذلك .

وليس الغرض هنا إلا التنبيه اللطيف .

ومن قال : إن هذا شبه قول النصارى فلم يعرف قول النصارى ، ولا قول المسلمين ، أو علم وجحد ؛ وذلك أن النصارى تقــول : إن الكلمة وهي جوهر إله عندهم ورب معبود تدرع الناسوت واتحد بــه كاتحــاد الماء واللبن ، أو حل فيه حلول الماء في الظرف ، أو اختلط به اختــلاط النــار والحديد ، والمسلمون لا يقولون إن القرآن جوهر قائم بنفسه معبود ، وإنمــا هــو كلام الله الذي تكلم به ، ولا يقولون اتحد بالبشر .

وأما إطلاق حلوله في المصاحف والصدور فكثير مــن المنتسبين إلى السنة الخراسانيين وغيرهم يطلق ذلك ومنهم من العراقيين وغيرهم من ينفي ذلك ويقول : هو فيه عــلى وجه الظهور لا على وجــه الحلول .

ومنهم من لا يثبته ولا ينفيه ، بل يقول : القرآن في القلوب والمصاحف لا يقال هو حال ولا غير حال ؛ لما في النفي والإثبات من إيهام معنى فاسد ، وكما يقول ذلك طوائف من الشاميين وغيرهم ، ولا نزاع بينهم : أن كلام الله لا يفارق ذات الله ، وأنه لا يباينه كلامه ولا شيء من صفاته ؛ بل ليس شيء من صفة موصوف تباين موصوفها وتنتقل إلى غيره ، فكيف يتوهم عاقل أن كلام الله يباينه وينتقل إلى غيره ؟

ولهذا قال الإمام أحمد : كلام الله من الله ، ليس ببائن منه وقد جاء فى الأحاديث والآثار : « أنه منه بدأ ، ومنه خرج » ومعنى ذلك أنه هو المتكلم به لم يخرج من غيره ، ولا يقتضى ذلك أنه باينه وانتقل عنه ، فقد قال سبحانه في حق المخلوقين : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) ومعلوم أن كلام المخلوق لا يباين محله ، وقد علم الناس جميعهم أن نقل الكلام وتحويله هو معنى تبليغه ، كما قال : (بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) ، وقال تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ) وقال تعالى : (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ، وقال : « بلغوا عني ولو آية » .

والكلام فى الورق ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف

والعرض بالجوهر . بحيث تصير صفــة له ، ولا هو فيــه كما يكون الجسم فى الحيز الذي انتقل إليه من حيز آخر ، ولا هو فيــــه كمجرد الدليل المحض بمنزلة العالم الذي هو دليل على الصانع ؛ بل هو قسم آخر معقول بنفسه ، ولا يجب أن يكون لكل موجود نظير يطابقه من كل وجه ؛ بل النــــاس بفطرهم يفهمون معنى كلام المتــكلم فى الصحيفة ، ويعلمون أن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل فى غيره ، ويعلمون أن ما فى الصحيفة ليس مجرد دليل على معنى فى نفسه ابتداء ، بل ما فى الصيحفة مطابق للفظه، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق للخارج ، وقد يعلم مافي نفسه بأدلة طبعية ، وبحركات إرادية لم يقصــد بهـــا الدلالة ، ولا يقول أحد إن ذلك الـكلام للمتكلم مثل كلامه المسموع منه ، فلو كان الـكلام إنما سمي بذلك لمجرد الدلالة لشاركه كل دليل. وسنتكلم إن شاء الله تعالى على ذلك .

ولو كان ما في المصحف وجب احترامه لمجرد الدلالة وجب احترام كل دليل ؛ بل الدال على الصانع وصفاته أعظم من الدال على كلامه ، وليست له حرمة كحرمة المصحف . والدال على المعنى القائم بنفس الإنسان قد يعلم تارة بغير اختياره ، وقد يعلم بأصوات طبعية ، كالبكاء ، وقد يعلم بحركات لم يقصد بها الدلالة ، وقد يعلم بحركات يقصد بها الدلالة كالإشارة ، وقد يعلم باللفظ الذي تقصد به الدلالة .

فصـــــل

وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب « اللفظية » وزادوا فيه شراً كثيراً إذ قالوا : « القراءة » غير المقروء و « التلاوة » غير المتلو و « الكتابة » غير المكتوب إنما يعنون بالقراءة أصوات القارئين و بـ « الكتابة » مداد الكاتبين ، ويعنون أن هذا غير المعنى القائم بالذات الذي هو كلام الله ، وإنما هو دلالة عليه ، وعبارة عنه ؛ وليس عندهم إلا قراءة ومقروء ، فلم يبق إلا صوت ، ومداد ، ومعنى قائم بالذات ؛ ليس ثم قرآن غير ذلك .

وأسقطوا حروف كلام الله التى تكلم بها ، وحقيقة معاني القرآن التى فى نفس الله تعالى ، وأسقطوا أيضاً معانى القرآن التى فى نفوس القارئين والمستمعين ؛ فإنه لا ريب أن القرآن الذي نقرؤه فيه حروف ومعانى حروف منطوقة ومسطورة ؛ فإذا لم يكن عندهم إلا صوت العبد وحبر المصحف فأين المعانى ؟ وأين حروف القرآن التى أنزلها الله ؟ وإن كانت عندهم مخلوقة . وكيف يتصور أن لا يكون لجميع ما أنزل الله تعالى من الكتب إلا معنى واحد يكون أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً ،

وتكون هذه أوصافه لا أقسامه ؟ فإن هؤلاء يقولون : إن معانى جميع كلام الله معنى واحد ، فمعنى : (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) هو معنى (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ومعنى التوراة هو معنى القرآن والإنجيل. ثم قد يجعلون معانى الكلام كلها الخبر ، وقد يجعلون معنى الخبر العلم ، ويجعلون العلم بهذا غير العلم بهذا .

ولهذا كان أكثر العقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بالاضطرار ، ويقولون : الأمر والنهي والخبر صفات إضافية للكلام ، وليست هي أنواع الكلام وأقسامه ، وكلام الله شأنه أعظم من شأن كلام المخلوقين ، والكلام الذي فى المصحف هو من هذا القسم الأخير دون الأقسام المتقدمة ، فكيف إذا كان لذلك اللفظ من الخصائص ماقيل فيه : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

لكن من الأشياء ما يدل على غيره بقصد منه [ومنها ما يدل على] غيره [بغير قصد منه] للدلالة كالجامدات فإن فيها مقاصد غير دلالتها على [الخالق] ومن الأشياء مالا يقصد به إلا الدلالة . بحيث إذا ذكر ما يقصد بذكره ذكر مدلوله كالاسم مع مسماه ، فالمقصود من الاسم هو المسمى ؛ فلهذا إذا ذكر الاسم كان المقصود به المسمى ، وكذلك « اللفظ » مع المعنى الذي هو مدلوله وكذلك « الخط » مع اللفظ ، فالمقصود من الخط

إنما هو اللفظ ، والمقصود من الحروف المرسومة هو الحروف المنطوقة ؛ ولهذا كان لفظ الحرف مقولا عليهما جميعاً . فإذا قيـــل : الـكلام من الكتاب عرف أن المقصود ممـا في الكـتاب هو الكلام دون غـيره ، ولهذا كان لهذا من الاختصاص بالحرمة ما ليس لمـا يقصد منه الدلالة وغير الدلالة والله أعلم .

فصـــــل

وصار أولئك الذين غلطوا مذهب « اللفظية المثبتة » الذين يقولون: لفظنا بالقرآن غـير مخـلوق ، ويقولون : « التـــلاوة » هي المتلو ، و « الكتابة » هي المـكتوب ، وما عندهم من القرآن إلا ما توهموا من الحروف والأصوات يلتزم أحدهم : أن الصوت القديم يسمع من القارئ ، ويوهمون المخالف لهم أن عين الصوت المسموع من العبد هو عين الصوت الذي تـكلم الله به ، وينكرون معانى حقائق القرآن أن تكون من كلام الله ولا يجعـلون المعنى من كلام الله ، وكان السلف يقولون : القرآن كلام الله غـير مخـلوق ، والقرآن حيث تصرف فهـــو كلام الله غير مخلوق .

و « اللفظية المبتدعة المثبتة » الذين أنكر عليهم الإمام أحمد وغيره

إنما قالوا لفظنا به غير مخلوق ؛ ولم يقولوا قديم . فجاءت المغلطة لمذهبهم ، فقالوا : لفظنا به قديم ، ولفظنا به أصواتنا ، فأصواتنا به قديمة . والإمام أحمد وسائر الأئمة من أصحابه الذين صحبوه وغيرهم ومن بعدهم من الأئمة ينكرون هذه « المراتب الأربع » فإنهم ينكرون أن يقال : لفظي به غير مخلوق ، فكيف لفظي به قديم ؟ فكيف صوتي به غير مخلوق ؟ فكيف صوتي به قديم ؟ أو بعض الصوت المسموع قديم ؟ ونحو ذلك .

فصـــــل

ومن تأمل نصوص « الإمام أحمد » في هـذا الباب وجدها من أسد الكلام وأتم البيان ، ووجـد كل طائفة منتسبة إلى السنة قـد تمسكت منها بما تمسكت ، ثم قد يخفى عليهـا من السنة في موضع آخر ما ظهر لبعضها فتنكره .

ومنشأ النزاع بين أهـل الأرض ، والاضطراب العظيم الذي لا يكاد ينضبط في هذا الباب يعود إلى « أصلين » .

« مسألة » تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه .

و « مسألة » تكلم العباد بكلام الله .

وسبب ذلك أن التكلم والتكليم له مراتب ودرجات ، وكذلك تبليغ المبلغ لكلام غيره له وجوه وصفات ، ومن الناس من يدرك من هذه الدرجات والصفات بعضها ، وربما لم يدرك إلا أدناها ، ثم يكذب بأعلاها ، فيصيرون مؤمنين ببعض الرسالة ، كافرين ببعضها ، ويصير كل من الطائفتين مصدقة بما أدركته ، مكذبة بما مع الآخرين من الحق .

وقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ذلك فقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) وقال تعالى : (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) ، وقال : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) .

ففي هذه الآية خص بالتكليم بعضهم ، وقد صرح فى الآية الأخرى بأنه كلم موسى تكليما ، واستفاضت الآثار بتخصيص موسى بالتكليم ، فهذا التكليم الذي خص به موسى على نوح وعيسى ونحوهما ليس هو

التكليم العام الذي قال فيه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ فإن هذه الآية قد جمع فيها جميع درجات التكليم ، كما ذكر ذلك السلف .

فروينا في كتاب « الإبانة » لأبي نصر السجزي ، وكتاب البيهقي ، وغيرهما عن عقبة ، قال : سئل ابن شهاب عن هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ قال ابن شهاب : نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر . فكلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب ، والوحي ما يوحي الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام ، ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه فى قلب النبي ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأمرون بكتابته . ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً ، ويبينونه لهم ؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ، ويبلغوهم إياه ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس ، ومن الوحى ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا فى قلب من يشاء من رسله .

قلت : فالأول الوحي وهو الإعلام السريع الخفي : إما فى اليقظة

وإما فى المنام ، فإن رؤيا الأنبياء وحي ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ثبت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم في الصحاح ، وقال عبادة بن الصامت — ويروى مرفوعا — : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام » وكذلك فى « اليقظة » فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى فعمر » وفى رواية فى الصحيح « مكلمون » وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ . بل قد قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾

فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء ، ويكون يقظة ، ومناما . وقد يكون بصوت هاتف ، يكون الصوت فى نفس الإنسان ، ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما ، كما قد يكون النور الذي يراه أيضاً فى نفسه .

فهذه « الدرجة » من الوحي التى تكون في نفسه من غير أن يسمع صوت ملك فى أدنى المراتب وآخرها ، وهي أولها باعتبار السالك ، وهي التى أدركتها عقول الإلهيين من فلاسفة الإسلام الذين فيهم إسلام وصبوء ، فآمنوا ببعض صفات الأنبياء والرسل — وهو قدر مشترك بينهم وبين غيرهم — ولكن كفروا بالبعض ، فتجد بعض

هؤلاء يزعم أن النبوة مكتسبة ، أو أنه قد استغنى عـن الرسول ، أو أن غير الرسول قد يكون أفضل منه ، وقـد يزعمون : أن كلام الله لموسى كان من هذا النمط ، وأنه إنما كلمه من سماء عقله ، وأن الصوت الذي سمعه كان في نفسه ، أو أنه سمع المعنى فائضاً من العقل الفعال ، أو أن أحدهم قد يصل إلى مقام موسى .

ومنهم من يزعم أنه يرتفع فوق موسى ، ويقولون : إن موسى سمع الكلام بواسطة ما فى نفسه من الأصوات ونحن نسمعه مجرداً عن ذلك . ومن هؤلاء من يزعم أن جبريل الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الخيال النورانى : الذي يتمثل فى نفسه ، كما يتمثل فى نفس النائم ، ويزعمون أن القرآن أخـذه محمد عن هـذا الخيال المسمى بجبريل عندهم ؛ ولهـذا قال ابن عربى صـاحب « الفصوص » و « الفتوحات المكية » : إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منـه الملك : الذي يوحي بـه إلى الرسول . وزعم أن مقـام « النبوة » دون الولاية ، وفوق « الرسالة » فإن محمدا ــ بزعمهم الكاذب ــ يأخذ عن هذا الخيال النفسانى ــ الذي سماه ملكا ــ وهو يأخـذ عن العقل المجرد الذي أخذ منـه هذا الخيـال .

ثم هؤلاء لا يثبتون لله كلاماً اتصف به فى الحقيقة ولا يثبتون أنه قصد إفهام أحد بعينه ؛ بل قد يقولون لا يعلم أحداً بعينه ؛ إذ علمـه

وقصده عندهم إذا أثبتوه لم يثبتوه إلا كلياً لا يعين أحداً ، بناء على أنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات إلا على وجه كلي . وقد يقرب أو يقرب من مذهبهم من قال باسترسال علمه علـى أعيان الأعراض ، وهذا الكلام — مع أنه كفر باتفاق المسلمين — فقد وقع فى كثير منه من له فضل فى الكلام والتصوف ونحو ذلك ، ولولا أنى أكره التعيين فى هذا الجواب لعينت أكابر من المتأخرين .

وقد يكون الصوت الذي يسمعه خارجاً عن نفسه من جهة الحق تعالى على لسان ملك من ملائكته أو غير ملك ، وهو الذي أدركته الجهمية من المعتزلة ونحوهم ، واعتقدوا أنه ليس لله تكليم إلا ذلك ، وهو لا يخرج عن قسم الوحي الذي هو أحد أقسام التكليم ، أو قسيم التكليم بالرسول . وهو « القسم الثانى » حيث قال تعالى : (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) فهذا إيحاء الرسول ؛ وهو غير الوحي الأول من الله الذي هو أحد أقسام التكليم العام .

وإيحاء الرسول أيضاً « أنواع » ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : « أن الحارث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته

ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

فأخبر صلى الله عليه وسلم : أن نزول الملك عليه تارة يكون في الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس . وتارة يكون متمثلا بصورة رجل يكلمه ، كما كان جبريل يأتى فى صورة دحية الكلبي ، وكما تمثل لمريم بشراً سويا ، وكما جاءت الملائكة لإبراهيم وللوط فى صورة الآدميين ، كما أخبر الله بذلك فى غير موضع وقد سمى الله كلا النوعين إلقاء الملك ، وخطابه وحيا ؛ لما فى ذلك من الخفاء ؛ فإنه إذا رآه يحتاج أن يعلم أنه ملك ، وإذا جاء فى مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما في الصوت .

و« القسم الثالث » التكليم من وراء حجاب ، كما كلم موسى عليه السلام ؛ ولهذا سمى الله هذا « نداء » و « نجاء » فقال تعالى : (وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا) وقال تعالى : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ) وهذا التكليم مختص ببعض الرسل ، كما قال تعالى : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ)
وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء: (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) فمن جعل هذا من جنس الوحي الأول — كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة

ومن تكلم فى التصوف على طريقهم كما فى « مشكاة الأنوار » وكما فى « كتاب خلع النعلين» وكما في كلام الاتحادية كصاحب «الفصوص» وأمثاله — فضلاله ومخالفته للكتاب والسنة والإجماع ؛ بل وصريح المعقول من أبين الأمور .

وكذلك من زعم : أن تكليم الله لموسى إنما هو من جنس الإلهام والوحي ؛ وأن الواحد منا قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى — كما يوجد مثل ذلك فى كلام طائفة من فروخ الجهمية الكلابية ونحوهم — فهذا أيضاً من أعظم الناس ضلالا .

وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام فى كتاب الله فيهما عموم وخصوص . فإذا كان أحدهما عاماً اندرج فيه الآخر ، كما اندرج الوحي فى التكليم العام في هذه الآية ، واندرج التكليم فى الوحي العام حيث قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ وأما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي : الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم ، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل ؛ كما قال تعالى لزكريا : ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ « فالإيحاء » ليس بتكليم ، ولا يناقض الكلام ، وقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ إن جعل

معنى الاستثناء منقطعاً اتفق معنى التكليم فى الآيتين ، وإن جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى ، وهو التكليم العام ؛ وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليما خاصاً كاملا بقوله : (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ) مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم ، وكلمهم التكليم العام ، وبأنه فرق بين تكليمه وبين الإيحاء إلى النبيين ، وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسما غير إيحائه ، وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه ، وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى ، كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة .

وغلطت هنا « الطائفة الثالثة » الكلابية . فاعتقدت أنه إنما أوحى إلى موسى عليه السلام معنى مجردا عن صوت .

واختلفت هل يسمع ذلك ؟ فقال بعضهم يسمع ذلك المعنى بلطيفة خلقها فيه ، قالوا : إن السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس معان تتعلق بكل موجود ، كما قال ذلك الأشعري ، وطائفة ، وقال بعضهم لم يسمع موسى كلام الله ، فإنه عنده معنى ، والمعنى لا يسمع ، كما قال ذلك القاضي أبو بكر وطائفة .

وهذا الذي أثبتوه في جنس الوحي العام الذي فرق الله عز وجل

بينه وبين تكليمه لموسى عليه السلام حيث قال : (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ) إلى قوله : (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) وفرق بين إيحائه وبين تكليمه من وراء حجاب حيث قال : (إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ) وحيث فرق بين الرسول المكلم وغيره بقوله تعالى : (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ) .

لكن هؤلاء يثبتون أن لله كلاما هو معنى قائم بنفسه هو متكلم به ، وبهذا صاروا خيراً ممن لا يثبت له كلاما إلا ما أوحى فى نفس النبي من المعنى ؛ أو ما سمعه من الصوت المحدث . ولكن لفرط ردهم على هؤلاء زعموا : أنه لا يكون كلاما لله بحال إلا ما قام به ؛ فإنه لا يقوم به إلا المعنى . فأنكروا أن تكون الحروف كلام الله ، وأن يكون القرآن العربي كلام الله .

وجاءت « الطائفة الرابعة » فردوا على هؤلاء دعواهم أن يكون الكلام مجرد المعنى فزعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف أو الصوت فقط وإن المعانى المجردة لا تسمى كلاما أصلا ؛ وليس كذلك ؛ بل الكلام المطلق اسم للمعاني والحروف جميعاً ، وقد يسمى أحدهما كلاماً مع التقييد كما يقول النحاة : « الكلام » اسم ، وفعل ، وحرف . فالمقسوم هنا اللفظ ، وكما قال الحسن البصري : ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على التفكر ، وبالتفكر على التدبر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت . وكما قال

الجنيد : « التوحيد » قول القلب « والتوكل » عمل القلب . فجعلوا للقلب نطقاً ، وقوة ، كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنفس حديثاً في قوله : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ـ ثم قال ـ : ما لم تتكلم به ، أو تعمل به » .

فعلم أن « الكلام المطلق » هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى ، وإن كان مع التقييد قد يقع بغير ذلك ، حتى إنهم قد يسمون كل إفهام ودلالة يقصدها الدال قولا ، سواء كانت باللفظ أو الإشارة ، أو العقد ـ عقد الأصابع ـ وقد يسمون أيضا الدلالة قولا ، وإن لم تكن بقصد من الدال مثل دلالة الجامدات كما يقولون : قالت : « اتساع بطنه » .

امتلأ الحوض وقال قطني   قطني رويداً قد ملأت بطني

وقالت له العينان سمعا وطاعة

ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم : سل الأرض من فجر أنهارك ، وسقى ثمارك ، وغرس أشجارك ؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتباراً . ومنه قولهم :

تخبرني العينان ما القلب كاتم   ولاخير في الحياء والنظر الشزر

ومنه قولهم :

سألت الدار تخبرني عن الأحباب ما فعلوا

فقالت لي أناخ القو م أياما وقد رحلوا

وقد يسمى شهادة ، وقد زعم طائفة أن ما ذكر فى القرآن من تسبيح المخلوقات هو من هذا الباب ، وهو دلالتها على الخالق تعالى ؛ ولكن الصواب أن ثم تسبيحاً آخر زائدا على ما فيها من الدلالة كما قد سبق فى موضع آخر ؛ لكن هذا كله يكون مع التقييد والقرينة ؛ ولهذا يصح سلب الكلام والقول عن هذه الأشياء كما قال تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) وقال تعالى : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) وقال الخليل عليه السلام : (فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) وقال تعالى: (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) وقال تعالى : (لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) وقال تعالى : (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وهذا معلوم بالضرورة والتواتر ، وهو سلب القول والكلام عن الحي الساكت والعاجز ، فكيف عن الموات ؟!

وقد علم أن الله تعالى موصوف بغاية صفات الكمال ، وأن الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام فى غاية الكمال ، فمن لم يجعل كلامه إلا مجرد معنى ، أو مجرد حروف ، أو مجرد حروف وأصوات ، فما قدر الله حق قدره ، ومن لم يجعل كلامه إلا ما يقوم

بغيره فقد سلبه الكمال، وشبهه بالموات ، وكذلك من لم يجعله يتكلم بمشيئته ، أو جعله يتكلم بمشيئته وقدرته ولكن جعل الكلام من جملة المخلوقات وجعله يوصف بمخلوقاته ، أو جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلما فكل من هذه الأقوال وإن كان فيه إثبات بعض الحق ففيه رد لبعض الحق ونقص لما يستحقه الله من الكمال .

فصل

وكل من هؤلاء أدرك من درجات الكلام وأنواعه بعض الحق .

وكذلك « الأصل الثانى » وهو تكلمنا بكلام الله ؛ فإن الكتاب والسنة والإجماع دل على أن هذا الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله لا كلام غيره ، ولو قال أحد : إن حرفا منه ، أو معنى ليس هو من كلام الله ، أو أنه كلام غير الله وسمع ذلك منه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أو أحد من أصحابه لعلم بالاضطرار أنهم كانوا يقابلونه بما يقابلون أهل الجحود والضلال ؛ بل قد أجمع الخلائق على نحو ذلك في كل كلام . فجميع الخلق الذين يعلمون أن قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

من شعر لبيد يعلمون أن هذا كلام لبيد وأن قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

هو من كلام امرئ القيس ، مع علمهم أنهم إنما سمعوها من غيره بصوت ذلك الغير ، فجاء المؤمنون ببعض الحق دون بعض فقالوا : ليس هذا ، أو لا نسمع إلا صوت العبد ولفظه ؛ ثم قال « النفاة » : ولفظ العبد محدث ، وليس هو كلام الله ، فهذا المسموع محدث ، وليس هو كلام الله . وقالت « المثبتة » : بل هذا كلام الله وليس إلا لفظه أو صوته فيكون لفظه أو [صوته] كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، أو قديم ، فيكون لفظه أو صوته غير مخلوق أو قديم .

وكل من الفريقين قد علم الناس بالضرورة من دين الأمة ؛ بل وبالعقل أنه مخطئ في بعض ما قاله ، مبتدع فيه ؛ ولهذا أنكر الأئمة ذلك ، وإذا رجع أحدهم إلى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع فيقال : هذا كلام زيد ، وبين أن يقول هذا صوت زيد ، ويجد فطرته تصدق بالأول وتكذب بالثاني ، قال الله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الكلام

كلام الباري والصوت صوت القاري ؛ ولهـذا قال « الإمام أحمد » لأبي طالب لما قرأ عليه : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وقال له : هـذا غير مخلوق فحكى عنه أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال له : أنا قلت لك لفظي غير مخلوق ؟ قال : لا . ولكن قرأت عليك : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقلت : هذا غير مخلوق .

فبين أحمد الفرق بين أن يقول : هذا الكلام غير مخلوق ، أو يقول : لفظ هذا المتكلم غير مخلوق ؛ لأن قوله لفظي « مجمل » يدخل فيه فعله ، ويدخل فيه صوته . فإذا قيل : لفظي ، أو تلاوتى ، أو قراءتى غير مخلوقة ، أو هي المتلو أشعر ذلك أن فعل العبد وصوته قديم ، وأن ما قام به من المعنى والصوت هو عين ما قام بالله من المعنى والصوت ، وإذا قال : لفظي بالقرآن ، أو تلاوتى للقرآن ، أو لفظ القرآن ، أو تلاوته مخلوقة ، أو التلاوة غير المتلو ، أو القراءة غير المقروء أفهم ذلك أن حروف القرآن ليست من كلام الله بحال ، وأن نصف القرآن كلام الله ونصفه كلام غيره ، وأفهم ذلك أن قراءة الله للقرآن مباينة لمقروئه ، وتلاوته للقرآن مباينة لمتلوه ، وأن قراءة العبد للقرآن مباينة لمقروء العبد ، وتلاوته له مباينة لمتلوه ، وأفهم ذلك أنما نزل إلينا ليس هو كلام الله ؛ لأن المقروء والمتلو هو كلام الله ، والمغايرة عند هؤلاء تقتضي المباينة ، فما باين كلامه لم يكن كلاماً له فلا يكون هذا الذي أنزله كلامه .

ولما كان الكلام إنما يكون بحركة وفعل تنشأ عنه حروف ومعان صار الكلام يدخل فى اسم الفعل والعمل : تارة باعتبار الحركة والفعل ، ويخرج عنه تارة باعتبار الحروف والمعاني ؛ ولهـذا يجيء في الكتاب والسنة قسما منه تارة كما فى قوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ)

وقسيماً له أخرى كما في قوله تعـالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ) .

ولهذا تنازع العلماء فيما إذا حلف لا يعمل عملاً في هذا المكان ولم يكن له نية ولا سبب يفيد ، هل يحنث بالكلام ؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره ، وذكروهما روايتين عن أحمد ؛ ولهذا قال أبو محمد ابن قتيبة في كتابه الذي ألفه في بيـان « اللفظ » أن القراءة قرآن وعمل لا يتميز أحدهما عن الآخر ، فمن قال : إنهـا قرآن فهو صادق ، ومن حلف إنهـا عمل فهو بار ، وأخطأ مـن أطلق : أن القراءة مخلوقة ، وأخطأ من زعم أنها غير مخلوقة ، ونسبهما جميعاً إلى قلة العـلم ، وقصور الفهم ؛ فإن هـذه المسألة خفيت عـلى الطائفتين لغموضها ؛ فإن إحدى الطائفتين وجدت القراءة تسمى قرآنا فنفت الخلق عنها ، والأخرى وجدت القراءة فعلا يثاب صاحبه عليه فأثبتت حدوثه .

قلت : والخطأ فى هـذا الأصل في طرفين ، كما أنه فى الأصل الأول فى طرفين . ففي الأصل الأول من قال : إنه ليس له كلام قائم به ومـن قال : ليس كلامـه إلا معنى مجرد أو صوت مجرد . وفي هذا الأصل من قال : كلامه لا يقوله غيره ، أو لا يسمع مـن غيره ، ومن قال : كلامه إذا أبلغه غيره وأداه فحاله كحاله إذا سمعه منه وتلاه بل كلامه يقوله : رسله وعباده ، ويتكلمون به ، ويتلونه ، ويقرأونه فهو كلامه حيث تصرف ، وحيث تلي ، وحيث كتب ، وكلامه ليس بمخلوق حيث تصرف ؛ وهو مع هـذا فليس حاله إذا قرأه العبـاد وكتبوه كحاله إذا قرأه الله وسمعوه منه ، ولا من يسمعه من القارئ بمنزلة موسى بن عمران الذي سمع كلام رب العالمين منـه ، كما جاء فى الحديث : « إذا سمع الخلائق القرآن يوم القيامة مـن الله فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » بل ولا تلاوة الرسول وسمعه منـه كتلاوة غيره وسمعه منه ؛ بل ولا تلاوة بعض الناس والسماع منه كتلاوة بعض الناس والسماع منه ، وهو كلام الله تعالى الذي ليس بمخلوق في جميع أحواله ، وإن اختلفت أحواله .

ومما يجب أن يعرف أن قول الله ورسوله والمؤمنين لما أنزله الله : هذا كلام الله ؛ بل وقول الناس لما يسمعونه من كلام النـاس : هذا كلام فلان ، كقولهم لمثل قوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لـكل

امرئ ما نوى » هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمثل قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هذا شعر لبيد .

فليس قولهم : هذا هو هـذا ؛ لأنه مساو له في النوع ، كما يقال : هذا السواد هو هذا السواد ؛ فإن هـذا يقولونه لما اتفق من الكلامين ، والعلمين ؛ والقدرتين ، والشخصين . ويقولون في مثل ذلك : وقع الخاطر على الخاطر ، كوقع الحافر على الحافر . وفى الحقيقة فهو إنما هو مثله ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ وهم يقولون : هذا هو هذا مع اتفاقهما في الصفات ، وقد يكون مع اختلافهما اختلافا غير مقصود ، كما أنهـم يقولون للعين الواحدة إذا اختلفت صفتها هذه [عين [1]] هذه ، ولا هو أيضاً بمنزلة من تمثل بكلام لغيره سواء كان نظما أو نثراً مثل أن يتمثل الرجل بقول لغيره فيصير متكلما به متشبهاً بالمتكلم به أولاً ، وهذا مثل أن نقول قولاً قاله غيرنا موافقين لذلك القائل في صحة القول .

ولهذا قال الفقهاء : إن من قال ما يوافق لفظ القرآن على وجه

---

(١) بالأصل غير .

الذكر والدعاء مثل أن يقول عند ابتداء الفعل بسم الله ، وعند الأكل الحمد لله ، ونحو ذلك لم يكن قارئاً ، وجاز له ذلك مع الجنابة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الكلام بعد القرآن « أربع » وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه مسلم . فجعلها أفضل الكلام بعد القرآن ، وأخبر أنها من القرآن فهي من القرآن . وإذا قالها على وجه الذكر لم يكن قارئاً .

لكن هذا الوجه قد يضاف فيه الكلام إلى الأول وإن لم يقصد الثاني تبليغ كلامه ؛ لأنه هو الذي أنشأ الحقيقة ابتداء ، والثاني قالها احتذاء فإذا تمثل الرجل بقول الشاعر وإن لم يقصد تبليغ شعره :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قيل له هذا كلام لبيد ؛ لكن الثاني قد لا يقصد إلا أن يتكلم به ابتداء لاعتقاده صحة معناه .

ومن هنا تنازع أهل العلم في « حروف الهجاء » وفى « الأسماء » المنزلة فى القرآن وفى « كلمات » فى القرآن إذا تمثل الرجل بها ولم يقصد بها القراءة ، هل يقال : ليست مخلوقة لأنها من القرآن ؟ أو يقال : إذا لم يقصد بها القرآن وكلام الله فليست من كلام الله فتكون

مخلوقة ، على قولين لأهل السنة .

وأما الإنسان إذا قال ما هو كلام لغيره يقصد تبليغه وتأديته ، أو التكلم به معتقداً أنه إنما قصد التكلم بكلام غيره الذي هو الآمر بأمره ، المخبر بخبره ، المتكلم ابتداء بحروفه ومعانيه ، فهنا الكلام كلام الأول قطعاً ، ليس كلاماً للثاني بوجه من الوجوه ، وإنما وصل إلى الناس بواسطة الثانى .

وليس للكلام نظير من كل وجه فيشتبه به ، وإنما هو أمر معقول بنفسه ، فإن كلام زيد المخلوق وإن كان قد عدم مثلا ، وعدم أيضاً ما قام به من الصفة ، فإذا رواه عنه راو آخر ، وقلنا : هذا كلام زيد ، فإنما نشير إلى الحقيقة التى ابتدأ بها زيد واتصف بها ، وهذه هي تلك بعينها : أعني الحقيقة الصورية ؛ لا المادة ؛ فإن الصوت المطلق بالنسبة إلى الحروف الصوتية المقطعة بمنزلة المادة والصورة ، وهو لم يكن كلاما للمتكلم الأول ؛ لأجل الصوت المطلق الذي يشترك فيه صوت الآدميين والبهائم العجم والجمادات ، وإنما هو لأجل الصورة التى ألفها زيد مع تأليفه لمعانيها .

ووجود هذه الصورة فى المادتين ليس بمنزلة وجود الأنواع والأشخاص في الأعيان ، ولا بمنزلة وجود الأعراض في الجواهر ، ولا

هو بمنزلة سائر الصور فى موادها الجوهرية ؛ بل هو حقيقة قائمة بنفسها وليس لكل حقيقة نظير مطابق من كل وجه .

وإذا قالوا : هذا شعر لبيد ، فإنما يشيرون إلى اللفظ والمعنى جميعاً . ثم مع هـذا لو قال القائل : أنا أنشأت لفظ هـذا الشعر ، أو هذا اللفظ من إنشائي ، أو لفظي بهذا الشعر من إنشائي لكذبه الناس كلهم ، وقالوا له : بل أنت رويته ، وأنشدته . أما أن تكون أحدثت لفظه ، أو هو محدث البارحة بلفظك ؛ أو لفظك به محدث البارحة فكذب ؛ لأن لفظ هذا الشعر موجود من دهر طويل ، وإن كنت أنت أديتـه بحركتك وصوتك ، فالحركة والصوت أمر طبيعي يشركك فيه الحيوان ، ناطقه وأعجمه ، فليس لك فيه حظ من حيث هو كلام ، ولا من حيث هو كلام ذلك الشاعر ؛ إذ كونه كلاما ، أو كلاما لمتكلم هو مما يختص به المتكلم ؛ إنما أديته بآلة يشركك فيها العجماوات ، والجمـادات ؛ لكن الحمد لله الذي جعل لك من العقل والتمييز ما تهتدى به وييسر به لسانك ولم يجعل ذلك للعجماوات ؛ فجعل فعلك وصفتك تعينك على عقل الكلام والتـكلم به ولم يجعل فعل العجم وصفتها كذلك .

فإذا كان هذا فى مخلوق بلغ كلام مخلوق مثله ، فكيف الظن بكلام الخالق جل جلاله الذي فضله على سائر الـكلام كفضل الله على خلقه ؟!

فإن له شأناً آخر يختص به لا يشبه بتبليغ سائر الكلام ، كما أنه في نفسه لا يشبه سائر الكلام ، وليس له مثل يقدر عليه أحد من الخلق ؛ بخلاف سائر ما يبلغ من كلام البشر ؛ فإن مثله مقدور فلا يجوز إضافة هذا الكلام المسموع الذي هو القرآن إلى غير الله بوجه من الوجوه؛ إلا على سبيل التبليغ ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، والله سبحانه قد خاطبنا به بواسطة الرسول كما تقدم .

وقد بسطت الكلام فى هذه المواضع التى هي محارات العقول التى اضطربت فيها الخلائق فى الموضع الذي يليق به ؛ فإن هذا جواب فتيا لا يليق به إلا التنبيه على جمل الأمور ، وإثبات وجوب نسبة الكلام إلى من بدأ منه لفظه ومعناه دون من بلغه عنه وأداه ، وأنه كلام المتصف به مبتدئاً حقيقة ، سواء سمع منه أو سمع ممن بلغه وأداه بفعله وصوته ، مع العلم بأن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة وأن قول الله ورسوله والمؤمنين : هذا كلام الله ، وما بين اللوحين كلام الله حقيقة لا ريب فيه ، وأن « القرآن » الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه ويحفظونه هو كلام الله تعالى ، وكلام الله حيث تصرف غير مخلوق . وأما ما اقترن بتبليغه وقراءته من أفعال العباد وصفاتهم فإنه مخلوق .

لكن هذا الموضع فيه اشتباه وإشكال لا تحتمل تحريره وبسطه هذه الفتوى ؛ لأن صاحبها مستوفز عجلان يريد أخذها ؛ ولأن في

ذلك من الدقة والغموض ما يحتاج إلى ذكر النصوص ، وبيان معانيها ، وضرب الأمثال التى توضح حقيقة الأمر ، وليس هذا موضعه .

بل الذي يعلم من حيث « الجملة » أن الإمام أحمد والأئمة ، الكبار الذين لهم فى الأمة لسان صدق عام لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب؛ بل كان بعضهم أعظم علماً بـه وقياما بواجبه من بعض . وقـد غلط فى بعض ذلك من أكابر الناس جماعات . وقد رد الإمام أحمد عامة البدع في هذا الباب هو والأئمة .

فأول ما ابتدع الجهمية القول « بخلق القرآن » و « نفي الصفات » فأنكرها من كان فى ذلك الوقت من التابعين ثم تابعي التابعـين ومن بعدهم من الأئمة وكفروا قائلها . ثم ابتدع بعض أهل الحديث والكلام الذين ناظروا الجهميـة : القول بأن القرآن المنزل مخلوق ، أو أنه ليس بكلام الله ، أو أنـه ليس فى المصاحف ولا فى الصدور ، وأنكر بعضهم أن تكون حروف القرآن كلام الله ، أو أن يكون الله تكلم بالصوت ، وأنكر الإمام أحمد وأئمة وقتـه ذلك .

وقابلهم قوم من أهل الكلام والحديث ؛ فزعموا أن ألفاظ العباد وأصوات العباد غير مخلوقة ، أو ادعوا أن بعض أفعال العباد أو صفاتهم غير مخلوقة ، أو أن ما يسمع من الناس من القرآن هو مثل ما يسمع

من الله تعالى من كل وجه ، ونحو ذلك . فأنـكر الإمام أحمد وعامـة أئمة وقته وأصحابه وغيرهم من العلماء ذلك .

وإنـكار جميـع هذه البدع وردها موجود عن الإمام أحمد وغيره من الأئمة في الكتب الثابتة مثل « كتاب السنة » للخلال و « الإبانة » لابن بطة و « كتب المحنة » التي رواها حنبل وصالح و « كتاب السنة » لعبد الله بن أحمد و « السنة » للالـكائي ، و « السنة » لابن أبي حاتم وما شاء الله من الكتب .

فأما الرد على « الجهمية » القائلين بنفي الصفـات وخلق القرآن ففي كلام التـابعين وتابعيهم والأئـمة المشاهير من ذلك شيء كثير ، وفي « مسألة القرآن » من ذلك آثار كثيرة جـداً . مثل ماروى ابن أبي حاتم وابن شاهين واللالـكائي وغيرهم من غير وجـه عن علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ أنه قيل له يوم صفين : حكمت رجلين ، فقال : ما حكمت مخلوقا ، ما حكمت إلا القرآن ، وعن عكرمة قال : كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال له : مه ! القرآن منـه . وفي رواية : القرآن كلام الله ، وليس بمربوب ، منـه خرج ، وإليـه يعود . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بـكل آية كفارة ، فمن كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع .

ومن المستفيض عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، — وربما وقفه بعضهم على سفيان والأول هو المشهور — قال : أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ، ومشايخ عمرو من لقي عمرو من الصحابة والتابعين . وعن علي بن الحسين زين العابدين ، وابنه جعفر ابن محمد : ليس القرآن بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله .

ومثل هذا مأثور عن الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، وحماد ابن أبي سليمان ، وابن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأبي بكر بن عياش ، وهشيم ، وعلي بن عاصم ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي اسحق الفزاري ، ووكيع ابن الجراح ، والوليد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ويحي بن سعيد القطان ، ومعاذ بن معاذ ، وأبي يوسف ، ومحمد ، والإمام أحمد ابن حنبل ، وإسحق بن راهويه ، وبشر بن الحارث ، ومعروف الكرخي وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وأبي ثور ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، ومن لا يحصى كثرة .

قال أبو القاسم اللالكائي — وقد سمى علماء القرون الفاضلة ومن يليهم الذين نقل عنهم في كتابه « أن القرآن كلام الله غير مخلوق » — فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً من التابعين ، وأتباع التابعين ، والأئمة

المرضيين ـــ سوى الصحابة ـــ على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتمذهبوا بمذاهبهم ، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماؤهم ألوفا كثيرة ، فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم المنكر ، ومن أنكر قولهم استتابوه ، أو أمروا بقتله ، أو نفيه ، أو صلبه . قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال : القرآن مخلوق « الجعد بن درهم » ثم « الجهم بن صفوان » وكلاهما قتله المسلمون ، وممن أفتى بقتل هؤلاء : مالك بن أنس ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسفيان ابن عيينة ، وأبو جعفر المنصور الخليفة ، ومعتمر بن سليمان ، ويحي ابن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ومعاذ بن معاذ ، ووكيع بن الجراح ، وأبوه ، وعبد الله بن داود الخريبي ، وبشر بن الوليد ـــ صاحب أبي يوسف ـــ وأبو مصعب الزهري ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو ثور ، وأحمد بن حنبل ، وغير هؤلاء من الأئمة .

وكذلك ذم « الواقفة » وتضليلهم ـــ الذين لا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ـــ مأثور عن جمهور هؤلاء الأئمة مثل ابن الماجشون وأبي مصعب ، ووكيع بن الجراح ، وأبي الوليد ، وأبي [الوليد] الجارودي صاحب الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وأبي ثور ، وإسحق بن راهويه ،

ومن لا يحصى عدده إلا الله .

وأما البدعة الثانية ــ المتعلقة بالقرآن المنزل تلاوة العباد له ــ وهي « مسألة اللفظية » فقد أنكر بدعة « اللفظية » الذين يقولون : إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق أئمة زمانهم ، جعلوهم من الجهمية ، وبينوا أن قولهم : يقتضى القول بخلق القرآن ، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم .

وكذلك من يقول : إن هذا القرآن ليس هو كلام الله ، وإنما هو حكاية عنه ، أو عبارة عنه ، أو أنه ليس فى المصحف والصدور إلا كما أن الله ورسوله في المصاحف والصدور ، ونحو ذلك ، وهذا محفوظ عن الإمام أحمد ، وإسحق ، وأبى عبيد ، وأبى مصعب الزهري وأبى ثور ، وأبى الوليد الجارودي ، ومحمد بن بشار ، ويعقوب بن ابراهيم الدورقي ، ومحمد بن يحي بن أبى عمرو العدنى ، ومحمد بن يحي الذهلي ، ومحمد بن أسلم الطوسي ، وعدد كثير لا يحصيهم إلا الله من أئمة الإسلام وهداته .

وكذلك أنكر بدعة « اللفظية المثبتة » ـ الذين يقولون : إن لفظ العباد ، أو صوت العباد به غير مخلوق ، أو يقولون ، إن التلاوة التى هي فعل العبد وصوته غير مخلوقة ــ الأئمة الذين بلغتهم هذه

البدعة : مثل الإمام أحمد بن حنبل ، وأبى عبد الله البخاري صاحب الصحيح ، وأبى بكر المروذي أخص أصحاب الإمام أحمد بن حنبل به ، وأخذ في ذلك أجوبة علماء الإسلام إذ ذاك : ببغداد ، والبصرة ، والكوفة ، والحرمين ، والشام ، وخراسان ، وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، وأبى بكر الأثرم ، ومحمد بن بشار بندار ، وأبى الحسين علي ابن مسلم الطوسي ، ويعقوب الدورقى ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، ومحمد بن عبد الله المخرمي الحافظ ، ومحمد بن إسحق الصاغاني ، والعباس بن محمد الدوري ، وعلي بن داود القنطري ، ومثنى بن جامع الأنباري ، وإسحق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، ومحمد بن يحي الأزدي ، والحسن بن عبد العزيز الجروي ، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي ، وأبي موسى بن أبي علقمة النفروني ، وغيره من علماء المدينة ومحمد بن عبد الرحمن المقري ، وأبى الوليد بن أبى الجارود ، وأحمد ابن محمد بن القاسم بن أبى مرة ، وغيرهم من أهل مكة ، وأحمد بن سنان الواسطي ، وعلي بن حرب الموصلي ، ومن شاء الله تعالى من أئمة أهل السنة وأهل الحديث من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن أو صوته به أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة ، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره ، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة »

ومن المشهور في « كتاب صريح السنة » لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه ، لما ذكر الكلام فى أبواب السنة ، قال : وأما القول فى « ألفاظ العباد بالقرآن » فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ولا عن تابعي قفا ، إلا عمن فى قوله الشفاء والعفاء ، وفى اتباعه الرشد والهدى ، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأوائل : أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدثني قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول « اللفظية » جهمية ، يقول الله : (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) ممن يسمع ؟ قال ابن جرير : وسمعت جماعة من أصحابنا — لا أحفظ أسماءهم — يحكون عنه أنه كان يقول : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع . قال ابن جرير : ولا قول فى ذلك عندنا يجوز أن نقوله ، غير قوله ، إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه ، وفيه الكفاية والمقنع ، وهو الإمام المتبع .

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل فى « كتاب المحنة » تناهى إلي أن أبا طالب حكى عن أبي أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فأخبرت أبي بذلك ، فقال : من أخبرك ، فقلت : فلان ، فقال : ابعث إلى أبي طالب ، فوجهت إليه ، فجاء ، وجاء فوران ، فقال له أبي : أنا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وغضب ،

وجعل يرتعد ، فقال له : قرأت عليك : (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقلت لي : هذا ليس بمخلوق ، قال له : فلم حكيت عني أني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وبلغني : أنك وضعت ذلك فى كتابك ، وكتبت به إلى قوم ، فإن كان فى كتابك فامحه أشد المحو ، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم : أني لم أقل هذا ، وغضب ، وأقبل عليه ، فقال : تحكى عني مالم أقل لك ؟ فجعل فوران يعتذر له ، وانصرف من عنده وهو مرعوب ، فعاد أبو طالب ، فذكر أنه حك ذلك من كتابه ، وأنه كتب إلى القوم يخبرهم ؟ أنه وهم على أبى عبد الله فى الحكاية . قال الفضل بن زياد : كنت أنا والبستى عند أبى طالب ، قال : فأخرج إلينا كتابه وقد ضرب على المسألة ، وقال : كان الخطأ من قبلي ، وأنا أستغفر الله ، وإنما قرأت على أبى عبد الله القرآن ، فقال : هذا غير مخلوق ، كان الوهم من قبلي يا أبا العباس !

وقال الخلال فى : « السنة » حدثنا المروزي ، قال لي أبو عبد الله قد غيظ قلبي على ابن شداد ، قلت : أي شيء حكى عنك ؟ قال : حكى عني فى اللفظ ، فبلغ ابن شداد أن أبا عبد الله قد أنكر عليه ، فجاءنا حمدون بن شداد بالرقعة فيها مسائل ، فأدخلتها على أبي عبد الله ، فنظر فرأى فيها : أن لفظي بالقرآن غير مخلوق — مع مسائل فيها — فقال أبو عبد الله : فيها كلام ما تكلمت به ، فقام من الدهليز فدخل

فأخرج المحبرة والقلم ، وضرب أبو عبد الله على موضع : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وكتب أبو عبد الله بخطه بين السطرين : القرآن حيث تصرف غير مخلوق . وقال : ما سمعت أحداً تكلم فى هذا بشيء ، وأنكر على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق .

وقال الخلال فى « كتاب السنة » : أخبرني زكريا بن الفرج الوراق ، قال حدثنا أبو محمد فوران ، قال جاءني صالح — وأبو بكر المروذي عندي — فدعاني إلى أبى عبد الله ، وقال : إنه قد بلغ أبى أن أبا طالب قد حكى عنه أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فقمت إليه ، فتبعني صالح ، فدار صالح من بابه ، فدخلنا على أبى عبد الله ، فإذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب ، بين الغضب فى وجهه ! ! فقال لأبى بكر : اذهب فجئني بأبى طالب ، فجاء أبو طالب وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبى طالب ، وأقول : له حرمة ، فقعد بين يديه — وهو متغير اللون — فقال له أبو عبد الله : حكيت عني أنى قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : إنما حكيت عن نفسي ، فقال : لا تحك هذا عنك ولا عني ، فما سمعت عالماً يقول هذا — أو العلماء شك فوران — وقال له : القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف ، فقلت لأبى طالب — وأبو عبد الله يسمع — إن كنت حكيت هذا لأحد فاذهب حتى تخبره أن أبا عبد الله نهى عن

هذا ؟ فخرج أبو طالب فأخبر غير واحد — بنهي أبي عبد الله — منهم أبو بكر بن زنجويه ، والفضل بن زياد القطان ، وحمدان بن علي الوراق ، وأبو عبيد ، وأبو عامر ، وكتب أبو طالب بخطه إلى أهـل نصيبين — بعد موت أبي عبد الله — يخبرهم أن أبا عبد الله نهى أن يقال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وجاءنى أبو طالب بكتابه وقد ضرب عـلى المسألة من كتـابه ، قال زكريا بن الفرج : فمضيت إلى عبد الوهاب الوراق ، فأخذ الرقعة فقرأها ، فقال لي : من أخبرك بهذا عن أحمد ، فقلت له : فوران بن محمد ، فقال : الثقة المأمون على أحمد قال زكريا : وكان قبل ذلك قد أخبر أبو بكر المروذي عبد الوهاب ، فصـار عند عبد الوهـاب شاهدان . قال زكريا وسمعت عبد الوهاب ، قال : من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق يهجر ولا يـكلم ويحذر عنه ، وكان قبل ذلك قال : هو مبتدع .

وروى الخلال عن أبى الحارث قال سمعت رجلا يقول لأبى عبد الله يا أبا عبد الله ! أليس نقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق بمعنى من المعانى ، وعلى كل حال وجهة ؟ فقال أبو عبد الله : نعم .

واستيعاب هذا يطول .

وكذلك فى كلام الإمام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم من إضافة صوت

العبد بالقرآن إليه ما يطول كما جاء الحديث النبوي بذلك : مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقوله : « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » فذكر الخلال في (كتاب القرآن) عن إسحاق بن إبراهيم ، قال قال لي أبو عبد الله يوماً — وكنت سألته عنه — : تدري ما معنى من لم يتغن بالقرآن ؟ قلت : لا . قال : هو الرجل يرفع صوته ، فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به ، وعن منصور بن صالح أنه قال لأبيه : يرفع صوته بالقرآن بالليل ؟ قال : نعم ! إن شاء رفعه » ثم ذكر حديث أم هانئ : « كنت أسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنا على عريش من الليل » وعن صالح بن أحمد أنه قال لأبيه : « زينوا القرآن بأصواتكم » فقال : « التزيين » أن تحسنه . وعن الفضل بن زياد ، قال سمعت أبا عبد الله يسئل عن القراءة : فقال يحسنه بصوته من غير تكلف ، وقال أبو بكر الأثرم سألت أبا عبد الله عن القراءة بالألحان ؟ فقال : كل شيء محدث ؛ فإنه لا يعجبني ، إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه ،، قال القاضي أبو يعلى فيما علقه بخطه على « جامع الخلال » : هذا يدل من كلامه على أن صوت القارئ ليس هو الصوت القديم ؛ لأنه أضافه إلى القاري الذي هو طبعه من غير أن يتعلم الألحان .

وأما ما في كلام أحمد والأئمة من إنكارهم على من يقول إن هذا القرآن مخلوق ، وإن القراءة مخلوقة ، وتعظيمهم لقول من يقول : إنه ليس فى الصدور قرآن ولا في المصاحف قرآن ، وزعم من زعم أن من قال ذلك فقد قال بقول النصارى والحلولية ، فإنكار أحمد وغيره هذه المقالات كثير شائع موجود فى كتب كثيرة ، ولم تكن هذه الفتيا محتاجة إلى تقرير هذا الأصل ، فلم يحتج إلى تفصيل الكلام فيه ؛ بخلاف الأصل الآخر ، وقد ذكرنا من ذلك ما يسره الله فى غير هذا الموضع ولو ذكرت ما في كلام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم : من الرد على من يقول : لفظ العبد أو صوته غير مخلوق ، أو يقول : إن الصوت المسموع من القاري قديم لطال .

وهذا أبو نصر السجزى قد صنف « الإبانة » المشهورة ، وهو من أعظم القائلين : بأن التلاوة هي المتلو ، واللفظ بالقرآن هو القرآن وهو غير مخلوق ، وأنكر ما سوى ذلك عن أحمد ، ومع هذا فقد قال : فإن اعترض خصومنا فقالوا : أنتم وإن قلتم : القراءة قرآن وكلام الله فلا تطلقون أن الصوت المسموع من القاري صوت الله ؛ بل تنسبوله إلى القاري ، وإذا لم يمكنكم إطلاق ذلك دل على أنه غير القرآن ؟ ! ،

قال أبو نصر : فالجواب أن اعتصامنا فى هذا الباب بظاهر الشرع

وقولنـا فى القراءة والصوت غير مختلف ، وإذا قرأ القـارئ القرآن لا يقول : إن هـذه قراءة الله ، ولا يجيز ذلك بوجه ؛ بـل ينسب القراءة إلى القارئ توسعاً لوجود التحويل منه ، وإنمـا يقول إن قراءة القارئ قرآن ، وقد ثبت ذلك في الشرع باتفاق الـكل ؛ فإن الأشعري مع مخالفته لنا يقول : المسموع مـن القاري قرآن ، وقـد بينا : أن التمييز بين القراءة والقرآن فى هذا الموضع الذي اختلفنا فيه غير ممكن وكذلك يقول : إن الصوت المسموع من قارئ القرآن قراءة وقرآن ، والشرع يوجب ما قلناه لا أعلم خلافا بين المسلمين في ذلك .

فصـــــل

وأما نصوص الإمام أحمد على « خلق كلام الآدميـين » و « خلق أفعال العباد » فموجودة فى مواضـع كثيرة ، كما نص عـلى ذلك سائر الأئمة . وليس بين أهل السنة فى ذلك اختلاف ؛ ولهذا قال يحيى بن سعيد القطان شيخ الإمام أحمد : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعـال العباد مخلوقة ، وقد سئل الإمام أحمد عن أفاعيل العباد مخلوقـة هي ؟ فقـال نعم . ونص على كلام الآدميـين فى رواية أحمـد بن الحسن الترمذي ، كما سيأتي ، وفيما خرجه على « الزنادقة والجهميـــة » وهو

مروي من طريق ابنه عبد الله (وحاده [1]) ، وقـد ذكره الخلال أيضاً في « كتاب السنة » ونقل منه القاضي أبو يعلى وغيره ، وقد حكى إجماع الخلق على ذلك غير واحد منهم أبو نصر السجزي فى « الإبانة » وهو من أشد الناس إنكاراً على من يقول : إن ألفاظ العباد بالقرآن مخلوقة ، أو يقول : إن المسموع من القارئ ليس هو القرآن .

قال أبو نصر : وأما نسبة الأصوات إلى القراء — فيما ذكرنا في هذا الباب وفى غـيره من كتابنا هذا — ونسبة القراءة إليهـم ، وإن فرح بها الزائغون فلا حجة لهم فيها ؛ وذلك أنا لم نختلف فى إضافـة الصوت إلى الإنسان ، وأنـه إذا صاح ، أو تكلم بكلام النـاس ، أو نادى إنساناً فصوته مخلوق . قال : وهذا لا يشتبه : وإنما وقع الاختلاف فى أن المستمع من قارئ القرآن ماذا يستمع ؟ وسـاق الكلام ، إلى آخره . وذكر فى موضع آخر « الإجماع » أيضا على ذلك .

فصـــــل

وإنما نبهت على أصل مقالة الإمام أحمـد وسائر أئمـة السنة وأهل الحديث فى « مسألة تلاوتنا للقرآن » لأنها أصل ما وقع من الاضطراب

---

(١) كذا بالأصل

والتنازع فى هذا الباب مثل « مسألة الإيمان » هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ و « مسألة نور الإيمان » و « الهدى » ونحو ذلك من المسائل التى يكثر تنازع أهل الحديث والسنة فيها ، ويتمسك كل فريق ببعض من الحق ، فيصيرون بمنزلة الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، مختلفين فى الكتاب ، كل منهم بمنزلة الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهم عامتهم في جهل وظلم : جهل بحقيقة الإيمان والحق ، وظلم الخلق ، ويقع بسببها بين الأمة من التكفير والتلاعن ما يفرح به الشيطان ، ويغضب له الرحمن ، ويدخل به من فعل ذلك فيما نهى الله عنه من التفرق والاختلاف ، ويخرج عما أمر الله به من الاجتماع والائتلاف .

وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله تعالى من القرآن والإيمان الذي هو من صفاته ، وبين أفعال العباد وصفاتهم ؛ فلعسر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة فى الإثبات ، وآخرون إلى زيادة فى النفي ؛ ولهذا كان مذهب الإمام أحمد والأئمة الكبار : النهي عن الإثبات العام ، والنفي العام ؛ بل إما الإمساك عنها — وهو الأصلح للعموم وهو جمل الاعتقاد . وأما التفصيل المحقق فهو لذى العلم من أهل الإيمان ، كما أن الأول لعموم أهل الإيمان .

وهذه المسألة لها أصلان .

(أحدهما) أن « أفعال العباد مخلوقة » ، وقد نص عليها الأئمة أحمد وغيره ، وسائر أئمة أهل السنة والجماعة المخالفين للقدرية ، واتفقت الأمة على أن أفعال العباد محدثة .

و (الأصل الثاني) مسألة « تلاوة القرآن وقراءته واللفظ بـه » هل يقال إنه مخلوق أو غير مخلوق ؟ والإمام أحمد قد نص على رد المقالتين هو وسائر أئمة السنة من المستقدمين والمستأخرين ؛ لكن كان رده على « اللفظية النافية » أكثر وأشهر وأغلظ لوجهين .

(أحدهما) أن قولهم يفضي إلى زيادة التعطيل والنفي ، وجانب النفي — أبداً — شر من جانب الإثبات ؛ فإن الرسل جاءوا بالإثبات المفصل فى صفات الله ، و بالنفي المجمل : فوصفوه بالعلم ، والرحمة ، والقدرة والحكمة ، والكلام ، والعلو ، وغير ذلك من الصفات ، وفى النفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ). وأما الخارجون عن حقيقة الرسالة : من الصابئة ، والفلاسفة ، والمشركين ، وغيرهم ، ومن تجهم من أتباع الأنبياء ، فطريقتهم « النفي المفصل » ليس كذا ليس كذا ، وفي الإثبات أمر مجمل ، ولهذا يقال : المعطل أعمى ، والمشبه أعشى . فأهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل .

(الوجه الثانى) أن أحمد إنما ابتلى بالجهمية المعطلة فهم خصومه ،

فكان همه منصرفا إلى رد مقالاتهم ؛ دون أهل الإثبات ؛ فإنه لم يكن في ذلك الوقت والمكان من هو داع إلى زيادة فى الإثبات ؛ كما ظهر من كان يدعو إلى زيادة فى النفي . والإنكار يقع بحسب الحاجة ، والبخاري لما ابتلى « باللفظية المثبتة » ظهر إنكاره عليهم كما فى تراجم آخر « كتاب الصحيح » وكما فى « كتاب خلق الأفعال » مع أنه كذب من نقل عنه أنه قال : لفظي بالقرآن مخلوق من جميع أهل الأمصار ، وأظنه حلف على ذلك ، وهو الصادق البار .

فصل

وقد نص أحمد على نفس هذه « المسألة » فى غير موضع فروى أبو القاسم اللالكائي فى « أصول السنة » قال : أخبرنا الحسن بن عثمان قال ، حدثنا عمرو بن جعفر قال : حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال : قلت لأحمد بن حنبل : إن الناس قد وقعوا فى القرآن فكيف أقول ؟ فقال أليس أنت مخلوقا ؟ قلت : نعم ! قال : فكلامك منك مخلوق ؟ قلت : نعم ! قال : أفليس القرآن من كلام الله ؟ قلت : نعم ! قال : وكلام الله من الله ؟ قلت : نعم ! قال : فيكون من الله شيء مخلوق ؟!.

بين أحمد للسائل : أن الكلام من المتكلم وقائم بـه ؛ لا يجوز أن يكون الكلام غير متصل بالمتكلم ، ولا قائم به ؛ بدليل أن كلامك أيها المخلوق منك ؛ لا من غيرك ، فإذا كنت أنت مخلوقا وجب أن يكون كلامك أيضاً مخلوقا ، وإذا كان الله تعالى غير مخلوق امتنع أن يكون ماهو منه وبه مخلوقا .

وقصده بذلك الرد على « الجهمية » الذين يزعمون أن كلام الله ليس من الله ولا متصل به . فبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلما ، ولا هو حقيقة ذلك ، ولا هو مراد الرسل والمؤمنين ، من الإخبار عن أن الله قال ، ويقول ، وتكلم بالقرآن ، ونادى ، وناجى ، ودعا ، ونحو ذلك مما أخبرت به عن الله رسله ، واتفق عليه المؤمنون به من جميع الأمم ؛ ولهذا قال تعالى : (وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى) ، وقال : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) ، وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) ، وقال تعالى : (الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال : هذا مثل قوله : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) وإنما هو صفة كالعلم ، والقدرة ، والرحمة ، والغضب ، والإرادة ، والنظر ، والسمع ونحو ذلك ؛ وذلك لا يقوم إلا بموصوف ، وكل معنى له اسم

وهو قائم بمحل وجب أن يشتق لمحله منه اسم ، وأن لا يشتق لغير محله منه اسم.

فكما أن الحياة ، والعلم ، والقدرة إذا قام بموصوف وجب أن يشتق له منه اسم الحي ، والعالم ، والقادر ؛ ولا يشتق الحي ، والعالم ، والقادر لغير من قام به العلم ، والقدرة ، فكذلك القول ، والكلام ، والحب ، والبغض ، والرضا ، والرحمة ، والغضب ، والإرادة ، والمشيئة إذا قام بمحل وجب أن يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل ، فيقال : هو الصادق ، والشهيد ، والحكيم ، والودود ، والرحيم ، والآمر ، ولا يشتق لغيره منه اسم .

فلو لم يكن الله سبحانه وتعالى هو القائل بنفسه : (أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الآمر بهذه الأمور ، ولا المخبر بهذا الخبر ، ولكان ذلك المحل هو الآمر بهذا الأمر ، المخبر بهذا الخبر ، وذلك المحل : إما الهواء ، وإما غيره فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي) ولهذا كان السلف يقولون فى هذه الآية وأمثالها : من قال : إنه مخلوق فقد كفر . ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها يعظم عليهم أن تقوم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله تعالى.

ولهذا كان مذهب جماهير « أهل السنة والمعرفة » ــ وهو المشهور عند أصحاب الإمام أحمد ، وأبي حنيفة ، وغيرهم : من المالكية ، والشافعية ،

والصوفية ، وأهل الحديث ، وطوائف من أهل الكلام : من الكرامية وغيرهم ـ أن كون الله سبحانه وتعالى خالقا ، ورازقا ، ومحييا ، ومميتاً ، وباعثاً ، ووارثا ، وغير ذلك من صفات فعله ، وهو من صفات ذاته ؛ ليس من يخلق كمن لا يخلق.

ومذهب الجمهور أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الله القائم به والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه .

وذهب طوائف من « أهل الكلام » من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم : من الفقهاء الحنبلية ، والشافعية ، والمالكية ، وغيرهم إلى أنه ليس لله صفة ذاتية من أفعاله ، وإنما الخلق هو المخلوق ، أومجرد نسبة وإضافة وهذا اختيار ابن عقيل ، وأول قولي القاضي أبي يعلى ، وهؤلاء عندهم حال الذات التي تخلق وترزق أو لا تخلق ولا ترزق سواء .

وبهذا نقضت المعتزلة على من ناظرها من الصفاتية الأشعرية ونحوهم ؛ لما استدلت الصفاتية بما تقدم من « القاعدة الشريفة » فقالوا : ينتقض عليكم بالخالق ، والرازق وغير ذلك من أسماء الأفعال ؛ فإن الخلق والرزق قائم بغيره ، وقد اشتق له منه اسم الخالق والرازق ، ولم يقم به صفة فعل أصلا ، فكذلك الصادق ، والحكيم ، والمتكلم ، والرحيم ، والودود

وهذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة والجماعة : فإن الباب عندهم واحد ، وليس هذا قولا بقدم مخلوقاته أو مفعولاته ، سواء قيل : إن نفس فعله القائم به قديم فقط ، كما يقوله كثير من هؤلاء

ـ الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، وأهل الحديث ، والكلام ، والصوفية ـ أو يقولون له عند إحداث المخلوقات أحوال ونسب كما يقوله كثير من هؤلاء : الفقهاء ، وأهل الحديث ، والصوفية ، وأهل الكلام من الطوائف كلها .

وذلك لأن القول فى ذلك كالقول في مشيئته وإرادته ، فإنه وإن كان مذهب أهل السنة وسائر الصفاتية أنها قديمة ، فليست مراداته قديمة ، وكذلك صفة الخلق والتكوين ؛ وذلك لأن الشرع والعقل يدل على أن حال الخالق ، والرازق ، الفاطر ، المحيي ، المميت ، الهادي ، النصير ليس حاله فى نفسه كحاله لو لم يبدع هذه الأمور ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ) . فالفرق بين الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر .

والمخالف يقول إنما هو موصوف بالقدرة التى تتناول ما يخلقه وما لا يخلقه ، سواء فى نفسه كان خالقا أو لم يكن خالقا ، ليس له من كونه خالقاً « صفة ثبوتية » لا صفة كمال ، ولا صفة وجود مطلق ، كما له بكونه قادرا . ونصوص الكتاب والسنة توجب أن تكون أسماء أفعاله من أسمائه الحسنى التى تقتضي أن يكون بها محموداً مثنى عليه ممجدا ؛ وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال ،

وليس الغرض هنا ذكر هذه « المسألة » وإنما هي طرد حجة

الإمام أحمد وغيره من أئمة السلف الثقات ، وسائر الصفاتية ؛ ولهذا قال الإمام أحمد فى رواية حنبل فى «كتاب المحنة» : لم يزل الله عالما متكلما غفوراً . فبين اتصافه بالعلم ــ وهو صفة ذاتية محضة ــ و « بالمغفرة » وهي من «الصفات الفعلية» والكلام الذي يشبه هذا وهذا ، وذكر أنه لم يزل متصفا بهذه الصفات والأسماء ، وقال الإمام أحمد فيما خرجه فى «الرد على الزنادقة والجهمية» لما ذكر قول جهم : إنه يتكلم ؛ ولكن كلامه مخلوق. قال أحمد قلنا له : وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق ففي مذهبكم كان الله فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق الكلام ، وكذلك بنو آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما ، فقد جمعتم بين كفر وتشبيه ، وكذلك ذكروا فى « المحنة » فيما استدل به الإمام أحمد فى المناظرة واستدل بقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ قال : فإن يكن القول من غير الله فهو مخلوق .

فصل

وأما قول القائل : إن أحمد إنما قال ذلك خوفا من الناس ، فبطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغه شيء من أخبار أحمد ، وقائل هذا إلى العقوبة البليغة التي يفتري بها على الأئمة أحوج منه إلى جوابه ؛ فإن

الإمام أحمد صار مثلا سائرا يضرب به المثل فى المحنة والصبر على الحق وأنه لم تكن تأخذه فى الله لومة لائم ، حتى صار اسم الإمام مقروناً باسمه فى لسان كل أحد ، فيقال : قال الإمام أحمد . هذا مذهب الإمام أحمد . لقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) ؛ فإنه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الإمامة فى الدين .

وقد تداوله « ثلاثة خلفاء » مسلطون من شرق الأرض إلى غربها ، ومعهم من العلماء المتكلمين ، والقضاة ، والوزراء ، والسعاة والأمراء ، والولاة من لا يحصيهم إلا الله . فبعضهم بالحبس ، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره ، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله ، وبالضرب ، وبعضهم بالتشريد والنفي ، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض — حتى أصحابه العلماء ، والصالحون والأبرار ، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ، ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقية ؛ بل قد أظهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره ، ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم : من نظرائه ، وإخوانه المتقدمين والمتأخرين ؛ ولهذا قال بعض شيوخ الشام : لم يظهر أحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما أظهره أحمد بن حنبل ، فكيف يظن به أنه كان يخاف فى هذه الكلمة التى لا قدر لها ؟ !

و « أيضاً » فمن أصوله أنه لا يقول فى الدين قولا مبتدعا ، وقد جعلوا يطالبونه بما ابتدعوه ، فيقول لهم : كيف أقول ما لم يقل ؟! فكيف يكتم كلمة ما قالها أحد قبله من خلق الله .

و « أيضاً » فإن أحمد بن الحسن الترمذي من خواص أصحابه وأعيانهم فما الموجب لأن يستعمل التقية معه .

و « أيضاً » فلم يكن به حاجة إلى أن يقول : كلام الآدمي مخلوق ، وإنما هو ذكر ذلك مستدلا به ضارباً به المثل ، فكيف يبتدئ بكلام هو عنده باطل لم يسأله عنه أحد ؟!

و « أيضاً » فقد كان يسعه أن يسكت عن هذا ؛ فإن الإنسان إذا خاف من إظهار قول كتمه . أما إظهاره لقول لم يطلب منه ، وهو باطل عنده ، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلا وعلما وديناً .

فمن يسب « الإمام أحمد » الذي موقفه من الإسلام وأهله فوق ما يصفه الواصف ؛ ويعرفه العارف ، فقد استوجب من غليظ العقوبة ما يكون نكالا لكل مفتر كاذب راجم بالظن قاذف ، قائل على الله ورسوله والمؤمنين وأئمتهم ما لا يقوله العدو المنافق .

و « أيضاً » فقد ذكر ذلك فيما صنفه من « الرد على الزنادقة

والجهمية » وهو في الحبس ، وكتبه بخطه ، ولم يكن ذلك مما أظهره لأعدائه : الذين يحتاج غيره إلى أن يستعمل معهم التقية .

وهذا القول أقبح من قول الروافض فيما ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قاله وفعله على وجه التقية ؛ فإن الإمام أحمد صنف الرد عليهم وبين أنهم زنادقة فأي تقية تكون لهم مع هذا وهو يجاهدهم ببيانه وبنانه ، وقلمه ولسانه ؟ .

فصل

شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا فى « حروف المعجم » و « أسماء المخلوقات » . فإن المنتسبين إلى السنة تكلموا فى حروف المعجم فى غير القرآن والكتب الإلهية ، وقال طوائف منهم : كابن حامد ، وأبي نصر السجزي ، والقاضي فى أشهر قوليه ، وابن عقيل وغيرهم : إنها مخلوقة ، وقالوا : الحروف حرفان . وقال طوائف وهم كثير من أهل الشام ، والعراق ، وخراسان : كالقاضي يعقوب البرزيني والشريف أبى الفضائل الزيدى الحرانى ، ويروى ذلك عن الشيخ أبى الحسين بن سمعون ، وهو قول القاضي أبى الحسين ، وحكاه عن أبيه فى آخر قوليه ، وهو قول الشيخ أبى الفرج الأنصاري ، والشيخ عبد

القادر ، وابن الزاغونى وغيرهم : الحرف حرف واحد ، وحروف المعجم غير مخلوقة حيث تصرفت ؛ لأنها من كلام الله ، وحقيقة الحرف واحدة لا تختلف .

وقد نقل عن الإمام أحمد رضي الله عنه الإنكار على من قال : بخلق الحروف ، وإنه لما حكى له أن بعض الناس قال : لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقال الإمام أحمد : هذا كفر . وروى إنكار ذلك عن غيره من الأئمة .

والأولون لا ينازعون فى هذا ؛ فإنهم ينكرون على من يقول : إن الحروف مخلوقة ؛ فإنه إذا قال ذلك دخل فيه حروف كلام الله تعالى من القرآن وغيره ، وهم يخصون الكلام فى الحروف الموجودة فى كلام المخلوق ، دون الحروف الموجودة فى كلام الله ، ويقولون : حقيقة الحروف والاسم وإن كانت واحدة فذلك بمنزلة كلمات موجودة فى القرآن وقد تكلم بها بعض المخلوقين. فالمتكلم تارة يقصد أن يتكلم بكلام غيره ، وإن وافقه فى لفظه بالنسبة إلينا ، وهذا لا يتأتى إلا فى الشيء اليسير ، وهو مادون السورة القصيرة ؛ فإن الله قد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله ، وأخبر أنهم لن يفعلوا .

قال الأولون : فموافقة لفظ الكلام للفظ الكلام لا يوجب أن

يكون لأحدهما حكم الآخر في النسبة إلى المتكلم المخلوق ؛ بحيث ينسب أحدهما إلى من ينسب إليه الآخر ، فكيف بالنسبة إلى الخالق ؟ بل لما كتب مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ، رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم : «من محمد رسول الله ، إلى مسيلمة الكذاب » كان اللفظ برسول الله من المتكلمين سواء : من أحدهما صدق — ومن أعظم الصدق — ، ومن الآخر كذب — ومن أقبح الكذب .

وقد ذكر الله عن الكفار مقالات سوء فى كتابه مثل قولهم : (ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ـ) وقولهم : (عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ) (ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ) وغير ذلك من الأقوال الباطلة وقد حكاها الله عنهم ، فإذا تكلمنا بما حكاه الله عنهم كنا متكلمين بكلام الله ، ولو حكيناها عنهم ابتداء لكنا قد حكينا كلامهم الكذب المذموم .

ولهذا قال الفقهاء : من ذكر الله أو دعاه جاز له ذلك مع الجنابة وإن وافق لفظ القرآن ، إذا لم يقصد القراءة . وقالوا : لو تكلم بلفظ القرآن فى الصلاة يقصد مجرد خطاب الآدمي بطلت صلاته ؛ لأن ذلك من كلام الآدميين . والصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، وإن قصد مع تنبيه الغير القراءة صحت صلاته عند الجمهور ، كما لو لم

يقصد إلا القراءة . وعند بعضهم تبطل ، كقول أبى حنيفة . ومن هذا الباب مسألة الفتح على الإمام وتنبيه الداخل بآية من القرآن وغير ذلك .

وسبب ذلك أن معنى الكلام داخل في مسماه ليس هو اسماً لمجرد اللفظ. والمعنى : هو إنشاء وإخبار ، والإنشاء فيه الأمر والنهي ، ومعلوم أن أمر زيد ليس هو أمر عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ وكذلك اختيار زيد ليس هو اختيار عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ . فالآمر المطاع الحكيم إذا أمر بأمر كان له حكم خلاف ما إذا أمر به الجاهل العاجز وإن اتفق لفظهما ، وكذلك الشاهد العالم الصادق إذا أخبر بخبر كان حكمه خلاف ما إذا أخبر به الجاهل الكاذب وإن اتفق لفظهما .

وإذا كان كذلك فمن أدخل فى كلام له بعض لفظ أدخله غيره في كلامه لم يوجب ذلك أن يكون هذا اللفظ من كلام ذلك المتكلم ، وإن كان أحد اللفظين شبيهاً بالآخر ، وهو بمنزلة من كتب حروفا تشبه حروف المصحف ، كتبها كلاما آخر لم يكن ذلك مما يوجب أن يكون من حروف المصحف .

وقال الآخرون مجرد الموافقة فى اللفظ لا يوجب أن يجعل حكم

أحد اللفظين حكم الآخر ، لكن إذا كان أحدهما أصلا سابقاً إلى ذلك الكلام ، والآخر إنما احتذى فيه حذوه ومثاله : كان اللفظ والكلام منسوبا إلى الأول ؛ بمنزلة من تمثل بقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو بقوله :(١)

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أو بمثل من الأمثال السائرة كقوله : « عسى الغوير أبؤسا » و « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » و« كل الصيد فى جوف الفرا » ونحو ذلك . فهذا الكلام هو تكلم به في المعنى الذي أراده ؛ لا على سبيل التبليغ عن غيره ، ومع هذا فهو منسوب إلى قائله الأول ، فهكذا الحروف الموجودة فى كلام الله وإن أدخلها الناس فى كلامهم الذي هو كلامهم فأصلها مأخوذ من كلام الله تعالى .

قال الأولون : هنا مقامان .

(أحدهما) : أن كل من أنطقه الله بهذه الحروف فإنما كان ذلك بطريق الاستفادة من كلام الله ، أو ممن استفادها من كلام الله . وهذه الدعوى العامة تحتاج إلى دليل ؛ فإن تعليم الله لآدم الأسماء أو إنزاله كتبه بهذه الحروف لا يوجب أن يكون لم ينطق غير آدم ممن لم يسمع

---

(١) بقول طرفة بن العبد

الكتب المنزلة بهذه الحروف ، كما كانت العرب تنطق بهـذه الحروف والأسمـاء قبل نزول القرآن ، والله تعالى أنزله بلسانهم الذي كانوا يتكلمون به قبل نزول القرآن .

(المقام الثاني) : أنه لو لم يكن أحد نطق بها إلا مستفيداً لها من كلام الله ؛ لكن إذا أنشأ بهـا كلاما لنفسه ولم يقصد بهـا قراءة كلام الله لم تكن فى هذه الحال من كلام الله ، كما لو فعـل ذلك فى بعض الجمل المركبة وأولى . ويدل على ذلك الأحكام الشرعية .

قال الآخرون ــ القائلون بأن حروف المعجم غير مخلوقة مطلقاً ــ لنا فى الأسماء الموجودة فى غير القرآن قولان . منهم من يقول بأن جميع الأسماء غـير مخلوقة ، كما يقول ذلك فى الحروف . ومنهم من لا يقول ذلك ، وقد حكى القولين ابن حامد وغيره ممـن ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد وغيره من القائلين بأن حروف المعجم غير مخلوقة فمن عمم ذلك استدل بقوله تعالى : (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا) وهذه الحجة مبنية على مقدمتين .

(إحداها) أن مبدأ اللغـات توقيفية ، وأن المراد بالتوقيف خطاب الله بها ، لا تعريفه بعلم ضروري ، وهذا الموضع قد تنازع فيه الناس من أصحاب الإمام أحمد وسائر الفقهاء وأهل الحديث والأصول .

فقال قوم : إنها توقيفية ، وهو قول أبى بكر عبد العزيز ، والشيخ أبى محمد المقدسى ، وطوائف من أصحاب الإمام أحمد ؛ وهو قول الأشعري ، وابن فورك ، وغيرهما . وقال قوم : بعضها توقيفي ، وبعضها اصطلاحي . وهذا قول طوائف : منهم ابن عقيل ، وغيره . وقال قوم : يجوز فيها هذا وهذا ، ولا نجزم بشيء . وهذا قول القاضي أبى يعلى ، والقاضي أبى بكر بن الباقلانى ، وغيرهما . ولم يقل : إنها كلها اصطلاحية إلا طوائف من المعتزلة ومن اتبعهم — ورأس هذه المقالة أبو هاشم ابن الجبائى .

والذين قالوا إنها « توقيفية » تنازعوا : هل التوقيف بالخطاب ، أو بتعريف ضروري ، أو كليهما ؟ فمن قال : إنها توقيفية ، وإن التوقيف بالخطاب ، فإنه ينبني على ذلك أن يقال : إنها غير مخلوقة ؛ لأنها كلها من كلام الله تعالى ؛ لكن نحن نعلم قطعاً أن في أسماء الأعلام ما هو مرتجل وضعه الناس ابتداء فيكون التردد فى أسماء الأجناس .

و « أيضاً » فإن تعليم الله لآدم بالخطاب لا يوجب بقاء تلك الأسماء بألفاظها فى ذريته ؛ بل المأثور أن أهل سفينة نوح لما خرجوا من السفينة أعطي كل قوم لغة ، وتبلبلت ألسنتهم . وهذه المسألة فيها تجاذب ، والنزاع فيها بين أصحابنا وسائر أهل السنة يعود إلى نزاع

لفظي فيما يتحقق فيه النزاع ، وليس بينهم والحمد لله خلاف محقق معنوي .

وذلك أن الذي قال الحرف حرف واحـد ، وإن حروف المعجم ليست مخلوقة ؛ إنما مقصوده بذلك أنها داخـلة فى كلام الله ، وأنهـا منتزعة من كلام الله ، وأنها مادة لفظ كلام الله ، وذلك غـير مخلوق ، وهذا لا نزاع فيه . فأما حرف مجرد فلا يوجد لا فى القرآن ولا فى غيره ، ولا ينطق بالحرف إلا في ضمن ما يأتلف مـن الأسماء والأفعال وحروف المعانى ، وأما الحروف التى ينطق بها مفردة مثـل : ألف ، لام ، ميم ، ونحو ذلك فهذه فى الحقيقة أسماء الحروف ، وإنما سميت حروفا باسم مسماها ، كما يسمى ضرب فعل ماض باعتبار مسماه ؛ ولهذا لما سأل الخليل أصحابه كيف تنطقون بالزاء مـن زيد ؟ قالوا : نقول « زا » قال : جئتم بالاسم ؛ وإنما يقال «زه» .

وليس فى القرآن من حروف الهجاء ــ التى هي أسماء الحروف ــ إلا نصفها ، وهي أربعة عشر حرفا ، وهي نصف أجنـاس الحروف : نصف المجهورة ، والمهموسة ، والمستعلية ، والمطبقة ، والشديدة ، والرخوة ، وغير ذلك من أجناس الحروف . وهو أشرف النصفين. والنصف الآخر لا يوجد فى القـرآن إلا فى ضمن الأسماء ، أو الأفعـال ، أو حروف المعانى ــ التى ليست باسم ولا فعل . فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة فى القرآن ؛ لكن نفس حروف المعجم التى

هي أبعاض الـكلام موجودة في القرآن ؛ بـل قد اجتمعت في آيتين : « إحداها » في آل عمران و « الثانية » فى سورة الفتح : (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ) الآية ، و (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) الآية .

وإذا كان كذلك فمن تكلم بكلام آخر مؤلف مـن حروف الهجاء فلم ينطق بنفس الحروف التى فى لفظ القرآن ، وإنما نطق بمثلها ، وذلك الذي نطق به قد يكون هو أخذه إذا ابتدأ من لفظ كلام الله تعـالى وقد لا يكون حقيقة .

قيل : الحرف من حيث هو هو شيء واحد له الحقيقة المطلقة التى لا تأليف فيها لا توجد لا فى كلام الله تعالى ولا فى كلام عباده ، وإنما الموجود الحرف الذي هو جزء من اللفظ أو اسمه إذا لم يوجد إلا حرف ؛ ولكن هذا المطلق ؛ بل الأعيـان الموجودة في الخارج قائمـة بأنفسها ، كالإنسان لا يوجد مجرداً عن الأعيان فى الأعيان ، لا يوجد مجرداً عن الأعيان إلا فى الذهن ، لا فى الخارج . فكيف بالحرف الذي لا يوجد فى الخارج إلا مؤلفاً ؟ ! فلو قدر أنه يوجد فى الخارج غير مؤلف متعدد الأعيان كما يوجد الإنسان لم تكن حقيقته المطلقة من حيث هي هي موجودة إلا فى الأذهان لا في الأعيان .

فتبين أن الحروف تختلف أحكامها باختلاف معانيها واختلاف المتكلم

بها ، وهذا أوجب تعظيم حروف القرآن المنطوقة والمسطورة ، وكان لها من الأحكام الشرعية ما امتازت به عما سواها ، واختلاف الأحكام إنما كان لاختلاف صفاتها وأحوالها .

فتبين أن الواجب أن يقال ما قاله الأئمة كأحمد وغيره : إن كلام الإنسان كله مخلوق حروفه ومعانيه ، والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله : أنا الرحمن خلقت الرحم ،.وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته » وروى الربيع بن أنس عن المسيح أنه قال : « عجبا لهم كيف يكفرون به وهم يتقلبون في نعمائه ويتكلمون بأسمائه ؟! » .

وذكر فى معظم حروف المعجم أنها مباني أسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة من السماء ، وهذا مما يحتج به من قال : ليست مخلوقة ، وليس بحجة ؛ فإن أسماء الله من كلامه وكلامه غير مخلوق ، وما اشتقه هو من أسمائه فتكلم به فكلامه به غير مخلوق . وأما إذا اشتقوا اسما أحدثوه فذلك الاسم هم أحدثوه ولا يلزم إذا كان المشتق منه غير مخلوق ، أن يكون المشتق كذلك . وما يروى عن المسيح فلا يعرف ثبوته عنه . وبتقدير ثبوته فإذا كان قد ألهم عباده أن يتكلموا بالحروف

التى هي مباني أسمائه التى تكلم بهـا لم يلزم أن يكون ما أحدثوه هم غير مخلوق .

« وبالجملة » فمن نظر إلى أن حقيقة الحرف التى لا تختلف موجودة فى كلام الله وكلام الله غير مخلوق، قال إنها مخلوقة إشارة إلى نفس حقيقة الحرف ؛ لا إلى عين جزء اللفظ الذي بـه ينطق الكفار والمشركون ؛ فإن ذلك الحرف الذي هو صوت لمقدر أو تقـدير صوت قائم بالـكافر والمشرك لا يقول عاقل : إنه غير مخلوق ؛ مع أنه ليس مضافا إلى الله بوجه من الوجوه ، وإنما يضاف إلى الله ما شاركه في اسمه ممـا كان متعلقاً بالمعنى المضاف إلى الله .

وهذا بخلاف الحروف التى فى كلام الله ؛ فإن تلك كلام الله كيف ما تصرفت ، ونحن لما يسر الله كلامه بألسنتنا أمكننا أن نتكلم بكلامه ؛ لكن بأدواتنا وأصواتنا ؛ وليس تكلمنا به وسمعه منا كتكلم الله به وسمعه منه كما تقدمت الإشارة إلى هذا ، كما أن الله ليس كمثله شـيء فكذلك سائر ما يضاف إليه ؛ ولكن لما أنطقنا الله بأدواتنـا وحركاتنا وأصواتنـا صار بين بعض لفظنا بـه ولفظنا بغـيره نوع من الشبه ؛ فإذا تكلمنا بكلام آخـر فهو يشبه من بعض الوجوه لفظنا وصوتنا بالقرآن لا يشبه تكلم الله به و قراءته إياه فإذا كان وجود هذه الحروف في كلام الآدميين ليس بمنزلة تكلم الله بالقرآن ، وإنما يشبه من بعض الوجوه تكلمنا بـه

من جهة ما يضاف إلينا لا من جهة ما يضاف إلى الله امتنع حينئذ أن يقال : عين الحرف الذي هو جزء لفظة من الاسم الذي ينطق به الناس هو عين الحرف الذي هو جزء لفظ من كلام الله تعالى ، وإنما يشبهه ويقاربه ، فهو هو باعتبار النوع ؛ وليس هو إياه باعتبار العين والشخص ، خلاف حروف كلام الله القرآن ؛ فإنها كلام الله حيث تصرفت وفيها دقة وشبهة أشرنا إليها فى هذا الجواب ، وشرحناها فى موضعها .

فمن قال : إن الحروف حرفان أراد به أنهما عينان وشخصان وهذا حق . ومن قال : الحرف حرف واحد أراد به : أن الحقيقة النوعية واحدة فى الموضعين ، وهذا حق . ومن قال : إن حروف الهجاء من كلام الآدميين غير مخلوقة فقد صدق باعتبار الحقيقة النوعية . ومن قال : إنها مخلوقة باعتبار العين الشخصية فقد صدق .

ونظير هذا كثير يوجد في كلام أهل العلم وأهل السنة من النفي والإثبات ، ويكون النزاع فى معنيين متنوعين نزاعا لفظياً اعتباريا ، وقد قال بعض الفضلاء : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ؛ لكن وقوع الاشتراك والإجمال يضل به كثير من الخلق ، كما يهتدي به كثير من الخلق ، وهو سبب ضلال هؤلاء الجهال المسؤول عنهم ، فإن حجتهم : أن الله علم آدم الأسماء كلها ، وعلمه البيان ، وهو مبنى على

أن « اللغات توقيفية » كقول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم : كأبي بكر عبد العزيز ، وأبي محمد المقدسي ، وهو قول الأشعري ، وابن فورك وغيرهما .

لكن « التوقيف » هل المراد به التكليم ، أو التعريف ، أو كلاهما ؟ هذا فيه نزاع أيضاً ، كما تقدم . فالذين قالوا : إنها غير مخلوقة ، يقولون : إنها « توقيفية » ، وإن التعليم هو بالخطاب ، فيكون الله قد تكلم بالأسماء كلها ، وكلام الله غير مخلوق . قال هؤلاء الجهال الضالون : وكلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الحروف والأسماء وتلك غير مخلوقة . فهذا أيضا غير مخلوق .

فبنوا قولهم على أن حروف المعجم غير مخلوقة ، وأن الأسماء المؤلفة من الحروف غير مخلوقة ، واعتقدوا مع ذلك أن كلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الأسماء والحروف وتلك غير مخلوقة ، فقالوا : كلام الآدميين غير مخلوق ؛ لأن مفرداته غير مخلوقة . وإذا ضويقوا . فقد يقولون النظم والتأليف مخلوق ، وأما نفس المنظوم المؤلف فهو قديم ، ثم يحسبون أن المواد المنظومة المؤلفة هي أدخل فى الكلام من نفس التأليف والنظم ، كما أن أجزاء البيت هي أدخل فى مسماه من تأليفه وإن كان البيت اسما للأجزاء ولتأليفها .

وربما طرد بعضهم هذه « المقالة » فى سائر أصوات الآدميين . ولما ألزمهم من خاطبهم بأصوات العباد : التى ليست بكلام طرد بعضهم ذلك فى الأصوات ، ثم طرد ذلك فى أصوات البهائم : من الحمير وغيرها ، ويلزمهم طرد ذلك فى جميع الأصوات ، حتى أصوات العيدان والمزامير ؛ إذ لا فرق بينها وبين أصوات البهائم .

واعلم أن الجهالة إذا انتهت إلى هذا الحد صارت بمنزلة من يقول : إن الوتد ، والحائط ، والعجل الذي يعمل منه الجلد كلام الله ، أو يقول : إن يزيد بن معاوية كان من الأنبياء الكبار ، أو يقول : إن الله ينزل عشية عرفة على جمل أورق يعانق المشاة ويصافح الركبان ، أو يقول : إن أبا بكر وعمر ليسا مدفونين بالحجرة ، أو أنهما فرعون وهامان ، وأنهما كانا كافرين عدوين للنبي صلى الله عليه وسلم : مثل أبى جهل وأبى لهب ، أو يقول : إن على بن أبى طالب هو العلي الأعلى رب السموات والأرض ، أو يقول : إن الذي صفعته اليهود وصلبته ووضعت الشوك على رأسه هو الذي خلق السموات والأرض ، وإن اليدين المسمرتين هما اللتان خلقتا السموات والأرض ، أو يقول : إن الله قعد فى بيت المقدس يبكي وينوح حتى جاء بعض مشايخ اليهود فبرك عليه ، أو أنه بكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة ، وأنه ندم على الطوفان ، وعض يديه من الندم حتى جرى الدم ، أو يقول : إن

الشيخ فلان والشيخ فلان يخلق ويرزق ، وكل رزق لا يرزقنيه ما أريده ، أو يقول إن عليا هو الذي كان يعلم القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو يقول : إن صانع العالم لما صنعه غلبت عليه الطبيعة حتى أهلك نفسه ، أو يقول : إن وجوده ووجود هذا وهذا هو عين وجود الحق ، وإن الله هو عين السموات والأرض والنبات والحيوان ، وان كل صوت ونطق فى العالم فهو صوته وكلامه ، وكل حركة فى العالم وسكون فهو حركته وسكونه ، وإن الحق المنزه هو الخلق المشبه، وإنه لو زالت السموات والأرض لزالت حقيقة الله ، وإنه من حيث ذاته لا اسم له ولا صفة ، وإنه لا وجود له إلا في الأعيان الممكنات ، وإنه الوجود المطلق الساري في المخلوقات : الذي لا يتميز ولا ينفصل عن المخلوقات . إلى أمثال هذه المقالات التى يقولها الغلاة من المشركين والكتابيين . ومن أشبههم من غالية هذه الأمة .

فإن المنتسبين إلى السنة والحديث ــ وإن كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم ، فالسنة فى الإسلام كالإسلام فى الملل ، كما أنه يوجد فى المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد فى غيرهم ، وإن كان كل خير في غير المسلمين فهو فى المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو فى غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبة إلى السنة ــ قد يوجد فيهم ما يوجد فى غيرهم ، وإن كان كل خير فى غير أهل السنة فهو فيهم أكثر ، وكل

شر فيهم فهو فى غيرهم أكثر ؛ إذ قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم : حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » وقال : « لتأخذن مآخذ الأمم قبلكم : شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، قالوا : فارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا هؤلاء ؟! » .

وإزالة شبهة هؤلاء تحتاج إلى الكلام فى « الحروف ، والأسماء » هل هى مخلوقة أم غير مخلوقة ، وإن كنا قد أشرنا إلى ذلك ؛ بل نتكلم على تقدير أنها غير مخلوقة ، ونقول مع هذا : يجب القطع بأن كلام الآدميين مخلوق ، ويطلق القول بذلك إطلاقا لا يحتاج إلى تفصيل : بأن يقال نظمه وتأليفه مخلوق ، وحروفه وأسماؤه غير مخلوقة أو تركيبه مخلوق ومفرداته غير مخلوقة ، فإن هذا التفصيل لا يحتاج إليه .

وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه ، كما قدمناه ، ليس الكلام اسما لمجرد الألفاظ ، ولا لمجرد المعانى .

وعامة ما يوجد فى الكتاب والسنة ، وكلام السلف والأئمة ؛ بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام ، والقول ، وهذا كلام فلان ، أو كلام فلان ؛ فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعا

لشموله لهما ؛ ليس حقيقة فى اللفظ فقط ، كما يقوله قوم ، ولا فى المعنى فقط ، كما يقوله قوم . ولا مشترك بينهما ، كما يقوله قوم . ولا مشترك فى كلام الآدميين وحقيقة فى المعنى فى كلام الله كما يقوله قوم .

ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » وقول معاذ له : « وإنا لمؤاخذون بما نتكلم ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟! » وقوله : « كلمتان ثقيلتان فى الميزان ، خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقوله : « إن أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

وقوله : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا » . « فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وما فى القرآن : مثل قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وقوله : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) ، ونحو ذلك من أسماء القول والكلام جميعاً ونحوهما فإنه يدخل فيه اللفظ والمعنى جميعاً عند الإطلاق .

وإذا كان كذلك فالمتكلم بالكلام المبتدئ له ، سواء كان نظما أو نثراً لا ريب أنه هو الذي ألف معانيه وألف ألفاظه ؛ وأما مفردات « الأسماء والحروف » فلا ريب أنه تعلمها من غيره ، سواء كانت مخلوقة أو غير مخلوقة ؛ فان « اللغات » سابقة لكلام عامة المتكلمين ، ونطق الناطقين من البشر ، وهم تلقوا الأسماء ، وحروف الأسماء الموجودة فى لغاتهم عمن قبلهم إلى أن ينتهي الأمر إلى أول متكلم بتلك الأسماء المفردة .

ثم انه مما علم بالاضطرار واتفق عليه أهل الأرض جميعهم : أن الكلام هو كلام من ألف معانيه وألفاظه ، وإن كان جميع ما فيه من الأسماء والحروف إنما تعلمها من غيره ، فالناس مطبقون على أن هذه القصائد كلام منشئيها : مثل شعر امرئ القيس ، والنابغة الذبيانى : كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فجميع الأمم يعلمون ويقولون ان هذا شعر امرئ القيس وكلامه وإن كانت الأسماء المفردة فيه إنما تعلمها من غيره ؛ فان العرب نطقت قبله بلفظ « قفا » وبلفظ «نبك» وبلفظ « من ذكرى » «حبيب » «ومنزل »

وجميع المسلمين إذا سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما

الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى » أو « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » وقوله : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قالوا : هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا حديثه ، وهذا قوله ، مع علمهم ، أن جميع مفردات هذا الكلام قد كانت موجودة فى كلام العرب قبله : مثل لفظ « إنما » ولفظ « الأعمال » ولفظ « النية » و « النيات » ولفظ « كل امرئ » ولفظ « ما نوى » وغير ذلك .

وهكذا كلام الصحابة والتابعين وكلام مصنفى الكتب والرسائل والخطب كلهم يقول : هذه الرسالة كلام فلان ، وهذه الخطبة كلام فلان ، وهذه المسألة من كلام فلان ، مع علمهم بأنه مسبوق بمفردات الكلام : أسمائه ، وحروف هجائه ، وذلك لأن الكلام لم يكن كلاما باعتبار الألفاظ المفردة ، ولا باعتبار أجزائها — وهي حروف الهجاء — ولا كان المقصود بوضع اللفظ للمعنى الدلالة على المعانى المفردة ، فإن المعانى المفردة لا يعلم وضع اللفظ لها إلا بعد العلم بها ، فلو كان العلم بها لا يستفاد إلا من اللفظ لزم الدور .

ولهذا يقول أهل العربية — وهم أخبر بمشبهات الألفاظ من

غيرهم — : إن اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالمركبة من اسمين ، أو اسم وفعل . وقد ذكر ذلك « سيبويه » حكيم لسان العرب فى (باب الحكاية بالقول) حيث ذكر أن القول يحكى به ما كان كلاما ، ولا يحكى به ما كان قولا ، والقول إنما تحكى به الجمل المفيدة . فعلم أنها هي الكلام في لغة العرب .

وحيث أطلق الفقهاء اسم « الكلام » على حرفين فصاعدا في (باب الصلاة) فانما غرضهم ما يبطل الصلاة ، سواء كان مفيداً أو غير مفيد ، وموضوعا ، أو مهملا ، حتى لو صوت تصويتاً طويلا ، ولحن لحون الغناء أبطل الصلاة ، وإن لم يكن ذلك في اللغة كلاما . وهم فيما إذا حلف لا يتكلم أو ليتكلمن لا يعلقون البر والحنث الا بما هو فى عرف الحالف كلام ، وإن كان أخص من الكلام الذى يبطل الصلاة ولهذا لو حلف لا يتكلم وأطلق يمينه حنث بكلام المخلوقين ، وهل يحنث بتكلمه بالقرآن ؟ من العلماء من قال : لا يحنث بحال . ومنهم من قال : لا يحنث بتلاوته فى الصلاة . ومنهم من توقف ؛ لأن اليمين مرجعها إلى عرف الحالف ، فعموم اسم الكلام وخصوصه عندهم بحسب الأحكام المتعلقة به .

والسلف إذا ذموا أهل الكلام وقالوا : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح ، فلم يريدوا به مطلق الكلام ،

وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين .

والخائضون فى « أصول الفقه » وإن قالوا : إن الكلام ما تألف من حرفين فصاعدا ، أو ما انتظم من « الحروف » وهي الأصوات المقطعة المتواضع عليها . وتنازعوا فى الحرف الواحد المؤلف مع غيره هل يسمى كلاما ؟ على قولين ؛ كما قال اكثر متكلميهم : إن الجسم هو المؤلف ، وأقل التركيب من جوهرين ، وتنازعوا في الجوهر الواحد المؤلف هل يسمى جسما ؟ على قولين ؛ فهذا اصطلاح خاص لهم .

كما اصطلح (النحاة) على أن (المفرد) مثل الاسم وحرف المعنى يسمى كلمة ، وإن كانت الكلمة فى لغة العرب العرباء لا توجد إلا اسما للجملة التامة إلا أن يكون شيئاً لا يحضرني الآن .

وإذا كان الناس متفقين على أن الكلام هو كلام من ألف ألفاظه ومعانيه ، وإن كان قد تعلم أسماءه من غيره زالت كل شبهة فى المسألة ، ووجب إطلاق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، كما يطلق القول بأن هذا الشعر من كلام فلان وهذا الكلام كلام فلان ؛ لا كلام الذين تكلموا قبلهم بتلك الأسماء وحروفها ؛ فإن كلام الآدميين هو الكلام الذين أنشأوه وابتدأوه فألفوا ألفاظه ومعانيه . وإن كان بعضهم قد تعلم أسماءه وحروفه من بعض ، ولو كانت أسماؤه قد سمعوها من الله تعالى .

واعلم أن هنا أمراً عجيباً وهو أن هؤلاء القوم ضد الذين يجعلون القرآن الذي يقرؤونه كلام الآدميين ، لا كلام الله ، فإن أولئك عمدوا إلى كلام الله الذي يتلونه ويبلغونه ويؤدونه — فجعلوه كلام أنفسهم ، وهؤلاء عمدوا إلى كلامهم — المتضمن الكفر والفسوق والعصيان والكذب والبطلان — فجعلوه كلام الله الذي ليس بمخلوق . فأولئك لم ينظروا إلا إلى من سمع منه الكلام ، وهؤلاء لم ينظروا إلا إلى من اعتقدوا أنه تكلم أولاً بمفردات الكلام .

وأما « الأمة الوسط » الباقون على الفطرة ، وجميع بني آدم فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداه ولما قرأه من كلام غيره وتلاه . هذا كلام ذاك ، وإنما بلغته بقوالك ، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما خرج على قريش فقرأ عليهم : (الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ) فقالوا : هذا كلامك ، أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكن كلام الله .

وهذا كما قال الله تعالى : (فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) وفي سنن أبي داود عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فيقول : ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي » فبين صلى

الله عليه وسلم أنما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »

والأمم متفقون على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة من شعر مثل « قفا نبك » أو « هل غادر الشعراء » أو « خطبة » مثل خطب علي ، وزياد ، أو « رسالة » كرسالة عبد الحميد ونحوه ، أو سجعا من سجع الكهان ، أو قرآناً مفترى كقرآن مسيلمة الكذاب قالوا : هذا شعر امرئ القيس ، وكلام علي ، وكلام عبد الحميد ، وقرآن مسيلمة ، وهو كلامه ، ولم يجعلوه كلاما للمبلغ المؤدي بالواسطة ، وإن كان بلغه بفعله وصوته ، وإذا أنشأ رجل قصيدة ، أو خطبة ، أو رسالة ، أو سجعاً ، أو تكلم بكلام منثور : آمراً أو مخبراً قالوا : هذا كلام فلان ، وقوله ، وإن كان قد تعلم مفرداته من غيره ، وتلقفها من أحد .

فمن قال : إن الكلام هو كلام لمن تعلم منه المفردات فهو أبعد عن العقل والدين ممن قال : إن الكلام لمن بلغه وأداه ، وإنما الكلام كلام من اتصل به ، واتصف به ، وألفه ، وأنشأه ، وكان مخبراً بخبره ، وآمراً بأمره ، وناهياً عن نهيه .

فصـــــل

وأما سؤال السائل : هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم ؟ فنعم ! يجب ذلك في هؤلاء ، وفى كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة ؛ فإن ذلك من « المنـكر » الذي أمر الله بالنهي عنه ، كما قال تعالى : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ) وهو من « الإثم » الذي قال الله فيـه : (لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ) .

وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبته لنفسه من المعطلة والممثلة فإنه قال على الله غير الحق ، وذلك ممـا زجر الله عنه بقوله للنصارى : (يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ) وبقوله : (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) وقال عن الشيطان : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وقال : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ

سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

فإن من قال غير الحق فقد قال على الله ما لا يعلم ؛ فإن الباطل لا يعلم إلا إذا علم بطلانه ، فأما اعتقاد أنه الحق فهو جهل لا علم ، فمن قاله ، فقد قال ما لا يعلم ، وكذلك من تبع فى هـذه الأبواب وغيرها من أبواب الدين آباءه وأسلافه من غير اعتصام منـه بالكتاب والسنة والاجماع فانه ممن ذمه الله فى كتابه : مثل قوله : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ) وقوله : (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) .

وكذلك مـن اتبـع الظنون والأهواء معتقداً أنهـا « عقليات » و « ذوقيات » فهو ممن قال الله فيه : (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ) وإنما يفصل بين النـاس فيما تنازعوا فيه الكتـاب المنزل من السماء ، والرسول المؤيد بالأنباء ، كما قال تعـالى : (ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) وقال تعالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ) وقال تعـالى : (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وقال تعالى : (وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ) ؛ بل على الناس أن يلتزموا الأصول الجامعة الكلية التى اتفق عليها سلف الأمة وأئمتها : فيؤمنون بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به رسوله : من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطـأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقـين لم يزل ذلك عنـه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة .

فصـــل

وأما تكفير قائل هذا القول فهو مبنى على أصل لا بد من التنبيه عليه ؛ فإنه بسبب عدم ضبطه اضطربت الأمة اضطراباً كثيراً فى تكفير أهل البدع والأهواء ، كما اضطربوا قديماً وحديثاً فى سلب الإيمان عن أهل الفجور والكبائر ، وصار كثير من أهـل البدع مثـل الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والجهمية ، والممثلة : يعتقدون اعتقاداً هو ضلال

يرونه هو الحق ، ويرون كفر من خالفهم فى ذلك ، فيصير فيهم شوب قوي من أهل الكتاب فى كفرهم بالحق وظلمهم للخلق ، ولعل أكثر هـؤلاء المكفرين يكفر بـ « المقالة » التى لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها .

وبإزاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة ، كما يجب ، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه ، وماعرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه ، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة ، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم ؛ بل لعلهم يذمون الكلام فى السنة وأصول الدين ذماً مطلقاً ؛ لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، وما يقوله أهل البدعة والفرقة ، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة ، كما يقر العلماء فى مواضع الاجتهاد التى يسوغ فيها النزاع ، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة ، وبعض المتفقهة ، والمتصوفة ، والمتفلسفة ، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام ، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة .

وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله ، والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل ، ويؤمن به ، ويبلغه ، ويدعو إليه ،

ويجاهد عليه ، ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال فى الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله ، غير متبعين لهوى : من عادة ، أو مذهب ، أو طريقة ، أو رئاسة ، أو سلف ؛ ولا متبعين لظن : من حديث ضعيف ، أو قياس فاسد — سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل — أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله ؛ فإن الله ذم فى كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى .

فصل

إذا تبين ذلك فاعلم أن « مسائل التكفير ، والتفسيق » هي من مسائل « الأسماء والأحكام » التى يتعلق بها الوعد والوعيد فى الدار الآخرة ، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك فى الدار الدنيا ؛ فإن الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين ، وحرم الجنة على الكافرين ، وهذا من الأحكام الكلية فى كل وقت ومكان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وقال تعالى — لما ذكر قول اليهود والنصارى — :

﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ . فأمر أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام ، وما فيه من الإثبات الباطل ، ثم قال : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين ، وعن المؤمنين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم أنه من جمع « الخصال الثلاث » التى هي جماع الصلاح وهي الإيمان بالخلق ، والبعث : بالمبدأ والمعاد ؛ الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح ؛ وهو أداء المأمور به ، وترك المنهي عنه . فإن له حصول الثواب وهو أجره عند ربه ، واندفاع العقاب . فلا خوف عليه مما أمامه ، ولا يحزن على ما وراءه ؛ ولذلك قال : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إخلاص الدين لله ، وهو عبادته وحده لا شريك له، وهو حقيقة قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو محسن .

فـ « الأول » وهو إسلام الوجه هو النية ، وهذا « الثاني » ــ وهو الإحسان ــ هو العمل . وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الإيمان العام ، والإسلام العام ، الذي أوجبه الله على جميع عباده ، من الأولين والآخرين .

وهو « دين الله العام » الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه بعث جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وقال تعالى لبني آدم جميعاً : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ ، وقال في الآية الأخرى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

فكان من أول البدع والتفرق الذي وقع في هذه الأمة « بدعة الخوارج » المكفرة بالذنب ، فإنهم تكلموا في الفاسق المليّ ، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة ، ومنهم من قال : والصغيرة لا تجامع الإيمان أبداً ، بل تنافيه وتفسده كما يفسد الأكل والشرب الصيام ، قالوا : لأن الإيمان هو فعل المأمور ، وترك المحظور ، فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات .

ثم قالت « الخوارج » : فيكون العاصي كافراً ؛ لأنه ليس إلا مؤمن وكافر ، ثم اعتقدوا أن عثمان وعليا وغيرهما عصوا ، ومن عصى فقد كفر فكفروا هذين الخليفتين وجمهور الأمة . وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين إنه يخرج من الإيمان ولا يدخل فى الكفر .

وقابلتهم « المرجئة » ، و « الجهمية » ومن اتبعهم من الأشعرية والكرامية . فقالوا : ليس من الإيمان فعل الأعمال الواجبة ، ولا ترك المحظورات البدنية ، والإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو شيء واحد ، يستوي فيه جميع المؤمنين : من الملائكة ، والنبيين ، والمقربين ، والمقتصدين ، والظالمين .

ثم قال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب واللسان ، وقال أكثر متكلميهم : هو التصديق بالقلب ، وقال بعضهم : التصديق باللسان . قالوا : لأنه لو دخلت فيه الواجبات العملية لخرج منه من لم يأت بها كما قالت الخوارج ، ونكتة هؤلاء جميعهم توهمهم أن من ترك بعض الإيمان فقد تركه كله .

وأما « أهل السنة والجماعة » من الصحابة جميعهم والتابعين ، وأئمة أهل السنة وأهل الحديث ، وجماهير الفقهاء والصوفية ، مثل مالك والثوري ، والأوزاعي ، وحماد بن زيد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل

وغيرهم . ومحققي أهل الكلام ، فاتفقوا على أن الإيمان والدين قول وعمل . هذا لفظ السلف من الصحابة وغيرهم ، وإن كان قد يعنى بالإيمان فى بعض المواضع ما يغاير العمل ؛ لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضاً في مسمى الدين ، والإيمان ، ويدخل في القول قول القلب واللسان ، وفى العمل عمل القلب والجوارح .

وقال المفسرون لمذهبهم : إن له أصولا وفروعا ، وهو مشتمل على أركان وواجبات ــ ليست بأركان ــ ومستحبات، بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرهما من العبادات ؛ فإن اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل وترك ، مثل الإحرام وترك محظوراته ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى ، والطواف ببيت الله الحرام ، وبين الجبلين المكتنفين به ، وهما الصفا والمروة .

ثم الحج مع هذا مشتمل على أركان متى تركت لم يصح الحج ، كالوقوف بعرفة . وعلى ترك محظور متى فعله فسد الحج ، وهو الوطء ، ومشتمل على واجبات : من فعل وترك ، يأثم بتركها عمدا ، ويجب مع تركها ــ لعذر أو غيره ــ الجبران بدم ، كالإحرام من المواقيت المكانية والجمع بين الليل والنهار بعرفة ، وكرمي الجمار ونحو ذلك ، وكترك اللباس المعتاد ، والتطيب والصيد وغير ذلك . ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها ؛ فلا يأثم بتركها ، ولا يجب دم ، مثل رفع الصوت بالإهلال والإكثار منه ، وسوق الهدي ،وذكر الله ،

ودعائه في الطواف ، والوقوف وغـــيرهما . وقلة الـكلام إلا في أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، أو ذكر الله تعالى ، فمن فعل الواجب ، وترك المحظور ، فقد أتم الحج والعمرة لله ، وهو مقتصد من أصحاب اليمين فى هذا العمل .

لكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم منه حجا ، وهو سابق مقرب ، ومن ترك المأمور ، وفعل المحظور ، لكنه أتى بركنه ، وترك مفسده فهو حاج حجا ناقصا ، يثاب على ما فعله من الحج ، ويعاقب على ما تركه ، وقد سقط عنه أصل الفرض بذلك ، مع عقوبته على ما تركه، ومن أخل بركن الحج أو فعل مفسده فحجه فاسد لا يسقط به فرض؛ بل عليه إعادته ، مع أنه قد يتنازع في إثابته على ما فعله ، وإن لم يسقط به الفرض ، والأشبه أنه يثاب عليه .

فصار « الحج ثلاثة أقسام » كاملا بالمستحبات ، وتاما بالواجبات فقط ، وناقصاعن الواجب .

والفقهاء يقسمون الوضوء والغسل إلى كامل ومجزئ ؛ لـكن يريدون بالـكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه ، وبالمجزئ ما اقتصر على واجبه . فهذا فى « الأعمال المشروعة » . وكذلك في « الأعيان المشهودة » فإن الشجرة مثلا اسم لمجموع الجذع والورق والأغصان ، وهي بعد ذهاب الورق

شجرة ، وبعد ذهاب الأغصان شجرة ؛ لكن كاملة وناقصة ، فليفعل مثل ذلك في مسمى الإيمان والدين ، أن « الإيمان ثلاث درجات » : إيمان السابقين المقربين . وهو ما أتى فيه بالواجبات والمستحبات : من فعل وترك . وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين . وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك . وإيمان الظالمين . وهو ما يترك فيه بعض الواجبات ، أو يفعل فيه بعض المحظورات .

ولهذا قال علماء السنة فى وصفهم « اعتقاد أهل السنة والجماعة » : إنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ، إشارة إلى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوب ، فأما أصل الإيمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقاً به وانقياداً له ؛ فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن ؛ ولهذا تواتر فى الأحاديث « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » « مثقال حبة من إيمان » . وفي رواية الصحيح أيضاً « مثقال حبة من خير » « مثقال ذرة من خير » وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة « الإيمان بضع وستون — أو بضعة وستون ، أو بضع وسبعون شعبة — أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة ، وأن قليله يخرج الله به من النار من دخلها ، ليس هو كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل

السنة : إنه لا يقبل التبعيض والتجزئة ؛ بل هو شيء واحد : إما أن يحصل كله ، أو لا يحصل منه شيء .

ومما يتصل به أن يعرف أن الإيمان هو من الأسماء الكتابية ، القرآنية ، النبوية ، الدينية ، الشرعية ؛ فيتنوع مسماها قدراً ووصفاً بتنوع الكتب الإلهية ؛ فمنه ما هو متفق عليه بين جميع المؤمنين ، من الأولين والآخرين ، وجميع الكتب الإلهية : مثل الإقرار بالله ، واليوم الآخر ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل . واعلم أن عامة السور المكية التى أنزلها الله بمكة هي فى هذا الإيمان العام المشترك بين الأنبياء جميعهم ، والمؤمنين جميعهم . وهذا القدر المشترك هو فى بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً ، فإن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أسماء الله وصفاته ، ووصف اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء .

ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج ، كالقبلة والمنسك ، ومقادير العبادات ، وأوقاتها وصفاتها ، والسنن والأحكام وغير ذلك ، فمسمى الإيمان والدين فى أول الإسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة ؛ بل مسماه فى الآخر أكمل ، كما قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وقال في السورة : (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ) ؛ ولهذا قال الإمام أحمد كان بدء الإيمان فى أول الإسلام ناقصاً فجعل يتم ، وهكذا

مسمى الإيمان والدين ، قد شرع فى حق الأشخاص بحسب ما أمر الله به كلا منهم ، وبحسب ما فعله مما أمر الله به .

ولهذا كان المؤمنون من الأولين والآخرين ؛ من الذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ مشتركين فى الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، كما دل عليه القرآن .

مع أن اليهود كان يجب عليهم الإقرار بما لا يجب علينا الإقرار به ؛ مثل إقرارهم بواجبات التوراة ، ومحرماتها ، مثل السبت ، وشحم الثرب والكليتين . ولا يجب عليهم التصديق المفصل بما لم ينزل عليهم من أسماء الله وصفاته ، وصفات اليوم الآخر . ونحن يجب علينا من الإيمان بذلك ما لم يجب عليهم ، ويجب علينا من الإقرار بالصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، وحج البيت ، وغير ذلك مما هو داخل فى إيماننا وليس داخلا فى إيمانهم ؛ فإن الإقرار بهذه الأشياء داخل فى الإيمان باتفاق الأمة . وكذلك الإقرار بأعيان الأنبياء كان الإقرار بأعيانهم داخلا فى إيمان من قبلنا ، ونحن إنما يدخل فى إيماننا الإقرار بهم من حيث الجملة .

والمنازعون لأهل السنة منهم من يقول : الإيمان فى الشرع مبقى على ما كان عليه فى اللغة ، وهو التصديق . ومنهم من يقول : هو

منقول إلى معنى آخر . وهو أداء الواجبات .

وأما أهل السنة فقد يقول بعضهم : هو منقول كالأسماء الشرعية : من الصلاة ، والزكاة . وقد يقول بعضهم : بل هو متروك على ما كان وزادت عليه الشريعة أشياء . ومنهم من يقول : بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه ، فإن الأعمال داخلة فى التصديق ، فالمؤمن يصدق قوله بعمله ، كما قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ؛ ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . ومنهم من يقول : ليس الإيمان فى اللغة هو التصديق ؛ بل هو الإقرار ، وهو فى الشرع الإقرار أيضاً ، والإقرار يتناول القول والعمل .

وليس هذا موضع بسط ذلك ، فقد بسطته في غير هذا الموضع .

وإذا عرف مسمى الإيمان ، فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار ، وذم من ترك بعضه ونحو ذلك — يراد به الإيمان الواجب ، كقوله : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) وقوله (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا) الآية . وقوله : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟

مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ)
وقوله فى الجنة : (أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ) .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فنفى عنه الإيمان الواجب الذي يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الإيمان ، وسائر أجزائه وشعبه . وهذا معنى قولهم : نفي كمال الإيمان لا حقيقته ، أي الكمال الواجب ، ليس هو الكمال المستحب ، المذكور فى قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزئ .

ومن هذا الباب : قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا » ليس المراد به أنه كافر . كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا . كما تأولته المرجئة ؛ ولكن المضمر يطابق المظهر ، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا لأنه متعرض لسخط الله وعذابه .

وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه ، إما لعدم تمكنه من العلم : مثل أن لا تبلغه الرسالة ، أو لعدم تمكنه من العمل ، لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الإيمان

والدين الواجب فى حقه ، وإن كان من الدين والإيمان الواجب فى الأصل ؛ بمنزلة صلاة المريض ، والخائف والمستحاضة وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه ، وبه أمروا إذ ذاك ، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » رواه مسلم عن أبى هريرة فى حديث حسن السياق . وقوله : « صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد » ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الإيمان به ، علماً واعتقاداً دون العمل .

فصل

فهذا أصل مختصر في « مسألة الأسماء » ، وأما « مسألة الأحكام » وحكمه في الدار الآخرة فالذي عليه الصحابة ومن اتبعهم بإحسان ، وسائر أهل السنة والجماعة . أنه لا يخلد فى النار من معه شيء من الإيمان ؛ بل يخرج منها من معه مثقال حبة ، أو مثقال ذرة من إيمان .

وأما « الخوارج » ومن وافقهم من المعتزلة فيوجبون خلود من

دخل النار ، وعندهم من دخلها خلد فيها ، ولا يجتمع فى حق الشخص الواحد العذاب والثواب ، وأهـل السنة والجماعـة ، وسائر مـن اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين ، فى حق خلق كثير . كما جاءت به السنن المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

و « أيضاً » : فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العـذاب فى حق كل من أتى كبيرة ، ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها ؛ بل يجوز عندهم أن صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب إما لحسنات تمحو كبيرته منه أو من غيره ؛ وإما لمصائب كفرتها عنه ، وإما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه ، وإما لغير ذلك .

و « الوعيدية » من الخوارج والمعتزلة : يوجبون العـذاب فى حق أهل الكبائر ؛ لشمول نصوص الوعيد لهم . مثـل قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) ، وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد « الأصول الخمسـة » التى يكفرون من خالفها ، ويخالفون أهل السنة والجماعـة فى وجوب نفوذ الوعيد فيهم ، وفى تخليدهم ؛ ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لنبينا صلى الله عليه وسـلم شفاعة فى أهل الكبائر – فى إخراج أهل الكبائر من النار . وهذا مردود بما تواتر عنه من السنن فى ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم :

« شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » وأحاديثه فى إخراجه من النار من قد دخلها .

وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول ، وإنما الغرض التنبيه عليها ، وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فرأوها عامة ، فقالوا : يجب أن يدخل فيها كل من شملته ، وهو خبر ، وخبر الله صدق ، فلو أخلف وعيده كان كإخلاف وعده ، والكذب على الله محال ، فعارضهم غالية المرجئة بنصوص الوعد ، فإنها قد تتناول كثيراً من أهل الكبائر ، فعاد كل فريق إلى أصله الفاسد .

فقال الأولون : نصوص الوعد لا تتناول إلا مؤمنا ، وهؤلاء ليسوا مؤمنين . وقال الآخرون : نصوص الوعيد لا تتناول إلا كافراً ، وكل من القولين خطأ · فإن النصوص ــ مثل قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا) ــ لم يشترط فيها الكفر ؛ بل هى فى حق المتدين بالإسلام . وقوله : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » لم يشترط فيه فعل الواجبات ؛ بل قد ثبت فى الصحاح « وإن زنى ، وإن سرق ، وإن شرب الخمر » .

فهنا اضطرب الناس ، فأنكر قوم من المرجئة العموم ، وقالوا : ليس فى اللغة عموم ، وهم الواقفية في العموم من المرجئة ، وبعض

الأشعرية والشيعية ، وإنما التزموا ذلك لئـلا يدخل جميع المؤمنين فى نصوص الوعيد .

وقالت المقتصدة : بل العموم صحيـح ، والصيغ صيغ عموم ؛ لكن العام يقبل التخصيص ؛ وهـذا مذهب جميـع الخلائق ، من الأولين والآخرين ، إلا هذه الشرذمة . قالوا : فمن عفى عنـه كان مستثنى من العموم . وقال قوم آخرون : بل إخلاف الوعيـد ليس بكذب ، وإن العرب لا تعد عاراً أو شناراً أن يوعد الرجل شراً ثم لا ينجزه ، كما تعد عاراً أو شناراً أن يعد خيراً ثم لا ينجزه ، وهـذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم :

نبئت أن رسول الله أوعـدني

والعفو عنـد رسول الله مأمول

قالوا : فهذا وعيد خاص ، وقـد رجا فيـه العفو ، مخاطباً للنبي صلى الله عليـه وسلم ؛ فعلم أن العفو عن المتوعد جائز ، وإن لم يكن من باب تخصيص العام .

والتحقيق أن يقـال : الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد

والوعيد ، كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي ، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه ، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط ؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله ، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة ؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، فكذلك فى موارد النزاع .

فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأنه يجيب دعوة الداعى إذا دعاه، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وأنه يقبل شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وأنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، كما بين أن الصدقة يبطلها المن والأذى ، وأن الربا يبطل العمل ، وأنه إنما يتقبل الله من المتقين ؛ أي فى ذلك العمل ونحو ذلك .

فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها ، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة .

وبهذا تبين أنا نشهد بأن ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ على الإطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه فى النار؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع فى حقه، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه، وانتفاء مانعه.

يبين هذا: أنه قد ثبت: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها». وثبت عنه فى صحيح البخاري عن عمر أن رجلا كان يكثر شرب الخمر، فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله» فنهى عن لعن هذا المعين، وهو مدمن خمر؛ لأنه يحب الله ورسوله، وقد لعن شارب الخمر على العموم.

فصل

إذا ظهرت هذه المقدمات فى اسم المؤمن والكافر، والفاسق الملي وفى حكم الوعد والوعيد، والفرق بين المطلق والمعين، وما وقع فى

ذلك مـن الاضطراب . فـ « مسـألة تكفـير أهـل البدع والأهواء » متفرعة على هذا الأصل .

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة . فنقول :

المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن ؛ فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع ، ففيه جحود الرب ، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله ؛ ولهـذا قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وقال غير واحد من الأئمة إنهـم أكفر من اليهود والنصارى ، يعنون من هذه الجهة ، ولهذا كفروا مـن يقول : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يرى فى الآخرة ، وإن الله ليس على العرش ، وإن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا رحمة ، ولا غضب ، ونحو ذلك من صفاته .

وأما « المرجئة » : فلا تختلف نصوصه أنه لا يـكفرهم ؛ فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء فى الفروع ، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء ؛ ولهـذا يسمى الـكلام فى مسائلهم « باب الأسماء » وهذا من نزاع الفقهـاء ، لكن يتعلق بأصل

الدين ؛ فكان المنازع فيه مبتدعاً .

وكذلك « الشيعة » المفضلون لعلي على أبي بكر ، لا يختلف قوله إنهم لا يكفرون ؛ فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً ، وإن كانوا يبدعون .

وأما « القدرية » المقرون بالعلم ، و « الروافض » الذين ليسوا من الغالية ، والجهمية ، والخوارج : فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق ، مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم ، والخوارج ، مع قوله : ما أعلم قوماً شراً من الخوارج .

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين ، حتى يجعلوا المرجئة داخلين فى ذلك ، وليس الأمر كذلك وعنه فى تكفير من لا يكفِّر روايتان ، أصحهما لا يكفر . وربما جعل بعضهم الخلاف فى تكفير من لا يكفِّر مطلقاً ، وهو خطأ محض . والجهمية ــ عند كثير من السلف : مثل عبد الله بن المبارك ، ويوسف ابن أسباط ، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم ــ ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، التى افترقت عليها هذه الأمة ؛ بل أصول هذه عند هؤلاء : هم الخوارج والشيعة ، والمرجئة والقدرية ، وهذا المأثور

عن أحمد ، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة ، والحديث أنهم كانوا يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : إن الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر ، ونحو ذلك .

ثم حكى أبو نصر السجزي عنهم فى هذا قولين : « أحدهما » أنه كفر ينقل عن الملة . قال : وهو قول الأكثرين . و « الثاني » أنه كفر لا ينقل . ولذلك قال الخطابي : إن هذا قالوه على سبيل التغليظ ، وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا فى تخليد المكفر من هؤلاء ؛ فأطلق أكثرهم عليه التخليد ، كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث ؛ كأبي حاتم ، وأبي زرعة وغيرهم ، وامتنع بعضهم من القول بالتخليد .

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة ، فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ، ثم إنهم يرون من الأعيان ، الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافراً ، فيتعارض عندهم الدليلان ، وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم فى كلام الأئمة ما أصاب الأولين فى ألفاظ العموم فى نصوص الشارع ، كلما رأوهم قالوا : من قال كذا فهو كافر ، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله ، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين ، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين ،

إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة : الذين أطلقوا هـذه العمومات ، لم يكفروا أكثر مـن تـكلم بهذا الـكلام بعينه .

فإن الإمام أحمد ــ مثـلا ــ قد باشر « الجهمية » الذين دعوه إلى خلق القرآن ، ونفي الصفات ، وامتحنوه وسائر علماء وقته ، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس ، والقتل والعزل عن الولايات ، وقطع الأرزاق ، ورد الشهادة ، وترك تخليصهم من أيدي العدو ، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم : يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات ، مثل القول بخلق القرآن ، ويحكمون فيـه بحكمهم في الـكافر ، فلا يولونه ولاية ، ولا يفتكونه من عدو ، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال ، ولا يقبلون له شهادة ، ولا فتيا ، ولا رواية ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة ، والافتكاك مـن الأسر وغير ذلك . فمن أقر بخـلق القرآن حكموا له بالإيمـان ، ومـن لم يقر به لم يحكموا له بحكـم أهـل الإيمان ، ومـن كان داعياً إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه .

ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم ، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من

قولها ، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها ، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب .

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره . ممن ضربه وحبسه ، واستغفر لهم ، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم ؛ فإن الاستغفار للكفار لايجوز بالكتاب والسنة والإجماع ، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية ، الذين كانوا يقولون : القرآن مخلوق ، وإن الله لا يرى فى الآخرة ، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قوماً معينين فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر ، أو يحمل الأمر على التفصيل . فيقال : من كفره بعينه ؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير ، وانتفت موانعه ، ومن لم يكفره بعينه ؛ فلانتفاء ذلك في حقه ، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم .

والدليل على هذا الأصل : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والاعتبار .

أما الكتاب : فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى قال : قد فعلت » لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء . وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » و « أنه لم يقرأ بحرف منها إلا أعطيه » .

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان فهذا عام عموما محفوظاً ، وليس فى الدلالة الشرعية مايوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه ، وأن عذب المخطئ من غير هذه الأمة .

و « أيضاً » قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن رجلا لم يعمل خيراً قط فقال لأهله : إذا مات فأحرقوه ، ثم اذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه،وأمر البحر فجمع ما فيه، فإذا هو قائم بين يديه . ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم ؛ فغفر الله له ».

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد ، وحذيفة وعقبة بن عمرو ، وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، يعلم أهل الحديث أنها تفيدهم العلم اليقيني ، وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ممن لم يشركهم فى أسباب العلم . فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل فى قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم ، بعد ما أحرق وذري ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك ، وهذان أصلان عظيمان :

« أحدهما » متعلق بالله تعالى ، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير .

و « الثاني » متعلق باليوم الآخر . وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ، ويجزيه على أعماله ، ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة ، ومؤمناً باليوم الآخر فى الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، وقد عمل عملا صالحاً — وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه — غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله ، واليوم الآخر والعمل الصالح .

وأيضاً : فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان »

وفي رواية : « مثقال دينار من خير ، ثم يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » وفى رواية « من خير » « ويخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، أو خير » وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يدل أنه لا يخلد فى النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلا ، وأن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ . ومعلوم قطعاً أن كثيراً من هؤلاء المخطئين معهم مقدار مّا من الإيمان بالله ورسوله ، إذ الكلام فيمن يكون كذلك .

وأيضاً فإن السلف أخطأ كثير منهم فى كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه ، ولبعضهم في الخلافة ، والتفضيل كلام معروف ، وكذلك لبعضهم فى قتال بعض ، ولعن بعض ، وإطلاق تكفير بعض ، أقوال معروفة .

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ : (بل عجبتُ) ويقول : إن الله لا يعجب ؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال : إنما شريح شاعر يعجبه علمه . كان عبد الله أفقه منه ، فكان يقول : (بل عجبتُ) فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة ، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة ، وكذلك بعض السلف أنكر

بعضهم حروف القرآن ، مثل إنكار بعضهم قوله : (أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) وقال : إنما هي : أو لم يتبين الذين آمنوا ، وإنكار الآخر قراءة قوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) وقال : إنما هي : ووصى ربك . وبعضهم كان حذف المعوذتين ، وآخر يكتب سورة القنوت . وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر ، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا ، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر .

وأيضاً فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد إبلاغ الرسالة ، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً ، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية .

وذلك مثل قوله تعالى : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) وقوله : (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى) الآية . وقوله : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ) وقولهم : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ) الآية . وقوله : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقوله : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) وقوله : (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا

وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ)

وقوله : (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

وقوله : (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

ونحو هذا فى القرآن فى مواضع متعددة .

فمن كان قد آمن بالله ورسوله ، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول ، فلم يؤمن به تفصيلا ؛ إما أنه لم يسمعه . أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها ، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به . فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه ، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التى يكفر مخالفها .

وأيضاً فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ فى الدين مالا يكفر مخالفه ؛ بل ولا يفسق ؛ بل ولا يأثم ؛ مثل الخطأ فى الفروع العملية ؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم ، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب ، فهذان القولان شاذان ، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها ، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع

فيها بالنصوص والإجماع القديم ، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا ، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر ، واستحلال آخرين للقتال فى الفتنة .

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير ، كالصحابة المعروفين ، وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين ، لا يفسق أحد منهم ، فضلا عن أن يكفر ، حتى عدى ذلك من عداه من الفقهاء إلى سائر أهل البغي ، فإنهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل ، كما يقول هؤلاء الأئمة : إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولا لا يجلد ولا يفسق . وقد قال تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

وثبت فى الصحاح من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وثبت فى الصحيح عن بريدة ابن الحصيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك ، فإنك لاتدري ما حكم الله فيهم »

وأدلة هذا الأصل كثيرة لها موضع آخر .

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن به فهو كافر ، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد ، لظهور أدلة الرسالة ، وأعلام النبوة ؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي ، فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر ، والواجبات تنقسم إلى أركان وواجبات ليست أركاناً : فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة ، وإذا كان كذلك فالمخطئ فى بعض هذه المسائل : إما أن يلحق بالكفار ، من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم فى عامة أصول الإيمان . وإما أن يلحق بالمخطئين فى مسائل الإيجاب والتحريم ، مع أنها أيضا من أصول الإيمان .

فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة : هو من أعظم أصول الإيمان ، وقواعد الدين والجاحد لها كافر بالاتفاق ، مع أن المجتهد فى بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه .

وإذا كان لابد من إلحاقه بأحد الصنفين : فمعلوم أن المخطئين من المؤمنين بالله ورسوله ، أشد شبها منه بالمشركين وأهل الكتاب ،

فوجب أن يلحق بهم ، وعلى هذا مضى عمل الأمة قديماً وحديثاً ، في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام التى تجري على غيرهم ، هذا مع العلم بأن كثيراً من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر ، وأولئك كفار فى الدرك الأسفل من النار ، فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون ، بل أصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ، ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، فهؤلاء كفار فى الباطن ، ومن علم حاله فهو كافر فى الظاهر أيضاً .

وأصل ضلال هؤلاء الإعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة ، وابتغاء الهدى في خلاف ذلك ، فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه ، مثل من يرى أن الرسالة للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، وغالية المتكلمة والمتصوفة ، أو يرى أنه رسول إلى بعض الناس دون بعض ، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى .

فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين :

« أحدهما » أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يرى فى الآخرة ، أو أنه على العرش ، أو أن القرآن كلامه ، أو

أنه كلم موسى ، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلا كفر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث .

و « الأصل الثانى » أن التكفير العام — كالوعيد العام — يجب القول بإطلاقه وعمومه .

وأما الحكم على المعين بأنه كافر ، أو مشهود له بالنار : فهذا يقف على الدليل المعين ، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه ، وانتفاء موانعه .

ومما ينبغي أن يعلم فى هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا ؛ إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ، ويكون في الآخرة غير معذب ، مثل قتال البغاة والمتأولين ، مع بقائهم على العدالة ، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة ، فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي صلى الله عليه وسلم على ماعز ابن مالك ، وعلى الغامدية ، مع قوله : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولا ، مع العلم بأنه باق على العدالة .

بخلاف من لا تأويل له ، فإنه لما شرب الخمر بعض الصحابة

واعتقدوا أنها تحل للخاصة تأول قوله : (لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟) اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبى طالب وغيرهما ، على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على الاستحلال قتلوا .

وكذلك نعلم أن خلقاً لا يعاقبون فى الدنيا مع أنهم كفار فى الآخرة ، مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم . ومثل المنافقين المظهرين الإسلام ، فإنهم تجري عليهم أحكام الإسلام ، وهم فى الآخرة كافرون ، كما دل عليه القرآن فى آيات متعددة ، كقوله : (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) الآية . وقوله : (يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) الآية .

وهذا لأن الجزاء فى الحقيقة إنما هو فى الدار الآخرة ، التى هي دار الثواب والعقاب . وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع

به الظلم والعدوان ، كما قال تعالى : (وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، هو إقامة القسط ، كما قال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) .

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ، ولا بالعكس . ولهذا أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة ، الذي يضل الناس لأجل إفساده فى الدين ، سواء قالوا : هو كافر ، أو ليس بكافر .

وإذا عرف هذا فتكفير « المعين » من هؤلاء الجهال وأمثالهم — بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار — لا يجوز الإقدام عليه ، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية ، التى يتبين بها أنهم مخالفون للرسل ، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر .

وهكذا الكلام فى تكفير جميع « المعينين » مع أن بعض هذه

البدعة أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيــه من الإيمان ما ليس في بعض ، فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة .

ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة .

وهذا الجواب لا يحتمل أكثر من هذا . والله المسؤول أن يوفقنا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه ، والله سبحانه أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

فى رجل قال : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، وإنما خلق الكلام والصوت فى الشجرة ، وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من الله ، وأن الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه من اللوح المحفوظ . فهل هو على الصواب أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس هذا على الصواب ؛ بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الأمة وأئمتها ؛ بل هو كافر يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وإذا قال : لا أكذب بلفظ القرآن — وهو قوله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ — بل أقر بأن هذا اللفظ حق ، لكن أنفي معناه وحقيقته ؛ فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع ، حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة .

وأول من قال هذه المقالة فى الإسلام كان يقال له الجعد بن درهم ،

فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم أضحى ؛ فإنه خطب الناس فقال فى خطبته : ضحوا أيها الناس ! تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . وكان ذلك فى زمن التابعين فشكروا ذلك ، وأخذ هذه المقالة عنه جهم ابن صفوان ، وقتله بخراسان سلمة بن أحوز ، وإليه نسبت هذه المقالة التى تسمى « مقالة الجهمية » وهي نفي صفات الله تعالى ، فإنهم يقولون: إن الله لا يرى فى الآخرة ، ولا يكلم عباده ، وأنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك « المعتزلة » أصحاب عمرو بن عبيد ، وضموا إليها بدعا أخرى فى القدر وغيره ؛ لكن المعتزلة يقولون إن الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة ؛ لكن حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاما فى غيره ، إما فى شجرة وإما فى هواء ، وإما في غير ذلك ، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ، ولا قدرة ولا رحمة ، ولا مشيئة ولا حياة ، ولا شيء من الصفات .

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول ، فيقولون : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولا يتكلم . وتارة لا يظهرون هذا اللفظ ؛ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود والنصارى ، فيقرون باللفظ ،

ولكن يقرنونه بأنه خلق فى غيره كلاما .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ماجاء بــه الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة ، من أن الله كلــم موسى تكليما ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، كما تواترت به الأحاديث عن النبي صــلى الله عليــه وســلم ، وأن لله علمــاً وقدرة ونحو ذلك .

ونصوص الأئمة فى ذلك مشهورة متواترة ، حتى أن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه فى « شرح أصول السنة » مقالات السلف والأئمة فى الأصول : ذكر من قال : القرآن كلام الله غير مخــلوق . وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسا أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم ، وتدينوا بمذاهبهم . ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوفا : لكني اختصرت فنقلت عــن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر ، ومن أنــكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه ، قال : ولا خلاف بين الأمــة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائــة ، ثم جهم بن صفوان ، فأما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري . وأما جهم فقتل بمرو فى خلافة هشام بن عبد الملك .

وروى بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين : حكمت رجلين ؟ فقال : ما حكمت مخلوقا ما حكمت إلا القرآن ، وعن عكرمة قال كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت فى لحده قام رجل وقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال : مه ؟ ! القرآن منه . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين . وهذا ثابت عن ابن مسعود ، وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول: أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود ، وفي لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال حرب الكرماني ثنا إسحق بن إبراهيم يعنى ابن راهويه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة أدركت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فمن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فإنه كلام الله ، منه خرج وإليه يعود .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة إسحق ، وإسحق إما أن يكون سمعه منه أو من بعض أصحابه عنه ، وعن جعفر بن محمد الصادق — وهو مشهور عنه — أنهم سألوه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق ؟ فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله .

وهكذا روى عن الحسن البصري ، وأيوب السختيانى ، وسليمان

التيمي ، وخلق من التابعين . وعن مالك بن أنس ، والليث بن سعد وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، واسحق بن راهويه ، وأمثال هؤلاء من الأئمة ، وكلام هؤلاء الأئمة وأتباعهم في ذلك كثير مشهور ، بل اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال : القرآن مخلوق ، وأنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ، ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد — وكان من أصحاب ضرار بن عمرو ممن يقول : القرآن مخلوق ، فلما ناظر الشافعي ، وقال له : القرآن مخلوق ، قال له الشافعي — كفرت بالله العظيم : ذكره ابن أبي حاتم فى الرد على الجهمية ، قال : كان في كتابى عن الربيع بن سليمان قال : حضرت الشافعي ، أو حدثني أبو شعيب ، إلا أنى أعلم أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم ، ويوسف بن عمرو بن يزيد ، فسأل حفص عبد الله قال : ما تقول فى القرآن ؟ فأبى أن يجيبه ، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه ، وكلاهما أشار إلى الشافعي فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة ، فقام الشافعي بالحجة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكفر حفصا الفرد . قال الربيع : فلقيت حفصا فى المسجد بعد هذا فقال : أراد الشافعي قتلي .

وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق واستتابته ، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي فى الاعتقاد الذي قال فى أوله : « ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة » : أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه : « وإن القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولا ، وأنزله على نبيه وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا ، وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال : (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) فلما أوعد الله سقر لمن قال : (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر » .

وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر ، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية ، فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى ، وحقائق أسمائه ، وأن القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس إلى ذلك ، وعاقبوا من لم يجبهم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية ، وإما بالحبس أو بالضرب ، وكفروا من خالفهم ، فثبت الله تعالى الإمام أحمد حتى أخمد الله به باطلهم ، ونصر أهل الإيمان والسنة عليهم ، وأذلهم بعد العز ، وأخملهم بعد الشهرة ، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام

الله غير مخلوق ، وإطلاق القول أن من قال إنه مخلوق فقد كفر .

وأما إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن ، فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، فإنه أنكر نص القرآن ، وبذلك أفتى الأئمة والسلف فى مثله ، والذي يقول القرآن مخلوق هو فى المعنى موافق له ، فلذلك كفره السلف .

قال البخاري فى كتاب « خلق الأفعال » قال سفيان الثوري : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قال : وقال عبد الله بن المبارك : من قال (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) مخلوق ، فهو كافر ، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك ، قال وقال ابن المبارك : لا نقول كما قالت الجهمية إنه فى الأرض ههنا ، بل على العرش استوى ، وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

وقال : من قال « لا إله إلا الله » مخلوق فهو كافر ، وانا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . قال وقال علي بن عاصم : ما الذين قالوا إن لله ولداً أكفر من الذين قالوا إن الله لا يتكلم .

قال البخاري : وكان إسماعيل بن أبي إدريس يسميهم زنادقة العراق ،

وقيل له : سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق ؟ فقال : هؤلاء الزنادقة . قال : وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد ـــ وذكر له أن قوماً يقولون القرآن مخلوق ـــ فقال كيف يصنعون بـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) كيف يصنعون بقوله : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) ؟ قال : وقال أبو عبيد القاسم بن سلام نظرت فى كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوماً أضل فى كفرهم منهم ، وإنى لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم . قال : وقال سليمان بن داود الهاشمي : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعموا فلم صار فرعون أولى بان يخلد فى النار إذ قال (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) ؟ وزعموا أن هـذا مخلوق والذي قال : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي) هذا أيضاً قد ادعى ما ادعى فرعون ، فلم صار فرعون أولى أن يخلد فى النار من هذا ؟ وكلاهما عنده مخلوق . فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم : أن من قال إن كلام الله مخلوق خلقه فى الشجرة أو غيرها ـــ كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول عنه ـــ كان حقيقة قوله : إن الشجرة هي التى قالت لموسى (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي) ومن قال : هذا مخلوق قال ذلك . فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) كلاهما مخلوق وكلاهما قال ذلك . فإن كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر .

ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون ؛ وإن كانوا لايفهمون ذلك ؛ فإن فرعون كذب موسى فيما أخبر به : من أن ربه هو الأعلى وأنه كلمه كما قال تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا) وهو قد كذب موسى فى أن الله كلمه .

ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاماً فى غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة :

(أحدها) أن الله سبحانه أنطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجا عن المعتاد ، قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ) وقال تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ) وقال تعالى : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وقد قال تعالى : (إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ) ، و قد ثبت أن الحصى كان يسبح في يد النبي صلى الله عليه وسلم ،وأن الحجر كان يسلم عليه وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات ؛ فلو كان إذا خلق كلاما في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى ، ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران ، بل قد ثبت أن الله خالق

أفعال العباد . فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلما بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم . وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون : إن كلام الآدميين غير مخلوق ؛ فإن كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقا وأن الجميع كلام الله ، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية .

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلط الله أعداء الدين فإن الله يقول (وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ) ، وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته ؟ وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته ؟

(الوجه الثاني) أن يقال لهؤلاء الضالين : ما خلقه الله في غيره

من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره فإذا خلق الله فى بعض الأجسام حركة أو طعما أو لوناً أو ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم ، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاما كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم . فاذا خلق كلاما في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام ، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً ، ولا يكون الله هو المتكلم به ، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصراً كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به ، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة ، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه فى غيره من الحركات ، ولا المصوت بما خلقه فى غيره من الأصوات ، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه فى غيره من السمع والبصر والقدرة ، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه فى غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام .

(الوجه الثالث) أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى ، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التى هي مشتقة منه ، والناس

متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام ، فلا يكون مريد إلا بإرادة ، وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر ، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة ، وبالمتحرك من قامت به الحركة ، وبالعالم من قام به العلم ، وبالقادر من قامت به القدرة . فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة . والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته . وهذا كما أنه ثابت فى الأسماء المشتقة ، فكذلك في الأفعال : مثل تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك ، سواء قيل : إن الفعل المشتق من المصدر ، أو المصدر مشتق من الفعل ، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر . فإذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم ، وكذلك التعلم والتكلم ، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم فإذا قيل : تكلم فلان أو كلم فلان فلاناً ففلان هو المتكلم والمكلم ، فقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

تَكْلِيمًا) وقوله : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ) وقوله : (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ) يقتضي أن الله هـو المتكلم ، فكما يمتنع أن يقـال : هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره .

فهذه خمسة أوجه :

(أحدها) أنه يلزم الجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلاماً له ؛ إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقـه ، وكل من فعل كلاماً ولو فى غيره كان متكلماً به عندهم ، وليس للـكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول «قائماً» يدل لكونه خلق صوتاً فى محل والدليل يجب طرده فيجب أن يـكون كل صوت يخـلقه له كذلك ، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات ، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام .

(الثاني) أن الصفة إذا قامت بمحل كالعـلم والقدرة والـكلام والحركة عاد حكمها إلى ذلك المحل ولا يعود حكمها إلى غيره .

(الثالث) أن يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به

ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره . وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة أن من قال إن الله خلق كلاماً فى غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً إلى ذلك المحل لا إلى الله .

(الرابع) أن الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال (تَكۡلِيمًا) قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفي المجاز ، لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولا أو كتب إليه كتاباً بل كلمه منه إليه .

(والخامس) أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا) الآية ، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب ، وقال : (يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي)وقال (إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ — إلى قوله تعالى — وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا)والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة ، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه ؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة . وموسى إنما عرفه بواسطة ، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى ابن عمران ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضي تعطيل الرسالة فإن الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله ؛ بل يقتضي تعطيل التوحيد ، فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها فى الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول « المتفلسفة الدهرية » الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق لا صفة له . وقد علم أن المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا في الذهن . وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ويقولون إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال ، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء ، وحقيقة قولهم : إن القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة . وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء ؟!

وكلام السلف والأئمة فى مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن إسماعيل الكرماني : سمعت إسحاق بن راهويه يقول : ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق ، وكيف يكون شيء من الرب عز ذكره مخلوقا ؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا: علم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة . فإن قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله

ـ تبارك اسمه ـ ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة ، وهو الكفر المحض الواضح ؛ لم يزل الله عالماً متكلما له المشيئة والقـدرة في خلقه ، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر .

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقـد زعم أن شيئاً من الله مخلوق . فقيل له : من أين قلت هـذا ؟ قال لأن الله يقول (وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي) ولا يكون من الله شيء مخلوق . وهذا القول قاله غير واحد من السلف .

وقال أحمد بن حنبل : كلام الله من الله ليس ببائن منه ، وهذا معنى قول السلف : القرآن كلام الله منه بدأ ومنه خرج وإليه يعود كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعني القرآن وقد روي أيضاً عن أبي أمـامة مرفوعا . وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلمة الكذاب لما سمع قرآن مسيلمة « ويحـكم ! أين يذهب بعقولـكم ؟ إن هـذا كلام لم يخرج من إل » أي من رب .

وليس معنى قول السلف والأئمة : إنه منه خرج ومنـه بدأ ، أنه فارق ذاته وحـل بغيره فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفـارق ذاته

ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم .

و « أيضاً » فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) وقال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم »

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله فى غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله ، كما يقولون : كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة أن القرآن من الله بدأ وخرج ، وذكروا قوله (وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات .

و « من » هي لابتداء الغاية ، فإن كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم

يكن صفة لله كقوله : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) وقوله فى المسيح : (وَرُوحٌ مِّنْهُ) وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله : (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ) .

وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله (وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي) . وكذلك قد أخبر فى غير موضع من القرآن أن القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول : إنه لم ينزل منه ، قال تعالى : (أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وروح القدس هو جبريل ، كما قال فى الآية الأخرى (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ) وقال (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وقال هنا (نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ) فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ) وقوله (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ) وقوله (حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) وقوله (الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) .

فقد بين فى غير موضع أنه منزل من الله ، فمن قال : إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله ، مكذب لكتاب الله ، متبع لغير سبيل المؤمنين ، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال : (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) ؟ فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء ، والقرآن أخبر أنه منزل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله (وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ) لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان ؛ فإن الذكر ينزل الماء في الإناث . فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد ، لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة . فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التى كتبها الله ، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح ، فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل ، وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية ، والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة ، وفرقه عليهم لأجل ذلك . فقال : (وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا) وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا) .

ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل ، وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله ، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به . وهذا خلاف دين المسلمين .

وإن احتج محتج بقوله : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ) قيل له فقد قال في الآية الأخرى : (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ) فالرسول في هذه الآية محمد صلى الله عليه وسلم والرسول في الأخرى جبريل ، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران . فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال :(لَقَوۡلُ رَسُولٖ) ولم يقل ملك ولا نبي ، ولا ريب أن الرسول بلغه ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأ بلغ كلام ربى ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ؟ » ولما أنزل الله : (الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ) خرج أبو بكر الصديق فقرأها على على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله .

وإن احتج بقوله (مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ) قيل له

هذه الآية حجة عليك ، فإنه لما قال : (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ) علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديداً ، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء ، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخراً . وكل ما تقدم على غيره فهو قديم فى لغة العرب ، كما قال : (كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) وقال : (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) وقال : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) وقال : (أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) وكذلك قوله : (جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه ؛ ولكن قال : (جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادراً على أن ينزله عجمياً ، فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربياً دون عجمي . وهذه المسئلة من أصول أهل الإيمان والسنة التى فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عمن قال : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، فقال له آخر : بل كلمه تكليما ، فقال : إن قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال : إن الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهل هو كما قال أو لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، أما من قال إن الله لم يكلم موسى تكليما فهذا إن كان لم يسمع القرآن فإنه يعرف أن هذا نص القرآن ، فإن أنكره بعد ذلك استتيب فإن تاب وإلا قتل ، ولا يقبل منه إن كان كلامه بعد أن يجحد نص القرآن ، بل لو قال : إن معنى كلامي أنه خلق صوتا فى الهواء فأسمعه موسى كان كلامه أيضاً كفراً ، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف وقالوا : يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا ؛ لكن من كان مؤمناً بالله ورسوله مطلقا ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فإنه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى من خالفها كفر . إذ كثير من الناس

يخطيء فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة ، والكفر لا يكون إلا بعد البيان .

والأئمة الذين أمروا بقتل مثل هـؤلاء الذين ينكرون رؤية الله فى الآخرة ويقولون : القرآن مخلوق ونحو ذلك ، قيـل إنهم أمروا بقتلهم لكفرهم ، وقيل لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس فقتـلوا لأجل الفساد فى الأرض وحفظا لدين الناس أن يضلوهم .

وبالجملة فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة .

ومن الجهمية : المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون : إن كلام الله مخلوق وإن الله إنما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء ، وإنه لا يرى فى الآخرة ، وإنه ليس مباينا لخلقه ، وأمثال هذه المقالات التى تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه .

وأما قول الجهمي : إن قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحـرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال إن الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر . فيقال لهذا الملحد : أنت تقول إنه كلمه بحرف وصوت

لكن تقول بحرف وصوت خلقه في الهواء وتقول : إنه لا يجوز أن تقوم به الحروف والأصوات لأنها لا تقوم إلا بمتحيز ، والباري ليس بمتحيز ، ومن قال إنه متحيز فقد كفر . ومن المعلوم أن من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة.

وإن قال الجاحد لنص الكتاب والسنة إن العقل معه قال له الموافق للنصوص : بل العقل معي وهو موافق للكتاب والسنة ، فهذا يقول إن معه السمع والعقل ، وذاك إنما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذي يبين منازعه فساده ، ولو قدر أن العقل معه .

« والكفر » هو من الأحكام الشرعية وليس كل من خالف شيئا علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً فى الشريعة .

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع ؛ وذلك أنه ليس فى الكتاب والسنة ولا فى قول أحد من سلف الأمة وأئمتها الإخبار عن الله بأنه متحيز أو أنه ليس بمتحيز ، ولا فى الكتاب والسنة أن من قال هذا وهذا يكفر . وهذا اللفظ مبتدع والكفر لا يتعلق بمجرد أسماء مبتدعة لا أصل لها فى الكتاب والسنة ؛ بل يستفسر هذا القائل إذا قال : إن الله متحيز أو ليس بمتحيز ، فإن قال : أعني بقولي إنه متحيز

أنه دخل فى المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل .
وإن قال أعني به أنه منحاز عن المخلوقات مباين لها ، فهذا حق .

وكـذلك قوله : ليس بمتحيز ، إن أراد به أن المخـلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب ، وإن قال إن الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ .

وإذا عرف ذلك فالناس فى الجواب عن حجته الداحضة ـ وهي قوله « لو قلت إنه كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث » ـ ثلاثة أصناف : صنف منعوه المقدمة الأولى ، وصنف منعوه المقدمة الثانية ، وصنف لم يمنعوه المقدمتين ، بل استفسروه ، وبينـوا أن ذلك لا يمنع أن يكون الله كلم موسى تكليما .

فـ « الصنف الأول » أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ومن اتبعها قالوا : لا نسلم أن الـكلام لا يكون إلا بحرف وصوت بل الـكلام معنى قائم بذات المتـكلم والحروف والأصوات عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الأمر بكل ما أمر به والخبر عن كل ما أخبر عنه ، إن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وقالوا : إنه اسم الـكلام حقيقة ، فيكون اسم الـكلام مشتركا أو مجازاً في كلام الخالق ، وحقيقة فى كلام المخلوق .

و « الصنف الثاني » سلموا لهم أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، ومنعوهم المقدمة الثانية ، وهو أن الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا .

وصنف قالوا : إن المحدث كالحادث سواء كان قائما بنفسه أو بغيره ، وهو يتكلم بكلام لا يكون قديما ، وهو بحرف وصوت ، وهذا قول من يقول القرآن قديم وهو بحرف وصوت كأبى الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم في المعانى.

وقالوا كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل ، ومعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ممتنع فى صريح العقل ، ومن ادعى أن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه — فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعا ، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات ، وإن جاز أن يقال : إن الحروف والأصوات المخلوقة فى غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق فى غيره .

وقالوا لإخوانهم الأولين : إذا قلتم إن الكلام هو مجرد المعنى

وقد خلق عبارة بيان [1] فإن قلتم إن تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة ؛ فإن أعظم حجتكم عليهم قولكم إنه يمتنع أن يكون متكلماً بكلام يخلقه فى غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن يقدر بقدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بإرادة قائمة بغيره ، وإن قلتم هي كلام مجازاً لزم أن يكون الكلام حقيقة فى المعنى مجازاً فى اللفظ ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات .

و « الصنف الثالث » : الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم وبينوا أن هذا لا يستلزم صحة قولكم ، بل قالوا : إن قلتم : إن الحرف والصوت محدث بمعنى أنه يجب أن يكون مخلوقاً منه منفصلا عنه ، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه ، وهذا قول ممنوع ، وإن قلتم : بمعنى أنه لا يكون قديماً فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة .

وهؤلاء « صنفان » : صنف قالوا : إن المحدث هو المخلوق المنفصل عنه فإذا قلنا : الحرف والصوت لا يكون إلا محدثاً كان بمنزلة قولنا لا يكون إلا مخلوقاً ، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله

---

(١) بياض بالأصل .

بقوله حيث زعم أنه يتكلم بحـرف وصوت مخلوق ، ثم استدل على ذلك بما يقتضي أنه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تلبيس .

ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق ، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى عـلى العرش ، وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهي دخان ، وأنه سبحانه يأتي فى ظلل من الغمام والملائـكة ، كما قال (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) وقال : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ) وقال تعالى : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وقال تعالى : (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) وأمثال ذلك فى القرآن والحديث كثير .

يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره . والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يـكون الرب محلا للمخلوقات ، بـل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعـاله ، وليس مـن ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائناً عنه . وكلام الله من الله ليس ببائن منه ، ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منـه بدأ

وإليه يعود ، فقالوا : منه بدأ أي هو المتكلم به ، لا أنه خلقه فى بعض الأجسام المخلوقة .

وهذا « الجواب » هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم : من الهشامية ، والكرامية ، وغيرهم .

وأتباع الأئمة الأربعة : أصحاب أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد : منهم من يختار جواب الصنف الأول . وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب فى القرآن . وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك الشافعي وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الصنف الثانى ، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون إن القرآن قديم : كالسالمية ، وطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلابية والسالمية .

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية — والكرامية ينتسبون إلى أبى حنيفة — ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضاً لما فيه من تناقض آخر ؛ بل يقول بقول أئمة الحديث : كالبخاري ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومن قبلهم من السلف :

كأبي بكر بن عبد الرحمــن بن الحارث بن هشــام ، ومحمد بن كعب القرظي ، والزهري، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه ، وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين ، وفى ذلك آثار كثيرة معروفة فى كتب السنن والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هــذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليهــا فى مواضع وبينــا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب فى صريح المعقول وصحيح المنقول؛ لكن هــؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول إن كلام الله مخلوق . والأمة متفقة على أن من قال إن كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليماً يستتاب فإن تاب وإلا يقتل .

والحمــد لله رب العــالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وســلم تسليماً كثيراً .

وسئل أيضا رحمه الله

عمن قال : كلم الله موسى تكليماً ، وسمعته أذناه ، ووعاه قلبه ، وإن الله كتب التوراة بيده ، وناوله إياه مـن يده إلى يده ، وقال آخر : لم يكلمه إلا بواسطة .

فأجاب : القـائل الذي قال : إن الله كلم موسى تكليماً ــ كما أخبر فى كتابه ــ مصيب ، وأما الذي قال : كلم الله موسى بواسطة فهذا ضال مخطئ ؛ بل قد نص الأئمـة على أن مـن قال ذلك فإنه يستتـاب فإن تاب وإلا قتل ؛ فإن هـذا الـكلام إنكار لما قد عـلم بالاضطرار من دين الإسلام ، ولما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ الآية ففرق بين تكليمه من وراء حجـاب ــ كما كلم موسى ــ وبـين تكليمه بواسطة رسول ، كما أوحى إلى غير موسى ، قال الله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

والأحاديث بذلك كثيرة في الصحيحين والسنن وفي الحديث المحفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث «التقى آدم وموسى ، قال آدم : أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً ، لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه » .

وسلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية ، الذين قالوا : إن الله خلق كلاماً فى بعض الأجسام ، سمعه موسى ، وفسر التكليم بذلك . وأما قوله : « إن الله كتب التوراة بيده » فهذا قد روى فى الصحيحين ، فمن أنكر ذلك فهو مخطئ ضال ، وإذا أنكره بعد معرفة الحديث الصحيح يستحق العقوبة . وأما قوله « ناولها بيده إلى يده » فهذا مأثور عن طائفة من التابعين ، وهو هكذا عند أهل الكتاب ؛ لكن لا أعلم غير هذا اللفظ مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمتكلم به إن أراد ما يخالف ذلك فقد أخطأ . والله أعلم .

ما تقول السادة الأعلام

أئمة الدين — رضي الله عنهم أجمعين — هل هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم بـه وكان صفة له أم لا ؟ وإذا كان كلامه فهل إذا تلوناه وقام بنـا يطلق عليه كلام الله وصفته ؟ أم يطلق عليـه كلام الله دون صفته ؟ أم فى ذلك تفصيل يجب بيانه ؟ وهل إذا قام بنا كان منتقلا عن الله بعد أن قام به ؟ أم يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله ، أو حكاية عنه ، ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟ وهل يكون صفة لنا محدثة قامت بمحدث ؛ إذ القديم لا يقوم بمحدث ، والمحدث لا يكون قديماً ، وهل « التلاوة » هي نفس المتلو أم لا ؟ ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه : الحمد لله رب العالمين .

هذه « المسألة » جوابها يحتمل البسط ، ويمكن فيه الاختصار ، ثم بسط الجواب بعض البسط ؛ فأما الجواب المختصر فإنه يقال : جواب

هذه المسألة مبني علـى « مقدمة » وهي أن يعرف الإنسان معنى قول القائل لما بلغه عن غيره : هذا كلام ذلك الغير ؛ فإن المحدث إذا حدث عن النبي صلى الله عليـه وسلم بقوله : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لـكل امرئ ما نوى » أو قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهة لا يعلمها كثير من الناس » أو قوله : « من عمـل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ونحو ذلك .

فإنه من المعلوم أن هذا كلام النبي صـلى الله عليه وسـلم تكلم به بلفظه ومعناه ، فهو الذي أخبر بمعناه ، وهو الذي ألف حروفه وتكلم بها بصوته . ثم المبلغ بذلك عنه بلغ كلامه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغـه كما سمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فدعى بالنضرة لمن سمع منه حديثاً فبلغه كما سمعه . فبين أن الحديث المسموع منه هو الحديث المبلغ عنه ، مع العلم بأن المبلغ عنه بلغه بأفعاله وأصواته ، وأن الصوت المسموع منه هو صوته لا صوت النبي صـلى الله عليـه وسلم . وإن كان النبي صلى الله عليـه وسـلم تـكلم بذلك الحـديث بصوته المختص به ، فالمبـلغ عنه هو حديثه الذي سمـع منه ، وليس الصوت المسموع صوته .

فإذا قال القائل : هل هذا الحديث الذي قرأه المحدث القـائم به

حين القراءة هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : إن كنت تريـد أن نفس الحديث من حيث هو هو كلام النبي صلى الله عليـه وسلم ، الذي قام بـه حين تكلم به كان صفة له ؛ فنعم ! هـذا الحديث من حيث هو هو كلام النبي صـلى الله عليـه وسلم ، وإن كنت تريد أن ما اختص بالقـارئ من حركاته وأصواته هو القائم بالرسول ، فليس كذلك .

وكذلك إن أردت أن نفس ما اختص بـه الرسول من حركاتـه وأصواته ، والصفات القائمـة بنفسه هي بعينهـا انتقلت عن الرسول ، وقامت بالقارئ فليس كذلك .

وقول القائل : هذا هو هذا وليس هو إياه ، وهـذا هو عين هذا وليس هو عينه : لفظ فيـه إجمال ، فإن من نقل لفظ غيره ، كما سمعه وكتبه فى كتاب ، فإنه يقول : هذا كلام فلان بعينه ، وهذا نفس كلامه ، وهذا عين كلامه . ومراده أن نفس ما قاله هو الذي بلغه عنه ، وهو المكتوب فى الكتاب ، لم يزد فيه ولم ينقص منه .

فإذا قال القائل : لما سمع من القارئ . هذا عين كلام الله ، أو هذا كلام الله بعينه ، أو هذا نفس كلام الله ، أو قال لما بين لوحي المصحف : هذا كلام الله بعينه . وهـذا عين كلام الله كان صـادقا ،

ومن أنكر ذلك بهذا الاعتبار كان مقتضى قوله : أن القرآن زيد فيه ونقص ؛ ولهذا كان النــاس مطبقين على أن مابين اللوحين كلام الله ؛ والإنكار على من نفى ذلك .

وقد يقال لـكلام المتكلم المسموع منه : هذا كلام زيد بعينـه ؛ وهذا عين كلام زيد ، وهذا نفس كلام زيد ، بمعنى أنه مسموع منه بلا واسطة ؛ بحيث يسمع صفة ذلك المتكلم المختص به بذلك ، كما قال أيوب السختياني . كان الحسن يتكلم بكلام فيأتى مثل الدر ؛ فتكلم به بعده قوم فجاء مثل البعر . والمتكلم بالـكلام من البشر له صوت يخصــه ، ونغمة تخصه ، كما له سجية تخصه ، كما قال تعالى : (وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) . وله أيضاً — إن كان أمراً أو نهيــاً أو خبراً — من الحال والصفة والكيفية ما يختص به ، فإذا سمع كلامه بالصفة المختصة به وقيل : هــذا كلامه بعينه ، وهذا عين كلامه ، ونفس كلامه ، وأدخلت الصفة المختصة به فى مسمى العين والنفس ، لم يصدق هذا عليه ، إذا كان مرويا .

لكن لما كان الناس فى زماننا يعلمون أن أحداً لا يسمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم منه : لم يسبق هذا المعنى إلى ذهن أحد ، بل كل أحد يعلم أنا إذا قلنا سمعنا كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام النبى صلى الله عليه وسـلم بعينه ، وهذا عين كلامه ، فإنما المراد بــه

المعنى الأول ، وهو كونه مسموعا من المبلغ عنه ، لا أنه مسموع منه ، ولا أن تكلمه الذى يختص بالكلام وجد .

وإذا كان هذا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم : فكلام الله سبحانه أولى بذلك ، فإن الناس يعلمون أن أحداً منهم لم يسمعه من الله ، كما سمع موسى كلام الله من الله ؛ بل يعلمون أن كلام الله إنما سمع من المبلغين له ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ) وقال تعالى : (لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ) وقال نوح : (وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى)

وفى سنن أبى داود عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بالموقف : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربى »

فلما كان هذا مستقراً في قلوب المستمعين علموا أن قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) إنما هو سماعه من المبلغين له ، لا سماعه منه ، وإن هذا السماع ليس كسماع موسى كلام الله من الله ؛ فإن موسى سمعه منه بلا واسطة ، ونحن إذا سمعنا كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة لم يكن كسمع الصحابة

من النبي صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم يبلغون حديثه كما سمعوه ، مع العلم بأنهم لم يحكوا صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا هي أصواتهم صوته ، ولا مثل صوته ، مع أنهم بلغوا حديثه كما سمعوه . فالقرآن أولى أن يكون جبريل بلغه كما سمعه ، والرسول بلغه كما سمعه ، والأمة بلغته كما سمعته ، وأن يكون ما بلغته هو ما سمعته ، وهو كلام الله عز وجل في الحالين ؛ مع أن الرسول بشر من جنس البشر ، والله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ) .

والتفاوت الذي بين صفات الخالق والمخلوق أعظم من التفاوت بين أدنى المخلوقات وأعلاها ، فإذا كان سمع التابعين لكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة ليس كسمع الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم : فسماع كلام الله من الله أبعد من مماثلة سماع شيء لشيء من المخلوقات .

والقائل إذا قال لما سمعه من المبلغ عن الرسول هذا كلام الرسول أو هذا كلام صواب ، أو حق أو صحيح ، أو هذا حديث رسول الله أداه كما سمعه ، أو هذا نفس كلام الرسول أو عينه ، فإنما قصد إلى مجرد الكلام ، وهو ما يوجد حال سماعه من المبلغ ، والمبلغ عنه لم يشر إلى ما يختص بأحدهما ؛ فلم يشر إلى مجرد صوت المبلغ ، ولا مجرد صوت المبلغ عنه ، ولا إلى حركة أحد منهما ؛ بل هناك أمر يتحد في الحالين

وهذا أمر يتعدد يختص كل منها منه بما يخصه .

فإذا قيل : هذا هو كلامه كانت الإشارة إلى المتحد المتفق عليه بينهما . وإذا قيل : هذا صوته كانت الإشارة إلى المختص المتعدد ، فيقال : هذا صوت غليظ ، أو رقيق ، أو حسن ، أو ليس حسناً ؛ كما فى الحديث الذي فى سنن ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » وفى الحديث المشهور : « زينوا القرآن بأصواتكم » قال أحمد : يحسنه بصوته ما استطاع . فبين الإمام أحمد أن الصوت صوت القارئ ، مع أن الكلام كلام الباري . وهذا كما أنه معلوم من تبليغ كلام الله ورسوله ، فكذلك فى تبليغ كلام كل أحد ، فإذا سمع الناس منشداً ينشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قالوا : هذا شعر لبيد لفظه ومعناه ، وهذا كلام لبيد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

ولو قال المنشد : هذا شعري أو كلامي لكذبه الناس ، كما يكذبونه لو قال : هذا صوت لبيد ، وإذا قال : هذا لفظ لبيد بالمعنى المعروف ـ

وهو أن هذا الكلام الملفوظ هو كلامه بنظمه وتأليفه ـ لصدقه الناس . وإن قال : هذا لفظه بمعنى أن هذا بلفظه كذبه الناس ؛ فإن « اللفظ » يراد به المصدر ، ويراد به الملفوظ . وكذلك « التلاوة » و « القراءة » يراد بذلك المصدر ويراد به الكلام نفسه ويتلى .

وأصل هذا أن تعلم الجامع والفارق بين الكلام من المتكلم به ، ومن المبلغ له عن المتكلم به ، وأنه كلامه فى الحالين ؛ لكن هو فى أحدهما مسموع منه سماعا مطلقاً بغير واسطة ، وفى الأخرى مسموع منه سماعا مقيداً بواسطة التبليغ ، كما أنك تارة ترى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ، فلا تحتاج فى ذلك إلى واسطة ، وتارة تراها فى ماء أو مرآة ونحو ذلك ؛ تراها بواسطة ذلك الجسم الشفاف ، فهي المقصودة بالرؤية فى الموضعين ؛ لكن فى إحدى الحالتين رأيتها نفسها بالمباشرة رؤية مطلقة ، وفي الأخرى رأيتها رؤية مقيدة بواسطة .

وإذا قلت : المرئي مثالها أو خيالها أو نحو ذلك . قيل : أنت تجد الفرق بين رؤيتك خيال الشيء الذي هو ظله وتمثاله الذي هو صورته المصورة ، وبين رؤيته فى الماء والمرآة ؛ إذا كان المرئى هنا ، وإن كان لابد فيه من توسط خيال فالمقصود بالرؤية هو الحقيقة ؛ ولكن تختلف باختلاف المرآة ، فيرى كبيراً إن كانت المرآة كبيرة ، وصغيراً

إن كانت المرآة صغيرة ، ومستطيلا إن كانت المرآة مستطيلة . وهـذا الكلام المروي عن الغير المقصود منه هو نفس كلام ذلك الغير ، وإن كان لا بد من توسط صوت هذا المبلغ ؛ ولهذا يختلف باختلاف صوت المبلغ ؛ فتارة يكون رقيقاً ، وتارة غليظا ، وتارة مجهوراً به ، وتارة مخافتاً به .

فإن قلت : فهذا المسموع مثل كلام المروي عنه ، أو حكاية كلام المروي عنه ، كما أطلق ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، كان إطلاق هذا خطأ . كما أنك إذا قلت لما تراه فى الماء والمرآة هذا مثل الشمس ، أو هذا يحكى الشمس : كان إطلاق ذلك خطأ ، قال تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ) الآية ، فقد بين عجز الخلائق عن الإتيان بمثله ، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته ؛ فعلم أن هذا المسموع لا يقال إنه مثل كلام الله ، كما سماه كلامه ؛ لكنه كلامه بواسطة المبلغ لا بطريق المباشرة .

والله سبحانه قد فرق بين التكليمين . فقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) ففرق بين تكليمه من وراء حجاب — كما كلمه موسى — وبين تكليمه بإرساله رسولا يوحي بإذنه ؛ ذاك تكليم بلا واسطة ، وهذا تكليمه بواسطة .

وإن قلت : لما يبلغه المبلغ عن غيره هـذا حكاية كلام ذلك كان الإطلاق خطأ ، فإن لفظ « الحكاية » إذا أطلق يراد بـه أنه أتى بكلام يشبه كلامه ، كما يقال : هذا يحاكي هذا ، وهذا قد حكى هذا ؛ لكن قد يقال : فلان قد حكى هذا الـكلام عن فلان . كما يقال : رواه عنه ، وبلغه عنه ، ونقله عنه ، وحدث به عنه ؛ ولهذا يجيء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسـلم فيما يروي عن ربـه . فكلما بلغه النبي صلى الله عليه وسـلم عن الله فقد حكاه عنه ، ورواه عنه .

فالقائل إذا قال للقارئ هذا يحكي كلام الله ، أو يحكي القرآن ، فقد يفهم منه أنه يأتى بكلام يحاكي به كلام الله ، وهذا كفر . وإن أراد أنه بلغه وتلاه فالمعنى صحيح ؛ لكن ينبغي تعبيره بما لا يدل على معنى باطل ، فيقول : قرأه وتلاه ، وبلغه وأداه ؛ ولهذا إذا قيل : يحكى القراءات السبع ، ويرويها ، وينقلها ، لم ينكر ذلك ؛ لأنه لا يفهم منه إلا تبليغها ؛ لا أنه يأتى بمثلها .

فصـــل

إذا تبين ذلك . فيقال : هـذا القرآن الذي نقرأه ونبلغه ونسمعه هو كلام الله الذي تكلم به ، ونزل به منه روح القدس ، كما قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ)

فهذا الكلام فى القرآن الذي قالوا : إنما يعلمه إياه بشر ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ) فدل عـلى أن المراد به نفس القرآن العربى ، الذي يمتنـع أن يعلمه إياه ، ذلك الأعجمي ، الذي ألحدوا إليه . وقد قيل : إنه رجـل بمكة مولى لابن الحضرمي ، والمعـاني المجردة لا يمتنع تعلمهـا من الأعجمي ، بخلاف هــذا القرآن العربى ، فدل أن هذا القرآن نزله روح القدس من الله تبارك وتعالى .

ومثله قوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهـذا الكلام صفة الله تعالى ، وأما ما اختص قيامه بنا ؛ من حركاتنا وأصواتنا ، وفهمنا وغير ذلك من صفاتنا ، فلم يقم منه شيء بذات الله سبحانه ، كما أن ما اختص الرب تعالى بقيامه به لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره لا هو ولا مثله : فإن المخلوق إذا سمع من المخلوق كلامه وبلغه عنه كان ما بلغه هو كلامه ، كما تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » مع أن ما قام بالنبي صلى الله عليه وسلم ـــ بباطنه من العلم والإرادة وغيرهما ، وبظاهره من الحركة والصوت وغيرهما ـــ لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره ؛ بل جميع صفات المخلوقين لا تفارق ذواتهم وتنتقل عنهم ، فكيف يجوز أن يقال : إن صفة الخالق فارقت ذاته فانتقلت عنه ؟

والمتعلم إذا أخذ علم المعلم ونقله عنه لم يفارق ذات الأول ، وينتقل عنها إلى الثانى ؛ بل نفس الحقيقة العلمية حصلت له مثل ما حصلت لمعلمه أو ليس مثله بل يشبهه ؛ ولهذا يشبه العلم بضوء السراج ، كل أحد يقتبس منه وهو لم ينقص . ومن المعلوم أن من أوقد من مصباح غيره فإنه لم ينتقل إلى سراجه شيء من جرم تلك النار ، ولا شيء من صفاتها القائمة بها ؛ بل جعل الله بسبب ملاصقة النار ذلك ناراً مثل تلك

فالحقيقة النارية موجودة ، وإن كانت هذه العين ليست تلك ؛ لكن النار والعلم ليس هو مثل الكلام الذي يبلغ عن الغير ؛ بل هو مثل أن يسمع بعض الناس كلام غيره ، وشعر غيره ، فيقول من جنس ما قال ، ويقول كما قال غيره مثله . كما يقال : وقع الخاطر على الخاطر كوقع الحافر على الحافر ، وليس هذا من التبليغ والرواية فى شيء ، فإن قول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هو كلام لبيد كيف ما أنشده الناس وكتبوه ؛ فهذا الشعر الذي ينشده هو شعر لبيد بعينه . فإذا قيل : الشعر الذي قام بنا هو الذي قام بلبيد . قيل : إن أريد بذلك أن الشعر من حيث هو هو إن أريد أن نفس ما قام بذاته فارق ذاته وانتقل إلينا ؛ فليس كذلك ، وكذلك إن أريد أن عين الصفة المختصة بذلك الشخص كحركته وصوته هي عين الصفة المختصة بنا ، كحركتنا وصوتنا فليس كذلك .

فقولك : هذا هو هذا لفظ فيه إجمال يبينه السياق . فإذا قلت : هذا الكلام هو ذاك ، أو هذا الشعر هو ذاك ، كنت صادقا . وإذا قلت هذا الصوت هو ذاك كان كذبا .

والناس لا يقصدون إذا قالوا : هذا شعر لبيد إلا القدر المتحد ،

وهي الحقيقة من حيث هي ، مع قصر النظر عما اختص به أحدهما .

فإن قيل : القدر المتحد كلي مطلق ، والكليات إنما توجد فى الأذهان لا فى الأعيان . قيل : ذكر هذا هنا غلط ، فإن هذا إنما يقال لو كان رجل قد قال شعر لبيد من غير أن يعلم بشعره . فنقول : هذان شيئان اشتركا في النوع الكلي ، وامتاز أحدهما عن الآخر بما يخصه ، والكلي إنما يوجد كلياً فى الذهن لا فى الخارج ، وأما هنا فنفس شعره كان له وجود فى الخارج ، والمقصود من الحقيقة الكلامية — مع قطع النظر عن صوت زيد وصوت عمرو — موجود لما تكلم به لبيد ، وموجود إذا أنشده غير لبيد ، وتلك الحقيقة المتحدة موجودة هنا وهنا ؛ ليست مثل وجود الإنسانية فى زيد وعمرو وخالد ؛ فإن إنسانية زيد ليست إنسانية عمرو بل مثلها ، والمشترك بينهما لا يوجد فى الخارج ، وهنا نفس الكلام الذي تكلم به لبيد تكلم به المنشد عنه ، ولا يقال : إنه أنشأ مثله ، ولا أنشد مثله ، بل يقال : أنشد شعره بعينه .

لكن الشعر عرض ، والعرض لا يقوم إلا بغيره ؛ فلا بد أن يقوم إما بلبيد وإما بغيره ، والقائم به وإن كان [ليس] مثل القائم بغيره ؛ لكن المقصود بهما واحد . فالتماثل والتغاير في الوسيلة ، والاتحاد فى الحقيقة المقصودة ، وتلك الحقيقة هي إنشاء لبيد لا إنشاء غيره ، والعقلاء

يعلمون أنه ليس نفس الصوت المسموع من لبيد هو نفس الصوت المسموع من المنشد ؛ لكن نفس المقصود بالصوت هو الكلام ؛ فإن الصوت واسطة فى تبليغه ؛ ولهذا ما كان فى الصوت من مدح وذم كان للمبلغ ، وما كان في الكلام من مدح وذم كان للمتكلم المبلغ عنه فى لفظه ونظمه ومعناه .

وإذا عرف هذا : فقول القائل : هذا القرآن الذي نتلوه ، القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ، وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : أما الكلام فهو كلام الله لا كلامنا ولا غيرنا ، وهو مسموع من المبلغ لا من الله — كما تقدم — وهو مسموع بواسطة سماعا مقيداً ، لا سماعاً من الله مطلقاً — كما تقدم — وليس شيء مما قام بذاته فارقه وانتقل إلينا ، ولا شيء مما يختص بذواتنا — كحركاتنا وأصواتنا فهو منا — قائماً به .

وأما قوله : هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ؟ فلفظ القيام فيه إجمال ، فإن أراد أن نفس صفة الرب تكون صفة لغيره ، أو صفة العبد تكون صفة للرب ، فليس كذلك . وإن أراد أن نفس ما ليس بمخلوق صار مخلوقاً ، أو ما هو مخلوق صار غير مخلوق ، فليس الأمر كذلك . وإن أراد أن ما اختص الرب بقيامه به شاركه فيه غيره ، فليس الأمر كذلك . وإن

أراد أن نفس الـكلام كلامه لا كلام غيره فى الحالين ـــ كما تقـدم تقريره ـــ فالأمر كذلك .

وقد علم أن الحال إذا سمع من الله ليس كالحال إذا سمع من خلقه ، وذلك فرق بـين الحالين ، وإن كان الـكلام واحداً . فإذا كان هذا الفرق ثابتاً في كلام المخلوق مسموعا ومبلغاً عنه فثبوته فى كلام الله أولى وأحرى ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، ولا يمكن أن يكون تكلمه به وسماعه مما يعرف له نظير ولا مثال ، ولا يقاس ذلك بتكلم النبي صـلى الله عليه وسلم ، وسماع الـكلام منه ؛ فإن النبي صلى الله عليـه وسلم بشر ، يمكننا أن نعرف صفاته ، والرب تعالى لا مثال له ، وهو أبعد عن مماثلة المخلوقات أعظم مـن بعد مماثلة أعظم المخلوقات عن مماثلة أدناها .

وقول السائل : إذا تلوناه ، وقام بنا ، يطلق عليه كلام الله وصفته أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم في ذلك تفصيل يجب بيانه ؟

فيقال : هو كلام الله وصفته ، مسموعا مـن المبلغ عنه لا منه ؛ فالنفي والإثبات بدون هذا التفصيل يوهم : إما أنه كلام الله مسموعا منه ، أو أنه ليس كلام الله ، بل كلام المبلغ عنـه . وكلا القولين خطأ وقع في كلام طائفتين من الناس . طائفة جعلت هذا كلام المبلغ عنه ؛ لا كلام

الله . وطائفة قالت : هذا كلام الله مسموعا من الله ، ولم تفرق بين الحالين ؛ حتى ادعى بعضها أن الصوت المسموع قديم ، وتلك لم تجعله كلام الله ؛ بل كلام الناس . فهؤلاء يقولون : ليس هذا كلام الله ، وأولئك يقولون : هذا الصوت المسموع قديم . وكلا القولين خطأ وضلال ؛ لكن هو كلامه مقيداً بواسطة المبلغ القارئ ، ليس هو كلامه وصفته مطلقاً عن التقييد مسموعا منه ، وكلام المتكلم يضاف إليه مطلقاً إذا سمع منه ، ومقيداً إذا سمع من المبلغ عنه ، كما أن رؤيته يقال : مطلقة إذا رؤي مباشرة . ويقال : مقيدة إذا رؤي في ماء أو مرآة .

وأما قوله : إذا قام بنا هل كان منتقلا عن الله بعد أن قام به أم يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه ؟ ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟

فيقال : إن صفة المخلوق لا تفارق ذاته ، وتنتقل عنه وتقوم بغيره ، فكيف يجوز أن يقال : إن صفة الرب سبحانه فارقت ذاته ، وانتقلت عنه وقامت بغيره . وقد بينا أن المتكلم منا إذا أرسل غيره بكلام فإنه ما قام به ؛ بل لم يفارق ذاته وينتقل إلى غيره ؛ فكلام الله أولى وأحرى ؛ بل كلامه سبحانه قائم به ، كما يقوم به لو تكلم به ولم يرسل به رسولاً ، فإرساله رسولاً به يفيد إبلاغه إلى الخلق . وإزاله إليهم

لا يوجب نقصاً فى حق الرب ، ولا زوال اتصافه به ، ولا خروجه عن أن يكون كلامه ؛ بل نعلم أن الرب كما أنه قد يتكلم به ، ولا يرسل به رسولاً قد يتكلم به ويرسل به رسولا ، فهو فى الحالين كلامه — سبحانه — ؛ بل إرسال الرسول به نفع الخلق ، وهداهم ، ولم يجب به نقصان صفة مولاهم .

وقوله : أم يكون قائماً بنا وبه ؟ فيقال : معنى القائم لفظ مجمل ؛ فإن أريد أن نفس الكلام من حيث هو هو تكلم هو به ، وتكلمنا به مبلغين له عنه ، فكذلك هو . وإن أريد أن ما اختص به يقوم بنا ، أو ما اختص بنا يقوم به ، فهذا ممتنع . وإن أريد بالقيام أنا بلغنا كلامه ، أو قرأنا كلامه ، أو تلونا كلامه . فهذا صحيح . فكذلك إن أريد أن هذا الكلام ، كلامه مسموعا من المبلغ لا منه . وإن أريد بالقيام أن الشيء الذي اختص به هو بعينه قام بغيره مختصاً به فهذا ممتنع . وإن قيل : الصفة الواحدة تقوم بموضعين . قيل : هذا أيضاً مجمل ؛ فإن أريد أن الشيء المختص بمحل يقوم بمحل آخر فهذا ممتنع ، وإن أريد أن الكلام الذي يسمى صفة واحدة يقوم بالمتكلم به ويبلغه عنه غيره كان هذا صحيحاً .

فهذه المواضع يجب أن تفسر الألفاظ المجملة بالألفاظ المفسرة المبينة ، وكل لفظ يحتمل حقاً وباطلا فلا يطلق إلا مبيناً به المراد الحق دون

الباطل ؛ فقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء . وكثير من نزاع الناس فى هذا الباب هو من جهة الألفاظ المجملة ، التى يفهم منها هذا معنى يثبته ، ويفهم منها [الآخر] معنى ينفيه . ثم النفاة يجمعون بين حق وباطل ، والمثبتة يجمعون بين حق وباطل .

وأما قوله : أم الذي يقوم بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه . ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟ فيقال : العبارة عن كلام الغيب يقال لمن فى نفسه معنى ثم يعبر عنه غيره ، كما يعبر عما فى نفس الأخرس من فهم مراده ، والذين قالوا : « القرآن عبارة عن كلام الله » قصدوا هذا ، وهذا باطل ؛ بل القرآن العربي تكلم الله به ؛ وجبريل بلغه عنه .

وأما « الحكاية » فيراد بها ما يماثل الشيء ، كما يقال : هذا يحاكي فلاناً إذا كان يأتي بمثل قوله أو عمله ، وهذا ممتنع في القرآن ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ الآية . وقد يقال فلان حكى فلان عنه ، أي بلغه عنه ، ونقله عنه . ويجيء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما يحكى عن ربه ، ويقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم روى عن ربه ، وحكى عن ربه . فإذا قيل : إنه حكى عن الله بمعنى أنه بلغ عن الله فهذا صحيح .

وأما قول القائل : هل يكون كلام الله مجازاً ؟ فيقـال : علامة المجاز صحـة نفيه ونحن نعلم بالاضطرار أن فلاناً لو قال بحضرة الرسول ليس هذا كلام الله لـكان عنده لم يكن متكلماً بالحقيقة اللغوية .

وأيضاً : فهذا موجود فى كل من بلغ كلام غيره ، أنه يقال هذا كلام المبلغ عنه لا كلام المبلغ ، والله أعلم .

ماتقول السادة أئمة الدين

في رجلين قال أحدهما : القرآن المسموع كلام الله . وقال الآخر : هو كلام جبرئيل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فهل أصاب أم أخطأ ؟ وما الجواب عما احتج به ؟ وهل هذا القول قاله أحد من الشيوخ والأئمة أم لا ؟ أفتونا مأجورين ؟ .

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيميـة قدس الله روحه : الحمـد لله رب العالمين ؛ بل القرآن كلام الله تعـالى ، وليس كلام جبرئيل . ولا كلام محمد صـلى الله عليـه وسـلم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين وأصحابهم ، الذين يفتى بقولهم في الإسـلام كأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وغيرهم .

وجبريل سمعه من الله ، وسمعه محمد من جـبريل ، كما قال تعـالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ . وروح القدس هـو جبريل ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وقال تعـالى : ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو منزل من الله ، كما قال

تعالى : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) .

وأما قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فإنه أضافه إليـه لأنه بلغه وأداه لا لـكونه أحدث منه شيئاً وابتداه ؛ فإنه سبحــانه قال في إحدى الآيتين : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ)

فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال فى الآية الأخـرى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

فالرسول هنا جبريل . والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن النـاس ؛ فلو كانت إضافته إلى أحدهما لـكونه ألف النظم العربى ، وأحدث منه شيئاً غـــير ذلك تناقض الكلام ؛ فإنه إن كان نظم أحــدهما لم يكن نظم الآخر .

وأيضاً فإنه قال : (لَقَوْلُ رَسُولٍ) ولم يقل لقول ملك ولا نبى ، ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلــغ له عـــن مرسله ، لا أنه أنشــأ من عنده شيئاً .

وأيضاً فقوله : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ضمير يعود إلى القرآن

والقرآن يتناول معانيه ولفظه ، ومجموع هذا ليس قولا لغير الله بإجماع المسلمين ، وإطلاق القول بأن القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل عظم الله الإنكار على من يقول إنه قول البشر ، فقال تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) إلى قوله : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) . فمن قال : إن القرآن قول البشر فقد كفر. وكذلك من قال إنه قول ملك ؛ وإنما يقول إنه قول جبريل أحد رجلين :

إما رجل من الملاحدة والفلاسفة . الذين يقولون : إنه فيض فاض على نفس النبي من العقل الفعال ، ويقولون : إنه جبريل . ويقولون : إن جبريل هو الخيال الذي يتمثل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم . يقولون : إنه تلقاه معان مجردة ، ثم إنه تشكل فى نفسه حروفاً كما يتشكل فى نفس النائم ، كما يقول ذلك ابن عربى صاحب « الفصوص » وغيره من الملاحدة ؛ ولهذا يدعى أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ، الذى يوحى به إلى الرسول ، فإن « المعدن » عنده هو العقل ، و « الملك » هو الخيال الذي في نفسه ، والنبى عندهم يأخذ من هذا الخيال .

وهــذا الكلام من أظهر الكفر بإجمــاع المسلمين واليهود والنصارى ، وهو ممـا يعلم فساده بالاضطرار من دين المسلمين .

أو رجــل ينتسب إلى مــــذهب الأشعري ، ويظن أن هــذا قول الأشعـــري ؛ بنـــاء عـــلى أن الـكلام العـــربى لم يتكلم الله به عنده وإنمـــا كلامه معنى واحد قائم بـــذات الرب : هـــو الأمر والخبر ؛ إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عـــبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وهــذا القول وإن كان قول ابن كلاب والقلانسى ، والأشعري ونحوهم ، فـلم يقولوا : إن الكلام العربى كلام جبريل ، ومن حكى هذا عن الأشعري نفسه فهو مجازف ، وإنما قال طائفة من المنتسبين إليه ــ كما قالت طائفة أخرى ــ إنه نظم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن المشهور عنـــه أن الكلام العربى مخلوق ، ولا يطلق عليه القول بأنه كلام الله ؛ لـكن إذا كان مخلوقا فقد يكون خلقه فى الهواء ، أو في جسم ؛ لـكن القول إذا كان ضعيفاً ظهر الفساد فى لوازمه .

وهذا القول أيضاً لم يقله أحد من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين وأصحابهم ، الذين يفتى بقولهم ؛ بل كان الشيخ أبو حامــد الإسفرائيني يقول : مذهبي ، ومذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وسائر علمـــاء الأمصار فى القرآن مخالف لهذا القول ، وكذلك أبو محمد الجويني والدأبي

المعالي قال : مذهب الشافعي وأصحابه في الكلام ليس هو قول الأشعري ، وعامة العقلاء يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار ، فإنا نعلم أن التوراة إذا عربت لم تكن هي القرآن ، ونعلم أن آية الكرسي ليست هي معنى آية الدين .

والله تعالى قد فرق في كتابه بين تكليمه لموسى وإيحائه إلى غيره بقوله تعالى : (إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ) إلى قوله : (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا) وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ) ففرق بين التكليم الذي حصل لموسى ، وبين الإيحاء المشترك ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، كما قال تعالى : (فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) .

والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعا سماعا مقيداً بواسطة المبلغ ، كما قال تعالى : (وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق ؛ بخلاف سماع موسى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه ، فليس ذلك كالسماع منه ، فأمر الله تعالى أعظم .

ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله تعالى ، ولم يقل أحد منهم إن أصوات العبـاد ولا مداد المصاحف قديم ، مع اتفاقهم على أن المثبت بين لوحي المصحف كلام الله ، وقد قال النبي صلى الله عليـه وسـلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » فالـكلام الذي يقرؤه المسلمون كلام الله ، والأصوات التى يقرؤون بها أصواتهم . والله أعلم .

وسئل رحمه الله

ما تقول السادة العلماء الجهابذة ، — أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين — فيمن يقول : الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، والقرآن والمقروء والقارئ كل واحد منها له معنى ؟ بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ؛ ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد ، أثابكم الله بمنه .

فأجاب — رضي الله عنه — :

الحمد لله ، من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل وأراد أنه مباين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ، وهو قول من يقول : إن القرآن مخلوق ، فإنهم يزعمون أن الله لا يقوم به صفة من الصفات ، لا القرآن ولا غيره ، ويوهمون الناس بقولهم العلم غير العالم والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم ، ثم يقولون : وما كان غير الله فهو مخلوق ، وهذا تلبيس منهم .

فإن لفظ « الغير » يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له ، وعلى هذا فلا يجوز أن يقال علم الله غيره ، ولا يقال إن الواحد

من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك ، وقد يراد بلفظ « الغير » ما ليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف ، لكن على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقا ؛ لأن صفاته ليست هي الذات ؛ لكن قائمة بالذات ، والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله ، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها ؛ بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها .

والصواب فى مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بايناً منه ؛ بل أسمعه لجبريل ، ونزل به على محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقولهم : « منه بدأ » رد على من قال : إنه مخلوق في بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق ابتدأ . فبينوا أن الله هو المتكلم به « منه بدأ » لا من بعض المخلوقات « وإليه يعود » أي فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف . وأما القرآن فهو كلام الله .

فمن قال : إن القرآن الذي هو كلام الله غير الله فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال إن الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال إن كلام

الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به فخطؤه ظاهر ، وكذلك من قال : إن القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون فقد أخطأ .

وإن أراد بـ « القرآن » مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ، وقال : أردت أن القراءة غير المقروء ؛ فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر فمن جعل « القراءة » التى هي المصدر غير المقروء ، كما يجعل التكلم الذي هو فعله غير الكلام الذي هو يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ، فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلا كالحركة ، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعانى ؛ ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسما منه أخرى .

فالأول كما يقول : الإيمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) . ومنه قوله تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ) وأمثال ذلك مما يفرق بين القول والعمل . وأما دخول القول فى العمل ففي مثل قوله تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . أجمعين عما كانوا يعملون وقد فسروه بقول لا إله إلا الله ، ولما

سئل صلى الله عليــه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله » مع قوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ؛ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ونظائر ذلك متعددة .

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملا إذا قال قولا كالقراءة ونحوها هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره ، بناء على هذا .

فهذه الألفاظ التى فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ، وإلا وقع فيها نزاع واضطراب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل

هل نفس المصحف هو نفس القرآن ، أم كتابته ؟ وما في صدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟

فأجاب : الواجب أن يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة ، كقوله تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) وقوله : (إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ) وقوله : (وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) وقوله : (يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) وقوله تعالى : (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ) .

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » وقوله : « استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم فى عقلها » وكلاهما فى الصحيحين ، وقوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » قال الترمذي : حديث صحيح .

فمن قال : القرآن فى المصاحف والصدور فقد صدق ، ومن قال : فيها حفظه وكتابته فقد صدق ، ومن قال : القرآن مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور فقد صدق ، ومن قال : إن المداد أو الورق ، أو صفة العبد أو فعله ، أو حفظه وصوته قديم ، أو غير مخلوق فهو مخطىء ضال ، ومن قال : إنما في المصحف ليس هو كلام الله ، أو ما فى صدور القراء ليس هو كلام الله ، أو قال : إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله ، ولكن هو مخلوق ، أو صنفه جبريل أو محمد ، وقال : إن القرآن فى المصاحف كما أن محمداً فى التوراة والإنجيل ، فهو أيضاً مخطىء ضال . فإن القرآن كلام ، والكلام نفسه يكتب فى المصحف .

بخلاف الأعيان ، فإنه إنما يكتب اسمها وذكرها . فالرسول مكتوب في التوراة والإنجيل ذكره ونعته ، كما أن القرآن فى زبر الأولين ، وكما أن أعمالنا فى الزبر . قال تعالى : (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) وقال تعالى : (وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ) ومحمد مكتوب فى التوراة والإنجيل ، كما أن القرآن في تلك الكتب ، وكما أن أعمالنا في الكتب وأما القرآن فهو نفسه مكتوب في المصاحف . ليس المكتوب ذكره والخبر عنه ، كما يكتب اسم الله فى الورق ، ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام ، وكتابة المسميات والأعيان — كما جرى لطائفة من الناس — فقد غلط غلطاً سوى فيه بين الحقائق المختلفة . كما قد

يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئاً واحداً ، كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحداً .

وكلام المتكلم يسمع تارة منه ، وتارة من المبلغ. فالنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » فهذا الكلام قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؛ فلفظه لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعناه معنى الرسول . فإذا بلغه المبلغ عنه بلغ كلام الرسول بلفظه ومعناه ؛ ولكن صوت الصحابي المبلغ ليس هو صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن كلام الله لفظه ومعناه ، سمعه منه جبريل ، وبلغه عن الله إلى محمد ؛ ومحمد سمعه من جبريل وبلغه إلى أمته ، فهو كلام الله حيث سمع وكتب وقرىء ، كما قال تعالى : (وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ) .

وكلام الله تكلم الله به بنفسه ، تكلم به باختياره وقدرته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ؛ بل هو قائم بذاته ، مع أنه تكلم به بقدرته ومشيئته ، ليس قائماً بدون قدرته ومشيئته .

والسلف قالوا : لم يزل الله تعالى متكلماً إذا شاء . فإذا قيل : كلام الله قديم ؛ بمعنى أنه لم يصر متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا كلامه مخلوق ، ولا معنى واحد قديم قائم بذاته ؛ بل لم يزل متكلماً إذا شاء فهذا كلام صحيح .

ولم يقل أحد من السلف إن نفس الكلام المعين قديمٌ . وكانوا يقولون : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . ولم يقل أحد منهم إن القرآن قديم ، ولا قالوا : إن كلامه معنى واحد قائم بذاته ، ولا قالوا : إن حروف القرآن أو حروفه وأصواته قديمة أزلية قائمة بذات الله ، وإن كان جنس الحروف لم يزل الله متكلماً بها إذا شاء ؛ بل قالوا : إن حروف القرآن غير مخلوقة ، وأنكروا على من قال : إن الله خلق الحروف .

وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق . يقولون : من قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ؛ فإن « اللفظ » يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ويراد باللفظ الملفوظ به ، وهو نفس الحروف المنطوقة ، وأما أصوات العباد ومداد المصاحف فلم يتوقف أحد من السلف فى أن ذلك مخلوق ، وقد نص أحمد وغيره على أن صوت القارىء صوت العبد ، وكذلك غير أحمد من الأئمة . وقال أحمد : من

قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي ، فالإنسان وجميع صفاته مخلوق ، حركاته وأفعاله وأصواته مخلوقة ، وجميع صفاته مخلوقة ؛ فمن قال عن شيء من صفات العبد إنها غير مخلوقة أو قديمة فهو مخطىء ضال ، ومن قال عن شيء من كلام الله أو صفاته إنه مخلوق فهو مخطىء ضال .

وأما أصوات العباد بالقرآن والمداد الذي فى المصحف فلم يكن أحد من السلف يتوقف فى ذلك ؛ بل كلهم متفقون أن أصوات العباد مخلوقة ، والمداد كله مخلوق . وكلام الله الذي يكتب بالمداد غير مخلوق ، قال الله تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا) .

وهذه المسائل قد بسط الكلام عليها ، وذكر أقوال الناس واضطرابهم فيها في مواضع أخر .

وقال قدس الله روحه

فصل

والقرآن الذي بين لوحي المصحف متواتر : فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ، ونقلوها قرآنا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي متواترة من عهد الصحابة ، نعلم علماً ضروريا أنها ما غيرت ، والقراءة المعروفة عن السلف الموافقة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة ، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر ويعقوب ، وخلف ، وبين قراءة حمزة والكسائي ، وأبى عمرو ونعيم ، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها إن القراءة مختصة بالقراء السبعة .

فإن هؤلاء : إنما جمع قراءاتهم أبو بكر ابن مجاهد بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة ، واتبعه الناس على ذلك ، وقصد أن ينتخب قراءة سبعة من قراء الأمصار ، ولم يقل هو ولا أحد من الأئمة إن ما خرج عن هذه السبعة فهو باطل ، ولا إن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أريد به قراءة هؤلاء السبعة ؛ ولكن

هذه السبعة اشتهرت فى أمصار لا يعرفون غيرها ، كأرض المغرب . فأولئك لا يقرؤون بغيرها ؛ لعدم معرفتهم باشتهار غيرها .

فأما من اشتهرت عندهم هذه كما اشتهر غيرها ؛ مثل أرض العراق وغيرها فلهم أن يقرأوا بهذا وهذا ، والقراءة الشاذة مثل ما خرج عن مصحف عثمان ، كقراءة من قرأ : (الحي القيام) و (صراط من أنعمت عليهم) و (إن كانت إلا زقية واحدة) (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى) وأمثال ذلك .

فهذه إذا قرئ بها في الصلاة ففيها قولان مشهوران للعلماء ، هما روايتان عن الإمام أحمد .

« أحدهما » تصح الصلاة بها ؛ لأن الصحابة الذين قرأوا بها كانوا يقرؤونها في الصلاة ، ولا ينكر عليهم .

« والثانى » لا ؛ لأنها لم تتواتر إلينا ، وعلى هذا القول فهل يقال : إنها كانت قرآنا فنسخ ، ولم يعرف من قرأ [با] لناسخ ؟ أو لم تنسخ ، ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن ثبتت عنده دون من لم تثبت ، أو لغير ذلك ، هذا فيه نزاع مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأما من قرأ بقراءة أبى جعفر ويعقوب ونحوهما : فلا تبطل الصلاة بها باتفاق الأئمة ؛ ولكن بعض المتأخرين من المغاربة ذكر في ذلك كلاما وافقه عليه بعض من لم يعرف أصل هذه المسألة .

وقال شيخ الإسلام

ابن تيميه قدس الله روحه

وأما « الحروف » هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فالخلاف فى ذلك بين الخلف مشهور ، فأما السلف فلم ينقل عن أحد منهم أن حروف القرآن وألفاظه وتلاوته مخلوقة ، ولا ما يدل على ذلك ؛ بل قد ثبت عن غير واحد منهم الرد على من قال : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وقالوا : هو جهمي . ومنهم من كفره ، وفي لفظ بعضهم تلاوة القرآن ، ولفظ بعضهم الحروف .

وممن ثبت ذلك عنه أحمد بن حنبل ، وأبو الوليد الجارودي صاحب الشافعي ، وإسحاق بن راهويه ، والحميدي ، ومحمد بن أسلم الطوسي ، وهشام بن عمار ، وأحمد بن صالح المصري . ومن أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليطالع الكتب المصنفة فى السنة ؛ مثل « الرد على الجهمية » للإمام عبد الرحمن بن أبى حاتم ، وكتاب « الشريعة » للآجرى و « الإبانة » لابن بطة ، و « السنة » للالكائى ، و « السنة » للطبرانى

وغير ذلك من الكتب الكثيرة ، ولم ينسب أحد منهم إلى خلاف ذلك ، إلا بعض أهل الغرض نسب البخاري إلى أنه قال ذلك . وقد ثبت عنه بالإسناد المرضي أنه قال : من قال عني أنى قلت لفظي بالقرآن مخلوق فقد كذب . وتراجمه في آخر صحيحه تبين ذلك .

وهنا ثلاثة أشياء :

« أحدها » حروف القرآن التى هي لفظه قبل أن ينزل بها جبريل . وبعد ما نزل بها ، فمن قال : إن هذه مخلوقة فقد خالف إجماع السلف ، فإنه لم يكن فى زمانهم من يقول هذا ، إلا الذين قالوا : إن القرآن مخلوق ، فإن أولئك قالوا بالخلق للألفاظ ؛ ألفاظ القرآن ، وأما ما سوى ذلك فهم لا يقرون بثبوته ، لا مخلوقا ولا غير مخلوق ، وقد اعترف غير واحد من فحول أهل الكلام بهذا : منهم عبد الكريم الشهرستانى مع خبرته بالملل والنحل ، فإنه ذكر أن السلف مطلقاً ذهبوا إلى أن حروف القرآن غير مخلوقة ، وقال : ظهور القول بحدوث القرآن محدث ، وقرر مذهب السلف فى كتابه المسمى بـ « نهاية الكلام » .

« الثاني » أفعال العباد . وهي حركاتهم التى تظهر عليها التلاوة . فلا خلاف بين السلف أن أفعال العباد مخلوقة ؛ ولهذا قيل : إنه بدع

أكثرهم من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ؛ لأن ذلك قد يدخل فيه فعله .

« الثالث » التلاوة الظاهرة من العبد عقيب حركة الآية ، فهذه منهم من يصفها بالخلق ، وأول من قال ذلك — فيما بلغنا — حسين الكرابيسي ، وتلميذه داود الأصبهاني ، وطائفة ؛ فأنكر ذلك عليهم علماء السنة فى ذلك الوقت ، وقالوا فيهم كلاما غليظا ، وجمهورهم — وهم اللفظية عند السلف — الذين يقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق ، أو القرآن بألفاظنا مخلوق ، ونحو ذلك .

وعارضهم طائفة من أهل الحديث والسنة كثيرون ، فقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، والذي استقرت عليه نصوص الإمام أحمد وطبقته من أهل العلم :أن من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، هذا هو الصواب عند جماهير أهل السنة، أن لا يطلق واحد منهما ، كما عليه الإمام أحمد وجمهور السلف ؛ لأن كل واحد من الإطلاقين يقتضى إيهاما لخطأ ؛ فإن أصوات العباد محدثة بلا شك ، وإن كان بعض من نصر السنة ينفي الخلق عن الصوت المسموع من العبد بالقرآن ، وهو مقدار ما يكون من القرآن المبلغ .

فإن جمهور أهل السنة أنكروا ذلك وعابوه ، جريا على منهاج أحمد

وغيره من أئمة الهدى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وأما التلاوة في نفسها التى هي حروف القرآن وألفاظه ، فهي غير مخلوقة . والعبد إنما يقرأ كلام الله بصوته ، كما أنه إذا قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فهذا الكلام لفظه ومعناه إنما هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قد بلغه بحركته وصوته ، كذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله تعالى ؛ ليس للمخلوق فيه إلا تبليغه وتأديته وصوته ، وما يخفى على لبيب الفرق بين التلاوة فى نفسها ؛ قبل أن يتكلم بها الخلق ، وبعد أن يتكلموا بها ، وبين ما للعبد في تلاوة القرآن من عمل وكسب ، وإنما غلط بعض الموافقين والمخالفين ، فجعلوا البابين بابا واحداً ، وأرادوا أن يستدلوا على نفس حدوث حروف القرآن بما دل على حدوث أفعال العباد وما تولد عنها ، وهذا من أقبح الغلط ، وليس فى الحجج العقلية ، ولا السمعية ما يدل على حدوث نفس حروف القرآن ، إلا من جنس ما يحتج به على حدوث معانيه . والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه لمن استهدى الله فهداه .

وأما ما ذكروه من آيات الصفات وأحاديثها : فمذهب سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر الأئمة المتبوعين الإقرار والإمرار . قال

أبو سليمان الخطابي ، وأبو بكر الخطيب : مذهب السلف فى آيات الصفات ، وأحاديث الصفات ، إجراؤها على ظاهرها مع نفي الكيفية ، والتشبيه عنها . وقالا فى ذلك : إن الكلام فى الصفات فرع على الكلام فى الذات ، يحتذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات ذاته إثبات وجود لا إثبات كيفية : فكذلك إثبات صفاته إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فلا نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا إن معنى السمع العلم ، هذا كلامها .

وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي : كيف ينزل إلى سماء الدنيا ؟ فقل له : كيف هو فى نفسه ؟ فإن قال : نحن لا نعلم كيفية ذاته . فقل : ونحن لا نعلم كيفية صفاته ، وكيف نعلم كيفية صفة ، ولا نعلم كيفية موصوفها .

ومن فهم من صفات الله تعالى ما هو مستلزم للحدوث ، مجانس لصفات المخلوقين ، ثم أراد أن ينفي ذلك عن الله فقد شبه وعطل ؛ بل الواجب أن لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا تتجاوز القرآن والحديث . وأن نعلم مع ذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، لا في نفسه ، ولا في أوصافه ، ولا فى أفعاله ، وأن الخلق لا تطيق عقولهم كنه معرفته ، ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته (سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)
وصلى الله على محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وسئل رحمه الله

عمن يقول : إن الشكل والنقط من كلام الله تبارك وتعالى ، وهل ذلك حق أم باطل ؟ وما الحكم فى الأحرف ؟ هل هي كلام الله أم لا ؟ بينوا لنا ذلك مثابين مأجورين ؟.

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . المصاحف التى كتبها الصحابة لم يشكلوا حروفاً ، ولم ينقطوها ؛ فإنهم كانوا عرباً لا يلحنون ، ثم بعد ذلك فى أواخر عصر الصحابة لما نشأ اللحن صاروا ينقطون المصاحف ويشكلونها وذلك جائز عند أكثر العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وكرهه بعضهم ، والصحيح أنه لا يكره ؛ لأن الحاجة داعية إلى ذلك ، ولا نزاع بين العلماء أن [حكم] الشكل والنقط حكم الحروف المكتوبة ؛ فإن النقط تميز بين الحروف ، والشكل يبين الإعراب ، لأنه كلام من تمام الكلام . ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالا : « إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه » فإذا قرأ القارئ (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) كانت الضمة والفتحة والكسرة من تمام لفظ القرآن .

وإذا كان كذلك فالمداد الذي يكتب به الشكل والنقط كالمداد الذي

يكتب به الحروف ، والمداد كله مخلوق ، ليس منه شيء غير مخلوق . والصوت الذي يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد ؛ لكن الكلام كلام الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارئ ، وهذا ليس هو الصوت الذي ينادي الله به عباده ، ويسمعه موسى وغيره ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها ، وهو أيضاً يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم ، لم يزل متكلما إذا شاء فهو قديم النوع ، وأما نفس « النداء » الذي نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذ ناداه به ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ ، وكذلك نظائره ، فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة . قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

وكلام الله وما يدخل في كلامه من ندائه . وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه ، بل هو منه ، والقرآن سمعه جبرئيل من الله ، ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ونحو ذلك .

والنبي صلى الله عليه وسلم بلغه إلى الأمة ، والمسلمون يسمعه بعضهم من بعض ، وليس ذلك كسماع موسى كلام الله ، فإنه سمعه بلا واسطة والذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه فى مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره وهم يقرؤونه بأصواتهم ، ويكتبونه بمدادهم فى ورقهم . وأفعالهم ، وأصواتهم ، ومدادهم ، مخلوق .

والقرآن الذي يقرؤونه ويكتبونه هو كلام الله تعالى غير مخلوق ، سواء قرؤوه قراءة يثابون عليها ، أو لا يثابون عليها ، وسواء كتبوه مشكولا منقوطا أو كتبوه غيرمشكول ولا منقوط ؛ فإن ذلك لا يخرجه عن أن يكون المكتوب هو القرآن ، وهو كلام الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما بين اللوحين كلام الله ، سواء كان مشكولا منقوطاً ، أو كان غير مشكول ولا منقوط ، وكلام الله منزل غير مخلوق ، وأصوات العباد والمداد مخلوقان . والقرآن العربي كلام الله تكلم به ليس بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله ، وليس لجبريل ولا لمحمد منه إلا التبليغ ، لم يحدث واحد منهما شيئاً من حروفه ؛ بل الجميع كلام الله تبارك وتعالى .

وهذه « المسائل » مبسوطة فى غير هذا الجواب ؛ ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

الـكلام فى « القرآن » و « الـكلام » هل هو حرف وصوت ، أم ليس بحرف وصوت محدث : حدث فى حدود المائة الثالثة ، وانتشر في المائة الرابعـة ؛ فإن أبا سعيد بن كـلاب ثم أبا الحسن الأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة فى إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس بمخلوق ورأوا أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن قديماً ، وأنـه لا يمكن أن يكون قديماً إلا أن يكون معنى قائماً بنفس الله كعلمه ، وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغـة ، لا قديم ولا غير قديم ، لمـا رأوه من امتناع قيـام أمر حادث به ، وخالفوا فى ذلك جمهور المسلمين : من أهل الحديث ، والفقـه ، والـكلام والتصوف ، وإن تنوعت مآخذهم فإن الآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت .

ولهذا جهم الإمام أحمد وغيره من أنكر ذلك . قال عبد الله بن أحمـد : قلت لأبى : إن أقواما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت .

فقال : هؤلاء جهمية ؛ إنما يدورون على التعطيل ، وذكر حديث ابن مسعود ، وكذلك رواه غير واحد عن أحمد . وكذلك البخاري ترجم في صحيحه بابا في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ بين فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت . وكذلك المصنفون في السنة من أئمة الحديث وهم كثير ، وكذلك أئمة الصوفية ، كالحارث المحاسبي ، وأبي الحسن بن سالم وغيرهما ، وكذلك الفقهاء من جميع الطوائف : المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ، المصنفون في أصول الفقه ، يقررون أن الأمر والنهي ، والخبر ، والعموم له صيغ موضوعة في اللغة تدل بمجردها على أنها أمر ونهي ، وخبر ، وعموم ، ويذكرون خلاف الأشعرية في أن الأمر لا صيغة له .

ثم المثبتون للصوت منهم المعتزلة ، الذين يقولون : القرآن مخلوق يقولون كلامه صوت قائم بغيره ، ومنهم الكرامية ، وطوائف من أهل الحديث من الحنبلية ، وغيرهم ، يقولون : يتكلم بصوت قائم به ، لكن ليس الصوت بقديم .

ومنهم طائفة من متكلمة أهل السنة من الحنبلية وغيرهم يقولون : يتكلم بصوت قديم قائم به .

ومنهم طائفة من الفقهاء من الحنفية وغيرهم ، يقولون يخاطب

بصوت قائم بغيره ، والمعنى قديم قائم به .

فلما أظهرت الأشعرية — كالقاضي أبى بكر بن الباقلانى وغيره فى أواخر المائة الرابعة — أن الكلام ليس بحرف ، ولا صوت ، ولا لغة ، وقد تبعهم قوم من الفقهاء من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأبى حنيفة ، وقليل من أصحاب أحمد رأى أهل الحديث ، وجمهور أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث ما فى ذلك من البدعة ؛ فأظهروا خلاف ذلك ، وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت [١] .

---

(١) بياض بالأصل مقدار خمسة اسطر تقريبا .

سئل رحمه الله

عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب فى ذلك ؟

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه « المسألة » يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون فيها الحق بالباطل ، فالذي قال : إن القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ، وأن جبريل سمعه من الله والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) فقد أصاب فى ذلك ؛ فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع .

ومن قال : إن القـرآن العربى لم يتكلم الله به وإنمـا هو كلام جبريل أو غـيره عبر به عن المعنى القـائم بذات الله ، كما يقـول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فإن هؤلاء يقولون : إنه معنى واحد قائم بالذات ، وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وانه لا يتعدد ولا يتبعض ، وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وبالعبرانيـة كان توراة ، وبالسريانية كان إنجيـلا ، فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) و (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) ، والتوراة والإنجيل وغيرهما معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والشرع ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وإن أراد القـائل بالحرف والصوت أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي فى المصاحف قديم أزلي ، أخطأ وابتدع ، وقال ما يخـالف العقل والشرع ؛ فإن النبي صلى الله عليـه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القارئ ، والكلام كلام البارئ ، كما قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك ، وفي السنن عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليـه وسلم كان يعرض نفسـه على النـاس بالموسم فيقول :

« ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وقالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم : (الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ) أهـذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقـال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلغوا كلام النبي صلى الله عليـه وسلم كقوله : « إنما الأعمال بالنيات » فإن الحديث الذي يسمعونه حديث النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي صلى الله عليه وسلم . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه ، وقرأته الناس بأصواتهم .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفســه ، ونادى موسى بصوت نفسه ؛ كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ؛ فإن الله ليس كمثله شيء : لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامـه تكلم به بحرف وصوت ليس منـه شيء كلاما لغيره ، لا جبريل ولا غـيره ، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد

صوت القارئ والكلام كلام البارئ .

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب ؛ بل يجعل هذا هو هذا فينفيهما جميعا أو يثبتهما جميعاً ، فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربى كلام الله ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عز وجل ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، هو مصيب في هذا الفرق دون ذاك الثانى الذي فيه نوع من الإلحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق .

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله إن الحروف متعاقبة فى الوجود مقترنة فى الذات قديمة أزلية الأعيان فجعل عين صفة الرب تحل فى العبد أو تتحد بصفته ، فقال بنوع من الحلول والاتحاد يفضي إلى نوع من التعطيل

وقد علم أن عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها ؛ بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم حروفه ومعانيه

وأنه ينادي عبـاده بصوته ، ومتفقون على أن الأصوات المسموعـة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العبـاد ولامداد المصاحف قـديماً ، بل القرآن مكتوب فى مصـاحف المسلمين مقروء بألسنتهم محفوظ بقلوبهم وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط ، لأنهم كانوا عربا لا يلحنون ، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها ، فإن كتبت بلا شـكل ولا نقط جاز ، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ولم يكره فى أظهر قولي العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

وحكم « النقط والشكل » حكم الحروف ، فإن الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقـط الحروف . والمـداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام الله العربى الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الإعراب حكم الحروف ؛ لكن الإعراب لا يستقل بنفسه بل هـو تابع للحروف المرسومة ؛ فلهذا لا يحتاج لتجريدها وإفرادها بالـكلام ؛ بـل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله : معانيه وحروفه ، وإعرابه ، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد صـلى الله عليه وسلم والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمـكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله ، وهو القرآن العربي الذي أنزل على نبيه : سواء كتب

بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط ، والمداد الذي كتب به القرآن ليس بقديم ؛ بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين ؛ لأن كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل إذا كتب المصحف مشكلا منقوطاً كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام الله ، فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله ، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، فإنه قد أخبر أنه نادى موسى في غير موضع من القرآن كما قال تعالى : (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى) والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة ، وقد قال تعالى :

(إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى ، فمن قال : إن موسى لم يسمع صوتا ؛ بل ألهم معناه

لم يفرق بين موسى وغيره ، وقد قال تعالى : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ) وقال تعـالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فقد فرق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى ، فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا .

وقد قال الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلما إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى : (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ) فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى : (فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) فهو سبحانه ناداهما حـين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ) بعـد أن خلق آدم وصوره ، ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا قوله : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) فأخبر أنه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير : يخبر أنه تكلم فى وقت معين ، ونادى فى وقت معين .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : (إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ) وقال : « نبدأ بما بدأ الله به » فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين ، ثم قالت طائفة : هو معنى واحد ، هو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا . وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته ، وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلا وأبداً لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه في الأزل كان متكلما بالنداء الذي سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس ؛ بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ، ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا إن القرآن

مخلوق فى أصل قولهم . فإن أصل قولهم أن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ، ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا : هـذه حوادث ، والرب لا تقوم به الحوادث . فخـالفوا صحيـح المنقول وصريح المعقول ، واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا فى ذلك ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، وادعوا أن الرب لم يكن قادراً فى الأزل على كلام يتـكلم به ولا فعل يفعله ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، أو يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ؛ لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكناً له بعد أن صار ممتنعاً عليـه من غير تجدد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الأزل عـلى ما يمكن فيما لا يزال ، لا على مالا يمكن في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليـه ممتنعاً عندهم ، ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه ، كما لم يفرق الفلاسفة بـين هـذا وهذا ؛ بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه ، فضـلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ فإن الأدلة لاتدل عـلى قدم شيء بعينه من العالم بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن ؛ إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل عـلى ذلك الدلائل

القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ؛ بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة فكيف بالفاعل بالإرادة .

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته إنما يصح فيما كان من العلل يجري مجرى الشروط فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلا سواء سمي علة أو لم يسم علة فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين . والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمه مفعول معين . وقول القائل حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لامن باب الفاعل ؛ ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته فى الأزل ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث ، وهذا خلاف المشاهدة .

وإن كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل ؛ بل لم يزل متكلما إذا شاء فاعلا لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام ، والعالم فيه من الإحكام والإتقان مادل على علم الرب ، وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته ، وفيه من الإحسان مادل على رحمته ، وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته ، وفيه

من الحوادث مادل على قــدرة الرب تعــالى ، مـع أن الرب مستحق لصفات الـكمال لذاته ؛ فإنـه مستحق لـكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيـه ، منزه عن كل نقص ، وهو سبحانـه ليس له كفؤ في شـيء من أموره ، فهو موصوف بصفات الـكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ، ومنزه عن النقائص مطلقاً ؛ فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل ، وكماله من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء وما جعله فيهـم من صفات الأحيـاء ، وخالق صفات الـكمال أحق بها ، ولا كفؤ له فيها

وأصل اضطراب الناس فى « مسألة كلام الله » أن الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى « مسألة حدوث العالم » اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثا بناء على أن مالا يتناهى لا يمكن وجوده ، والتزموا أن الرب كان فى الأزل غـير قادر عـلى الفعل والـكلام ؛ بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلا عن ذلك ، وقد يعبرون عن ذلك بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لا يزال مـــع امتناع الفعل عليه فى الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقـدرة في حال امتناع المقـدور لذاتـه ؛ إذ كان الفعل يستـــلزم أن يكون له أول والأزل لا أول له والجمـع بـين إثبات الأوليـة ونفيها جمـــع بين النقيضين .

ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ؛ بل هذا يكون دائماً وإن كان كل من آحاده حادثاً ، كما يكون دائما في المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانيا ، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً فإن هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل ؛ ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه ؛ فإنهم لم يكونوا يقولون ذلك ، وإن قالوا بقدم الأفلاك ، وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين ، بناء على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلا مبدعا ، ولم يثبتوا ممكناً قديما واجبا بغيره ، وهم وإن كانوا أجهل بالله واكفر من متأخريهم فهم يسلمون لجمهور العقلاء أن ما كان ممكنا بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقا بالعدم ، فاحتاجوا أن يقولوا كلامه مخلوق منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له ؛ لكن قالوا تقوم به الأمور الاختيارية فقالوا إنه فى الأزل لم يكن متكلماً بل ولا كان الكلام مقدوراً له ثم صار متكلماً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به ، وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون إلا قديم العين لازماً لذات الرب ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن والتوراة والإنجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ، ومنهم من قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات .

وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته ، وإنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، وإنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا في قوله : (وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وجدت ؛ بل إما أنه لم يزل رائياً لها ، وإما أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم ، إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل .

والذي ألجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه سبحانه لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام وخالفوا السلف والأئمة فى قولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية .

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون : إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته : لا قديم النوع ، ولا قديم العين ، ولا حادث ، ولا مخلوق ؛ بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون إنه كلم موسى من سماء عقله ، وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ؛ فإنه إنما يعلمها على وجه كلي ، ويقولون مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم يعلم نفسه ومفعولاته حق ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؛ لكن قولهم مع ذلك : إنه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض فإن نفسه المقدسة معينة ، والأفلاك معينة ، وكل موجود معين . فإن لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، إذ الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا في الأعيان ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهم إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للباري تعالى ، مع أن هؤلاء يقولون إن الحوادث تقوم بالقديم ، وإن الحوادث لا أول لها ؛ لكن نفوا ذلك عن الباري لاعتقادهم أنه لا صفة له ؛ بل هو وجود مطلق ، وقالوا : إن العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر ، والعلم والعالم شيء واحد ، والمريد والإرادة

شيء واحد ، فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوف .

ومنهم من يقول بل العلم كل المعلوم كما يقوله الطوسي صاحب « شرح الإشارات » فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن سينا أقرب إلى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والإلحاد ممن يقول معاني الكلام شيء واحد ؛ لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى جاز أن تكون الصفة هي الموصوف ، فجاء ابن عربي وابن سبعين والقونوي ونحوهم من الملاحدة فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق ، فقالوا : إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد

بالعين ، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد فى الكلام إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات ، كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا أولا : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين ؛ بل لما نادى موسى فقال (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي) (إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات فى الأزل يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله تعالى .

ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان قديم ومحدث — وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلي . وحكي عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلي ، وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه ؛ بل منهم من يظن أن معناه أنه قديم فى علمه ، ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره ، ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق ، ومنهم من لا يميز بين ما يقول ، فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات ، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى

الذات والصفات ، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل .

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى ؛ لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم ، وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وأنه سبحانه بائن من مخلوقاته بذاته وصفاته ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وإن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات أو الصفات باطلة ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد بسطناها فى الواجب الكبير والله أعلم بالصواب .

وسئل رحمه الله

عن المصحف العتيق إذا تمزق ما يصنع به ؟ ومن كتب شيئاً من القرآن ثم محاه بماء أو حرقه فهل له حرمة أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله . أما المصحف العتيق والذي تخرق ، وصار بحيث لا ينتفع به بالقراءة فيه ، فإنه يدفن في مكان يصان فيه ، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه في موضع يصان فيه ، وإذا كتب شيء من القرآن أو الذكر في إناء أو لوح ومحي بالماء وغيره ، وشرب ذلك فلا بأس به ، نص عليه أحمد وغيره ، ونقلوا عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه كان يكتب كلمات من القرآن والذكر ، ويأمر بأن تسقى لمن به داء ، وهذا يقتضي أن لذلك بركة .

والماء الذي توضأ به النبي صلى الله عليه وسلم هو أيضاً ماء مبارك ؛ صب منه على جابر وهو مريض . وكان الصحابة يتبركون به ، ومع هذا فكان يتوضأ على التراب وغيره ، فما بلغني أن مثل هذا الماء ينهى عن صبه في التراب ونحوه ، ولا أعلم في ذلك نهياً ، فإن أثر الكتابة لم يبق بعد المحو كتابة ، ولا يحرم على الجنب مسه . ومعلوم أنه ليس

له حرمة لحرمته ما دام القرآن والذكر مكتوبان ، كما أنه لو صيغ فضة أو ذهب أو نحاس على صورة كتابة القرآن والذكر ، أو نقش حجر على ذلك على تلك الصورة ، ثم غيرت تلك الصياغة وتغير الحجر لم يجب لتلك المادة من الحرمة ما كان لها حين الكتابة .

وقد كان العباس بن عبد المطلب يقول فى ماء زمزم : لا أحله لمغتسل ، ولكن لشارب حل وبل . وروى عنه أنه قال : لشارب ومتوضئ ولهذا اختلف العلماء هل يكره الغسل والوضوء من ماء زمزم ، وذكروا فيه روايتين عن أحمد . والشافعي احتج بحديث العباس ، والمرخص احتج بحديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ من ماء زمزم ، والصحابة توضأوا من الماء الذي نبع من بين أصابعه مع بركته ؛ لكن هذا وقت حاجة .

والصحيح : أن النهي من العباس إنما جاء عن الغسل فقط لا عن الوضوء ، والتفريق بين الغسل والوضوء هو لهذا الوجه ، فإن الغسل يشبه إزالة النجاسة ؛ ولهذا يجب أن يغسل فى الجنابة ما يجب أن يغسل من النجاسة ؛ وحينئذ فصون هذه المياه المباركة من النجاسات متوجه ، بخلاف صونها من التراب ونحوه من الطاهرات . والله أعلم .

آخر المجلد الثانى عشر

فهرس المجلد الثاني عشر

صفحة		الموضوع

صفحة	الموضوع
	الخط العربى من الأنبار
٧٠ ـ ٨٠	إن قيل الحرف – ونحوه ـ من حيث هو هل هو مخلوق أم لا ؟
٧٣ ـ ٧٨	الكلام يضاف إلى المبتدى به لا إلى المؤدى ويختلف صوته
٧٤ ـ ٧٨	مسألة اللفظ بالقرآن والإيمان هل هما مخلوقان أم لا ، مجىء القرآن يوم القيامة
٨١ ، ٨٢	القرآن بين أصول الدين بالأدلة العقلية بيانا لا يوجد مثله فى كلام الناس
٨٢ ، ٨٣	ما فى حجج المعطلة والدهرية من الفساد والتناقض ، سبب ضلالهم
٨٣ ـ ١١٧	الكلام فى الحروف هل هى قديمة أو مخلوقة وما نقل عن السقطى وأحمد والقاضى وابن عقيل وأمثالهم فى ذلك
٨٥	حديث لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف إلخ ضعيف
٨٦ ـ ١١٧	قول السلف لم يزل الله متكلما إذا شاء ، وأن القرآن غير مخلوق إلخ ، الرد على الكلابية ، قولهم فى السمع والبصر ، المحاسبى
٩٦ ، ٩٧	كلام الله وسائر صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ، الاشتراك فى المسمى لايقتضى الاشتراك فى شىء موجود فى الخارج
٩٦ ، ٩٧	الفرق بين قسمة الشىء إلى كلياته وقسمة الكل إلى أجزائه
٩٨ ـ ١٠٠	الكلام كلام البارى والصوت صوت القارئ ، يجب على الإنسان فى « مسألة الكلام » أن يتحرى أصلين ...
١٠٠ ـ ١٠٢	مسألة الشكل والنقط فى المصحف ، وكيفية ذلك
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ـ ١٠٩	الحرف والكلمة فى لغة العرب وفى الاصطلاح
١٠٥ ، ١٠٦	القديم فى اصطلاح المتكلمين ، ولفظ المحدث فى لغة القرآن
١٠٦	لفظ القضاء والأداء فى لغة الرسول ، والحديث فى ذلك ، سبب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله
١٠٩ ـ ١١١	فصل ولفظ الحرف يراد به حروف المعانى ، لفظ الحرف فى اللغة واشتقاقه ، الحروف أقسام
١١١ ، ١١٢	من تفسير (اقرأ) ، العلم له ثلاث مراتب ، لكل شىء أربع وجودات
١١٢ ، ١١٣	هل وجود كل شىء هو عين ماهيته أم لا ، أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسمين
١١٣	يجب الإقرار بما جاء به الكتاب والسنة لفظا ومعنى ،
١١٤	لا يجب على أحد أن يوافق على إثبات الألفاظ التى لم ترد فى الشرع ولا على نفيها حتى يستفسر عن المراد بها
١١٤ ـ ١١٦	من أسباب الاختلاف : الألفاظ المجملة ، والمعانى المشتبهة ، أو الجهل بما جاء به الرسول

صفحة	الموضوع
١٤٠ ـ ١٤٨	ما هى الحوادث عند من استدل على أن الأجسام لا تخلو من الحوادث وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، التحقيق فى ذلك ، هل السكون أمر وجودى ؟
١٤٢ ـ ١٤٤	مسألة دوام الحوادث فى الماضى والمستقبل
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨	جمهور قدماء الفلاسفة لا يقولون بقدم العالم ولا الأفلاك وإنما زعم ذلك أرسطو وأتباعه ، إبطال قولهم ، نزاعهم فى قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود
١٤٤ ـ ١٤٧	ابن سينا أثبت ممكنا قديما وخالفه الفلاسفة وجماهير العقلاء
١٤٥ ـ ١٤٨	زعمهم أن المعلول قد يقارن علته ، أرسطو وأتباعه يرون أن الفلك قديم واجب الوجود بنفسه ، وأن له علة يتشبه بها ، الفلسفة عندهم ، الأزل
١٤٩ ـ ١٥٣	فصل وإذا عرف الأصل الذى تفرع منه نزاع الناس فى « مسألة كلام الله » فالقائلون لذلك الأصل تنازعوا فى كلام الله ، قول الجهمية والنجارية والضرارية ، قول المعتزلة ، قول الكرامية ، قول الكلابية والأشعرية ، قول السالمية فى كلام الله ، تعليلهم لهذه الأقوال والرد عليها
١٥٣	نزاعهم فى القرآن هل هو حال فى الصدور والمصحف أم لا
١٥٤ ـ ١٥٧	قول الفلاسفة فى الأفلاك والعالم وفى واجب الوجود وكلامه والملائكة، وقول القدرية فى أفعال العباد ، الرد على الجميع
١٥٧ ـ ١٦٢	قول الصنف الثالث : كل ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث، وقولهم فى كلام الله . هل الصوت الذى تكلم الله به قديم ؟ وهل حروف المعجم قديمة أو مخلوقة ؟
١٥٩ ، ١٦٠	مراد من قال : « إن الله لما خلق الأحرف سجدت له إلا الألف » إلخ
١٦٢ ـ ٢٣٥	**« المسألة المصرية فى القرآن »**
١٦٢	**« سئل عمن قال اختلاف المسلمين فى كلام الله على ثلاثة أنحاء إلخ » .**
١٦٢ ، ١٦٣	الأقوال التى قالها المنتسبون إلى الإسلام فى كلام الله تبلغ سبعة أو تزيد (١) قول المتفلسفة ومن وافقهم
١٦٣ ، ١٦٤	(٢) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، أول هؤلاء الجعد بن درهم
١٦٥ ، ١٦٦	(٣) قول الكلابية والأشعرية ، الرد عليهم

صفحة	الموضوع
١٦٦ ـ ١٧٢	(٤) قول طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم ، القول فى مداد المصحف
١٦٨ ، ١٦٩	غلط أبو طالب على الإمام أحمد حيث حكى عنه أنه قال لفظى بالقرآن غير مخلوق ، سبب اشتباه ذلك
١٦٩ ـ ١٧٢	نزاع الناس فى الاسم هل هو المسمى أو غيره ، والصواب فى ذلك، « مسألة اللفظ بالقرآن » ، والصوت
١٧١ ، ١٧٢	الكلام على قوله : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ) الآية
١٧٢ ، ١٧٣	(٥) قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم
١٧٣ ، ١٧٤	(٦) قول الجمهور وأهل الحديث ، وردهم على تلك الطوائف
١٧٦	قول السائل ذهب قوم إلى أنه قديم الصوت والحروف وهم الحشوية ، أول من تكلم بكلمة « حشوية » وما يراد بها ، وقول الجمهور ، وقول العامة
١٧٦ ، ١٧٨	الطائفة تضاف تارة إلى الرجل الذى هو إمام مقالتها ... وتارة تضاف إلى قولها وعملها
١٧٧	قول السائل وقوم ذهبوا إلى أنه حادث بالصوت والحروف وهم الجهمية ، مقالة الجهمية والمعتزلة والكرامية
١٧٨	قول السائل وقوم نجوا إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف إلا أنه معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية
١٧٨ ـ ١٨٠	قوله : فمن قال إن الحرف والصوت الملفوظ بهما عين الكلام القديم فلأهل الحق فيه رأيان رأى بتكفيره ورأى بتبديعه الخ
١٧٩	بحث فى المداد وصوت القارئين
١٨٠ ـ ١٨٦	منشأ ضلال من قال : إن القرآن مخلوق ومن وافقهم على أصل مقالتهم من الكرامية والأشاعرة والسالمية ، مذهب أهل السنة ومن وافقهم ، مناظراتهم لهذه الطوائف
١٨٤ ـ ١٨٨	عجز أهل الكلام عن إثبات حدوث العالم والرد على الدهرية
١٨٥ ـ ١٨٨	بطلان حجة الفلاسفة والدهريه على قدم العالم ، أدلة إثبات الصانع
١٨٩ ـ ١٩١	وأما قول القائل : كلام الله منزه عن سمات الحدوث ، إذا الصوت والحرف لازمهما الحدوث إلخ ، لم يوافق الكلابية على قولهم أحد من الطوائف ، مناظرة الفرق لهم فى المعنى والحروف والأصوات
١٩٢	قول القائل كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق فكذلك لقوله الحق
١٩٣	وأما قوله لتعلم أن الحرف اللسانى والحرف البنانى كلاهما مقيد بزمان يصرفه
١٩٣ ـ ١٩٦	قوله المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن أن تكتنفه الحدثان

صفحة	الموضوع
١٩٧	قول القائل ما ثم إلا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والأصوات؟
١٩٧ ـ ٢٠١	قوله من قال لفظى عين كلام الله فقد انسلخ عن ربقة العقل وغرق فى بحر العماية والجهل ، الكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من بلغه ، فرق بين أن يسمع من المتكلم به وبين أن يسمع من غيره
٢٠١ ، ٢٠٢	قول القائل : من قال إن مذهب جهم هو مذهب الأشعرى أو قريب منه فهو جاهل إلخ .
٢٠٢	الفرق بين مذهب الكلابية والأشعرية وبين مذهب الجهمية والمعتزلة
٢٠٢ ـ ٢٠٦	حقيقة مذهب جهم والقرامطة والمتفلسفة وابن كلاب والأشعرى والقلانسى والجوينى وأتباعه فى مسائل أصول الدين
٢٠٤ ـ ٢٠٦	الأشعرى ابتلى بطائفتين : طائفة تحبه وطائفة تبغضه ، وكل منهما يقول إنما صنف هذه المصنفات تقية ، سبب ذلك وحقيقة الأمر
٢٠٦ ، ٢٠٧	الإمام أحمد يجهم اللفظية ، ويكفر القائلين بخلق القرآن
٢٠٧ ـ ٢٠٩	نسب القول بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق إلى أحمد وغيره من العلماء كما غلطوا أبا طالب فى نقله عن أحمد ووقع نزاع بين أصحاب أحمد وغيرهم بعد موته فى ذلك
٢٠٨ ، ٢٠٩	أعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان وتحاملوا فيها على البخارى ، سبب ذلك
٢٠٩ ـ ٢١٢	الأشعرى ومن تبعه يوافقون أحمد على الإنكار على الطائفتين ، لكن يخالفونه فى سبب الكراهة
٢١١ ـ ٢١٣	كلام أئمة المسلمين فى هذه المسألة أشد الكلام مطابقة للعقل والنقل، قد يكون بعض اختلاف الناس فى هذا الباب اختلاف تنوع
٢١٣ ـ ٢١٧	منشأ نزاع المسلمين فى هذا الباب أن المتكلمين قالوا : لا يمكن معرفة إثبات الصانع إلا بإثبات حدوث العالم ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام والطريق إلى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث ما قامت به الأعراض ، اعتراضات الناس على طريقتهم
٢١٦ ـ ٢١٩	تناقض الفلاسفة القائلين بقدم النفس والعقل وحدوث الأجسام ، هل النفس عرض قائم بجسم الفلك ؟ أو جوهر قائم بنفسه ؟
٢٢٠ ـ ٢٣٤	الطرق العقلية التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله
٢٢٦ ـ ٢٣٤	قول الفلاسفة بقدم العالم أبطل من قول المعتزلة بنفى الصفات وحدوث العالم إيضاح ذلك
٢٢٩ ـ ٢٣٤	ما ذكره الرازى فى الأربعين يبين أصل الفلاسفة فى التوحيد الذى نفوا به الصفات ، الجواب عن ذلك

٢٣٥ ــ ٢٤٥ « سئل عن بيان ما يجب على الإنسان أن يعتقده ويصير به مسلما من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم أو عبارة عنه الخ » .

٢٤٦ ــ ٢٥٨ « التبيان فى نزول القرآن » .

صفحة	الموضوع
٢٦٨	بعض المتأخرين يرى أن أفعال العباد قديمة ، تعليله لذلك
٢٧٠ ، ٢٧١	تفسير : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) الآيات .
٢٧١ ـ ٢٧٤	أول من قال : القرآن حكاية عن كلام الله أو عبارة
٢٧٤	مسألة القرآن لها طرفان (١) تكلم الله به (٢) تنزيله إلى خلقه
٢٧٥ ـ ٢٨٣	فصل وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه بلا واسطة ، وتقولون : إن الذى تسمعونه كلام الله من وسائط فما الفرق ؟
٢٧٦ ـ ٢٨٢	شبهة من لم يفرق بينهما ، يختلف معنى اللفظ بالإطلاق والتقييد كالرؤية
٢٧٧ ـ ٢٧٩	بحث فى الحقيقة والمجاز ، الرؤيا ثلاثة أقسام
٢٧٩ ، ٢٨٠	التكليم ثلاثة أنواع ، قد يقصد معنى صحيحا من قال القرآن حكاية عن كلام الله
٢٨٠ ـ ٢٨٣	بحث فى الاسم والمسمى ، معنى قول أحمد هذا غير مخلوق لما قرأ عليه أبو طالب : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) غلط أبى طالب عليه
٢٨٣ ـ ٢٩٦	فصل وأما قول القائل : تقولون إن القرآن صفة الله وأن صفات الله غير مخلوقة
٢٨٣ ، ٢٨٤	منشأ غلط الطوائف فى القرآن هو عدم الفرق فى المشار إليه إذا قيل هذا كلام الله ، التحقيق فى ذلك ، والفرق بين المسموع من القارئ المبلغ وبين أفعاله وحركاته فيها
٢٨٩ ـ ٢٩١	غلط من ظن أن القرآن فى المصحف كالأعيان فى الورق ، كل موجود له أربع مراتب
٢٩١ ، ٢٩٢	وأما قول القائل : إن قلتم إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية
٢٩٢ ، ٢٩٣	القرآن فى الصدور ، من أنكر ذلك ، الرد على النصارى فى قولهم بالأقانيم ، أقوال الحلولية والاتحادية
٢٩٣ ـ ٢٩٥	هل يقال : إن كلام الله حال فى المصحف أو فى الصدور ؟ وهل يقال كلام الناس المكتوب حال فى المصحف أو حال فى قلوب حافظيه ونحو ذلك
٢٩٤ ، ٢٩٥	المقالة المنكرة فى القرآن تتضمن ثلاثة أمور وغيرها ليس بمنكر

٢٩٦ ـ ٣٢٣ وقال : فصل قال الله : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ) » .

٢٩٦ ، ٢٩٧	لم ينزل من الله إلا كلامه، القول المشهور عن السلف فى القرآن، معناه .

صفحة	الموضوع
٢٩٨	النبى سمع القرآن من جبريل لم يسمعه من الله ، وجبريل سمعه من الله .
٢٩٩	الجواب عن نحو قوله : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ)
٣٠٠ ، ٣٠١	أنواع تكليم الله ، الرسول بلغ كلامه وأمر أمته بالتبليغ
٣٠١	ليس معنى قول السلف : « ليس بمخلوق » ليس بمفترى أول من عرف أنه قال : مخلوق ، وقال : قديم .
٣٠١ ـ ٣٠٦	افتراق من شارك ابن كلاب فى قوله ، قول السلف فى القرآن وكلام الله وأدلتهم ، المداد ، الصوت ، الحرف ،
٣٠٥	من نقل عن الإمام أحمد : أنه تكلم فى البخارى بسوء فقد افترى .
٣٠٦ ـ ٣٠٨	مسألة اللفظ بالقرآن ، والتلاوة ، والقراءة ، إضافة القرآن إلى الرسول
٣٠٩	عامة أهل البدع لا يعرفون قول السلف ولا يذكرونه .
٣٠٩ ، ٣١٠	قول الجهمية فى كلام الله ، وإذا تليت عليهم آيات التكليم والقول ، تكفير السلف لهؤلاء ، وبيان ضلالهم .
٣١٠ ، ٣١١	لو كان المنادى غير الله فى قوله « من يدعونى » للزم أن يقول المنادى ، الجواب عما روى : « أنه يأمر مناديا » .
٣١١ ، ٣١٢	مذهب جهم إنكار الأسماء والصفات والقول بالجبر ، المعتزلة اتبعوه فى إنكار الصفات وفى كلام الله ، كثير من الأصناف وافقوا المعتزلة .
٣١٢ ، ٣١٣	نزاع المعتزلة والكلابية والأشعرية فى حقيقة المتكلم والفاعل ، المتكلم عند أهل السنة وجمهور العقلاء .
٣١٣ ، ٣١٤	من حجج أهل السنة على أن القرآن غير مخلوق وعلى أن الله خالق أفعال العباد .
٣١٤ ـ ٣١٦	من وافق الكلابية على قولهم ، مذهب الكرامية ومن وافقهم فى الكلام ومتى حدث .
٣١٤ ـ ٣٢٢	شبه الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية والسالمية وأتباعهم ، ورد أهل العلم والسنة عليهم .
٣١٦ ـ ٣١٨	الجسم فى اللغة وعند النظار وأهل الكلام .

صفحة	الموضوع
٣٢٣ ــ ٥٠٢	« الكيلانيــة »

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٣٥٢	الأئمة كانوا يعرفون مقصد الجهمية ويصفونهم بالزندقة
٣٥٣ ، ٣٥٤	مشايخ الصوفية كفروا ابن سبعين وأمثاله ، كلام الله عندهم
٣٥٤ ، ٣٥٥	المعتزلة يوافقونهم فى أن الله لا يتكلم حقيقة ، كلامه عندهم مخلوق ، حكمهم عند السلف
٣٥٥ ـ ٣٥٩	قول أهل السنة والجماعة وجماهير الأمة فى القرآن وفى كلام الله وسائر صفاته
٣٥٦ ـ ٣٥٨	اصطلح المتفلسفة على تقسيم المتقابلين إلى العدم والملكة ، معنى ذلك، راجت شبهتهم على بعض أهل النظر ، الأجوبة عن هذه الشبهة
٣٥٩ ـ ٣٦٦	اللفظية وبدعتهم ، التلاوة ، والقراءة ، والأصوات ، اختلاف الناس فى هذه المسألة بعد أحمد ، وما نسب إلى البخارى فيها
٣٦٦ ـ ٣٦٨	ابن كلاب ومن سلك طريقته فى آخر عصره، افتراقهم فى القرآن وغيره
٣٦٨ ، ٣٦٩	حذر أحمد عن أصل ابن كلاب وعن أصحابه كالحارث ، متى ظهر من قال إن الله لم يتكلم بصوت ، ومن قال : إن الحروف مخلوقة . إنكار أحمد وغيره على الجميع
٣٦٩ ، ٣٧٠	نزاع الناس فى زمن أحمد وبعده فى معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد به أن نفس الكلام قديم أزلى كالعلم ، أو أن الله لم يزل موصوفا بأنه يتكلم إذا شاء ، مبنى هذا الخلاف
٣٧١ ، ٣٧٢	بعضهم يقول هو قديم ولا يفهم معنى القديم
٣٧٢ ـ ٣٧٥	قول أهل السنة فى كلام الله ، مسألة اللفظية الخلقيه واللفظيه المثبتة ، والتلاوة ، والقراءة ، وما يريد ابن كلاب بهما أيضا
٣٧٤ ، ٣٧٥	غلط من زعم أن الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب
٣٧٦ ـ ٣٨٠	سبب خطأ ابن كلاب والأشعرى، هؤلاء خالفوا أئمة السنة والحديث فى شيئين ،قد يستدلون بإضافة الرسول على أنه أحدث حروفه
٣٨٠	فصل ثم إن فروخ اللفظية النافية تفترى على منازعيها أنهم يقولون القرآن ليس إلا الأصوات المسموعة من العبد والمداد المكتوب فى الورق وأنهما قديمان
٣٨١ ، ٣٨٢	فروخ اللفظية المثبتة تفترى أيضا على منازعيها أن القرآن ليس

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٤١٨ – ٤٢٠	الكتب التى يوجد فيها الرد على الجهمية والواقفة
٤٢١	من أنكر بدعة اللفظية ، والقول بأن كلام الله حكاية أو عبارة
٤٢١ – ٤٢٩	من أنكر البدعة الثانية وهى بدعة اللفظية المثبتة
٤٢٩	فصل وأما نصوص أحمد وغيره على خلق كلام الآدميين وخلق أفعال العباد فكثيرة . بل هو إجماع
٤٣٠ ، ٤٣١	فصل وإنما نبهت على أصل مقالة أحمد وسائر أئمة السنة وأهل الحديث فى مسألة تلاوتنا للقرآن لأنها أصل ما وقع من الاضطراب فى هذا الباب
٤٣١ ، ٤٣٢	هذه المسألة لها أصلان (١) أن أفعال العباد مخلوقة (٢) مسألة تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به
٤٣٢ ، ٤٣٣	رد أحمد على اللفظية النافية أكثر وأغلظ لوجهين
٤٣٣ ، ٤٣٤	فصل وقد نص أحمد على أن كلام الله غير مخلوق فى غير موضع
٤٣٤ – ٤٣٧	كل صفة قامت بمحل يلزمها أمور ، المعتزلة تريد أن تنقض هذه القاعدة على الصفاتية وأهل السنة بالخالق والرازق ... هذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة
٤٣٦ ، ٤٣٧	الخلق من صفات الذات وصفات الفعل معا ، وهو غير مخلوق
٤٣٨ – ٤٤١	فصل وأما قول القائل إن أحمد إنما قال ذلك خوفا من الناس فجوابه ، أو جز كلمة فى أحمد وإمامته وصبره فى المحن
٤٤١ – ٤٦٤	فصل شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا فى خلق حروف المعجم وأسماء المخلوقات وأنها متفقة مع ألفاظ وحروف كلام الله ، التحقيق فى ذلك ، وبيان أن كلام الإنسان كله مخلوق حروفه ومعانيه ، والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه
٤٤٥ – ٤٤٨ ، ٤٥٢ – ٤٥٤ ، ٤٥٨	احتجوا بقوله (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا) ، ماذا علم آدم من الأسماء ؟ وهل اللغات توقيفية ؟
٤٤٨ ، ٤٤٩	ما فى القرآن من حروف المعجم بالنسبة إلى أوائل السور وغيرها ، والحكمة فى اختيار بعضها دون بعض
٤٥٤ ، ٤٥٥	من مقالات غلاة المشركين والكتابيين فى الله وفى غيره

صفحة	الموضوع
٤٥٦ ، ٤٥٧	يطلق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، الكلام عند الإطلاق يتناول اللفظ والمعنى جميعا
٤٥٨ ـ ٤٦٣	الكلام هو كلام من ألف معانيه وألفاظه وإن كان جميع ما فيه من الاسماء والحروف إنما تعلمها من غيره
٤٥٩ ، ٤٦٠	الكلام فى لغة العرب ، ما يعتبر كلاما فى الصلاة وفى اليمين عند الفقهاء
٤٦٠	علم الكلام المذموم ، الكلام فى اصطلاح الأصوليين وعند النحاة
٤٦٢ ، ٤٦٣	الناس فى الكلام قسمان : قسم جعلوا كلام الله كلام أنفسهم وقسم جعلوا كلامهم هو كلام الله ، والوسط ...
٤٦٤ ، ٤٦٥	فصل وأما سؤال السائل هل يجب على ولى الأمر زجرهم وردعهم ؟
٤٦٤	يجب الإنكار على كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة ، ويجب الاعتصام بهما
٤٦٤ ـ ٤٦٦	ذم من قال على الله غير الحق أو اتبع الظن والهوى ، ما يفصل النزاع بين الناس
٤٦٦ ـ ٤٦٨	فصل وأما تكفير هذا القائل فهو مبنى على أصل وهو أن كثيرا من أهل البدع يعتقدون اعتقادا هو ضلال ويرون كفر من خالفهم فى ذلك ، وبإزائهم ...
٤٦٨ ، ٤٦٩	فصل : مسائل التكفير والتفسيق من مسائل الأسماء والأحكام التى يتعلق بها الوعد والوعيد إلخ
٤٦٨	أوجب الله الجنة لأهل الإيمان وحرمها على الكافرين
٤٦٨ ـ ٤٧٠	تفسير : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ) الآية
٤٧٠ ، ٤٧١	أول بدعة حدثت فى الأمة بدعة الخوارج ، مذهبهم ومذهب المعتزلة
٤٧١ ـ ٤٧٥	مذهب المرجئة والجهمية ومن تبعهم فى الإيمان ، ومذهب أهل الجماعة فى ذلك
٤٧٥	الإيمان من الأسماء الشرعية ويتنوع مسماه قدرا ووصفا ، ومنه ما هو متفق عليه فى جميع الشرائع ومنه ما تختلف فيه الشرائع

صفحة	الموضوع
٥٠٢	حكم هذا القائل ، الجهمية لا تكذب بلفـــظ القرآن ، لكن تنفى معناه وحقيقته
٥٠٢ ، ٥٠٣	أول من ابتدع هذه المقالة ، المعتزلة وافقت الجهمية عـــلى بدعتهم وضمت إليها بدعا أخر
٥٠٣ ، ٥٠٤	حقيقة كلام الله عند المعتزلة وعند الجهمية
٥٠٤ ـ ٥٠٧	مذهب أئمة الدين فى صفات الله وكلامه والقرآن ونصوصهم على ذلك
٥٠٧ ، ٥٠٨	محنة أحمد وانتصار الحق
٥٠٨ ، ٥٠٩	إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى مناقض للقرآن
٥٠٩ ، ٥١٠	من قال إن كلام الله مخلوق فى الشجرة فقد قال بمثل مقالة فرعون
٥١٠ ـ ٥١٦	هؤلاء يقولون : إذا خلق كلاما فى غيره صار الله هـــو المتكلم به ، إبطال ذلك من وجوه
٥١٦ ، ٥١٧	أجمع السلف على أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق
٥١٧ ـ ٥٢٠	ليس معنى قول السلف : « منه بدأ » أنه فارق ذاته وحل بغـيره ، مقصود السلف حينئذ وقوله (من ربك) ونحوها ، لفظ النزول
٥٢٠ ـ ٥٢٢	الرد على من قال نزل به جبريل من اللوح المحفوظ
٥٢١	الرد على من احتج بقوله : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ)
٥٢٣ ـ ٥٣٢	« سئل عمن قال إن الله لم يكلم موسى تكليما ... فقال آخـــر إن قلت كلمه فالـكلام لا يكون إلا بحـــرف وصوت » .
٥٢٣ ، ٥٢٤	حكم من قال إن الله لم يكلم موسى ، أو قال إنه خلق صوتا فـــى الهواء أسمعه موسى ، هل أمر السلف بقتل من أنكر الرؤية والكلام

١٣١٥

خ ١

(١١٠٠٠/ي٣ - ٣ -ج١٢) (٦) (٠١)

ردمك : ٩٩٦٠-٧٧٠-٢٠-٦ (مجموعة)
٩٩٦٠-٧٧٠-٣٢-X (ج ١٢)